المجتمع القروي وثقافته

تأليف

روبرت ردفيلد

أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة شيكاغو

ترجمه وقدم له وعلق عليه

دكتور فاروق محمد العادلي

أستاذ الاجتماع والأنثروبولوجيا المساعد
بجامعتي القاهرة وقطر

الناشر

مكتبة نهضة الشرق

بحرم جامعة القاهرة

المجتمع القروى وثقافته

تأليف

روبرت ردفيلد

أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة شيكاغو

ترجمه وقدم له وعلق عليه

دكتور فاروق محمد العادلى

أستاذ الاجتماع والأنثروبولوجيا المساعد
بجامعتى القاهرة وقطر

مطبعة حسان

٤٢١ (أ) ش الجيش ـ القاهرة ت : ٨٣٣٥٤٠

هذه ترجمة الكتاب :

Robert Redfield, Peasant Society and Culture, Fourth Impression The Universty of Chicago Press, Chcago, 1965 .

تصـدير الطبعة الثالثـة

هذه دراسة علمية قيمة ومتخصصة على المجتمع القروى ، حاول فيها كاتبها روبرت ردفيلد ـ أستاذ الانثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة شيكاغو لسنوات عديدة أن يعرضها فى ضوء اطار معرفى واسع وعميق ومتكامل يجمع بين تخصصـــه الدراسي والمنهجى فى الانثروبولوجيا الاجتماعية وبين عدد آخر من العلوم الاجتماعية والانسانية فى مقدمتها علم الاجتماع والأديان المقارن والتاريخ والأدب والأخلاق والفلسـفة . وهذه النظرية الشاملة الواسعة التى يعالج بها ردفيلد موضوع بحثـــه اكتسبها من خلال تجاربه العديدة كأستاذ جامعى ومن الحقل العـلمى التجريبى حيث قام بدراسات حقلية على بعض المجتمعـات المحليـــة القروية ولا سيما فى أمريكا الوسطى وأخرج فى هذا الصدد مؤلفـــات متعددة . وهذا الكتاب الذى ننقله اليوم الى اللغة العربية ـ هو آخر كتاب سطره يراع هذا العالم والمفكر العظيم حيث صدر عام ١٩٥٦ قبل وفاته بعامين ـ ولذلك يمثل هذا الكتاب حقا خلاصة تجارب ردفيـلد ودراساته وتصوراته عن المجتمع القروى ، ومن ثم يميل الى التجريد والعمق فى تحليلاته التى يقدمها لنا فى هذا الكتاب .

وقد لاقت الطبعة الأولى من هذا الكتاب اقبالا يعكس حاجة المكتبة العربية الماسة الى وجود تراجم عربية رصينة لأمهات الكتب التى تعتبر بمثابة حجر الزاوية فى تطور العلم من حيث المنهج أو النظـــرية أو نتائج البحوث الميدانية . ونحمده تعالى لأن هذا الكتاب يقدم للقارىء المختص أثرا علميا هاما لعـــالم أنثروبولوجى كبير وهـــو العـــلامة الأمريكى ردفيلد .

ويتحمل المترجم وحده مسئولية جودة الترجمة وسلامتها ، كمـا يتحمل بمفرده أيضا ما جاء فى الكتاب من تعليقات وشروح والمقـدمة التحليلية للترجمة العربية .

ويسعدنى تقبل أية ملاحظات بناءة فى رحابة صـــدر وتقـــدير وامتنان . وحسبى أننى قد فتحت المجال لسير أغوار التراث الفكرى

الانسانى الذى تركه أحـــد جهـــابذة الأنثروبولوجيين الاجتماعيين المعاصرين ألا وهو روبرت ردفيلد .

والأمل كبير فى أن يؤدى هذا الكتـــاب دوره فى اثراء التراث العلمى الاجتماعى للمكتبة العربية من ناحية ، والاستفادة به من ناحية أخرى فى تطوير الحياة الاجتماعية فى المجتمع القروى ودراسته على أسس علمية سليمة تواكب التطور العلمى الجارى فى عالمنا المعاصر .

وعلى الله قصد السبيل .

نوفمبر ١٩٨٠

دكتور فاروق محمد العادلى

مقدمــة تحليلية للترجمة العربيــة

(المجتمع القــروى)

دراسة فى فــكر روبرت ردفيلد
من خلال منظور انثروبولوجى للثقافة
للدكتور : فاروق محمد العادلى

الأستاذ روبرت ردفيــلد Professor Robert Redfield علم بارز من أعلام الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى الولايات المتحدة الأمريكيـــة . والكتاب الذى قمنا بترجمته ونقله لقراء العربية تحت عنوان « المجتمع القروى وثقافته » هو أحدث وآخر كتبه التى صــدرت له عام ١٩٥٦ . وينحو ردفيلد فى معالجته لهذا الكتاب منحا أنثروبولوجيا من خــلال نظرة شاملة متكاملة للثقافة . وهذه المعالجة الأنثروبولوجية العميقـــة المتخصصة تتفق مع مكانته بين علمـــاء الأنثروبولوجيا الاجتمــاعيين المعاصرين .

ولد ردفيلد فى شيكاغو عام ١٨٩٧ لأبوين دانمركيين . وقد درس وعاش وتوفى فى شيكاغو (١) وتقلد ردفيلد عديدا من المناصب الهامة سواء فى الجامعة أو خارج الجامعة خاصة فى هيئات ومراكز البحوث العاملة فى ميدان الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية .

وتعد دراسة المجتمع القروى من الملامح الأساسـية للدراســـات الأنثروبولوجية فى القرن العشرين . وتمثل شريحة البيئات الريفيـــة بالنسبة للجماعات المتقدمة القطاع المتخلف نسبيا عن بقية القطـــاعات الحضرية . وقد ساهمت الدراسات الأنثروبولوجية فى دراسة الجماعات الريفية فى محاولة لتطبيق مناهج التنمية الاجتماعية والاقتصادية على

---

(١)للوقوف على تفصيلات عن حياة ردفيلد انظر ـ أحمد أبو زيد ، مجـــلة مطالعات فى العلوم الاجتماعية ، صيف ١٩٦٠ ، محمد الجوهرى وحسن الشامى ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفلكور ، الطبعة الثانية ، مترجم عن الانجليزية لمؤلفه ايكه هولتكرانس ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ . وسيشار الى هـــذا الكتاب فيما بعد ، على سبيل الاختصار ، تحت اسم : قاموس الاثنولوجيا .

أسس علمية موضوعية . وخلصت هذه الدراسات الى قواعد اساسية يلتزمها العاملون فى ميدان التنمية حتى غدت ركنا جوهريا من أركان البحث العلمى فى الحقل العملى ، بل أصبح من الممكن أن تصاغ نتائج الدراسات الميدانية فى الاطار العام للنظرية الأنثروبولوجية البنائية والوظيفية (٢) .

ويمكن رد هذا الاتجاه الى الفلسفية الاجتماعية التى تحاول أن تتخذ من النظرة العلمية الخالصة أداة لتحريك الواقع الاجتماعى واعادة بنائه بما يلائم هدف التطور حتى يصبح شعار العلم للمجتمع فلسفة عملية . ولم يضع دور كيم Durkheim هذا الشعار فى حيز التنفيذ الفعلى كما فعل راد كليف براون (٣) Radcliffe-Brown زعيم المدرسة الأنثروبولوجية الوظيفية فى انجلترا .

ولقد كانت اشارات الأنثروبولوجيين فى كتاباتهم عن المجتمعات القروية ترتكز أساسا على مظاهر الحياة القروية فى أوربا خلال القرن التاسع عشر . الا أن الاتجاه المعاصر قد ادار وجهه صوب المجتمع القروى خاصة بالنسبة للجماعات المتقدمة التى لا تعرف للبداوة مظهرا بينها والتى أخذت تحاول تقريب القرية من المدينة .

ويعتبر ردفيلد احد العلماء الرائدين البارزين فى مجال دراسة المجتمع القروى بين الأنثروبولوجيين الاجتماعيين . ولقد كانت دراساته التى قام بها ذات أهمية كبيرة لأنها كشفت الستار عن التعبيرات الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمعات القروية النامية التى واجهت مشكلات عديدة تحت تأثير الحضارة الحديثة واضمحلال نفوذ الدين والقيم الاجتماعية التقليدية . فقد كانت المجتمعات التقليدية التى سبقت

---

(٢) انظر _ فاروق محمد العادلى ، دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجية الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة _ الاسكندرية ، ١٩٧٤ .

(٣) أنظر : A.R. Radcliffe-Brown, The Andaman Islanders, Oxford University Press, 2nd Edition, Lodon, 1933. " On Joking Relaionship " Africa, 13, 1940. Patrilineal and Matrilineal Succession, Iowa Social Sciences, 1935. The Study of Kinship System, Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. IXXI, 1945. Structure and Function in Primitive Socicty, Oxford University Press, London, 1965.

ظهور الثورة الصناعية فى أوربا تقوم على مجموعة من التنظيمات تتحكمفى جوانب نشاطها وتدبر علاقاتهما ، فكانت الأسرة والدين والقرية ثالوثا ينظم سلوك الأفراد ويقيم عليها الضبط الاجتماعى ويرسم هدف المجتمع ووسيلته الى ذلك الهدف (٤) . وكانت النظم الاقتصادية التى تقوم خارج المنزل أو القرية قليلة وغير متطورة ، ولم تكن هناك ضرورات حيوية لمثل ذلك النوع من الاقتصاد الذى يقوم على التخصص وتنوع الحاجات والمطلب . ولم يكن أثر الحكومة المركزية على حياة المواطنين اليومية كبيرا فى نطاق الحقوق أو الواجبات المتبادلة . وكان هذا الى حد كبير هو حال المجتمعات التى ظلت بعيدة عن نمط الحضارة الصناعية وهى المجتمعات المهيئة للنمو ، فاهتز كيان المجمتع القروى الذى لم يعد الآن ذا دور ايجابى فى النظام الاقتصادى ، وسلبته المدنية كل مصادر قوته التاريخية . وكذلكأثر الدين على النظام الاجتماعى ، وارتد دوره الثقافى والاجتماعى الى الوراء ، وورثت المؤسسات المدنية والشريعات الوضعية أهم مقومات وجوده الاجتماعى فى المجتمعات الحديثة . وهذا لا يعنى أن الدور الروحى للدين لم يعد قائما ، ولكن يعنى أن التخصص وتقسيم العمل الذى تقوم عليه الحياة المدنية المعاصرة قد تسلل الى بعض المناطق الرئيسية التى كان يعمل فيها النشاط الدينى .

وترجع أهمية ردفيلد الكبرى بالنسبة للأنثروبولوجيا الأمريكية فى أنه طبق المنهج الأنثروبولوجى - الذى كان مقصورا فى البداية على دراسة ما يعرف باسم الثقافات البدائية أو المجتمعات البدائية (وبصفة خاصة دراسة القبائل) (٥) فى دراسة المجتمعات المحلية فى داخل الثقافات الراقية ، و ما أطلق عليه مفهوم « المجتمع الشعبى » . Folk Society وقد طبق ردفيلد هذه النظرة الجديدة فى دراسة بعض المجتمعاتالمحلية فى أمريكا الوسطى - لا سيما فى كتابه « تبوزتلان ، قرية مكسكية » . ثم لخصها فى أحدث مؤلفاته موضوع الترجمة المجتمع

---

(٤) انظر - محيى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٧٧ .

(٥)انظر - فاروق العادلى ، (الاتجاهات المعاصرة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية) بحث تحليلى ونقدى ، المجلة الاجتماعية القومية الصادرة عن المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، العدد الثانى ، مايو ١٩٧٣ .

القروى وثقافته . وتعد دراسة المجتمع القـروى ــ فى الواقــع ــ من الملامح الأساسية للدراسات الأنثروبولوجية فى القرن العشرين . ويعتبر ردفيلد رائدا بارزا فى هذا المجال (٦) .

وقد خلص ردفيلد من دراسته على المجتمعات القروية فى أمريكا الوسطى الى فكرة « النموذج » Typology التى يمكن أن نفسر بهـا عملية التطور الحضارى وتعرف هذه النظرية باسم « الاســتمرار من البدائى للمدينة » Folk-Urban وتصور تلك النظرية نموذجا للحياة البدائية البسيطة التى نجدها أساسا فى القبائل والقرى الصغيرة ، واتخـذت النظرية من ذلك النموذج البدائى نقطة ابتداء لعملية تطور الحضارات والمجتمعات الانسانية (٧) . وتصور النظرية كذلك وجود خط يمثـل مراحل التطور يبدأ عند نموذج المجتمع البدائى الذى أطلق عليه ردفيلد اسم المجتمع الشعبى (٨) . وتشمل المساحة بين نقطتى البدء والانتهاء (التصنيفان الاستقطابيان Polar اللذان وضعهما ردفيلد) مراحـل تطورية متعددة تمثل مجتمعات أخرى . وقد حدد ردفيـلد مميزات وخصائص هذا المجتمع البسيط فى أنه مجمتــع صـغير منعزل وأمى متجانس يتميز باحساس قوى بالتضامن الجماعى . وأضــف الى هذا مميزات اقتصادية هامة تتلخص فى بساطة التكنولوجيـا ، والنشـاط الانتاجى المشترك ، والاستقلال الاقتصادى وعدم التخصص أو تقسـيم العمل نتيجة للتخلف التكنولوجى ، أما عن خصائص السلوك الاجتماعى فى هذا المجتمـع فهو ســلوك منمط patterned يتميز بأنه تقليــدى traditional وتلقائى spontaneous وشخصي لا يحتمــل النقــد . personal and uncritical ومن أهم خصائص هذ المجتمع أيضا أنهمجتمع عائلى حيث يحدد النسق القرابى معظم أنماط ومظاهر السلوك الاجتماعى للفرد والجماعة على السواء . كما تتميز أحكام أفراد هذا المجتمع بأنها

---

(٦) فاروق العادلى ، المرجع السابق .

(٧) انظر : Atif Wasfi and Farouk El-Adly, Analytical and Critical Essays in Sociology and Anthropology, Dar Al-Maaref, Cairo, 1969. p. 5 ff.

(٨) الواقع أن مفهوم ردفيلد عن المجتمع الشعبى يقترب اقترابا وثيقا من مفهوم المجتمع المحلى Gemeinschaft عند عالم الاجتماع الالمانى Toennies ومفهوم الحشد Horde عند دوركيم فكلاهما قائم على التضامن الآلى .

شخصية ذاتية وعاطفية لا منطقية · ويلاحظ أن هذا المجتمع تكثر فيه أيضا المسائل الخاصة بالسحر والشعوذة بين أفراده لايمانهم بالقوى الخارقة للطبيعة ·

أما المجتمع الحضرى (وهو النموذج المثالى Ideal type الثانى عند ردفيلد الذى يمثل المفهوم الاستقطابى المقابل لمفهوم المجتمع الشعبى) فيتميز بخصائص مناقضة لخصائص المجتمع الشعبى منها كبر الحجم والتعقد والتباين وتقسيم العمل وارتفاع المستوى التكنولوجى، واختلاف سلوك أفراده وعدم التجانس والتفكك وسيادة القانون وتقدم العلوم وسيادة الروح الفردية والاتجاه الدنيوى المادى (٩) Secularisation أما عن خط التطور الذى يربط بين النموذجين فقد أطلق عليه ردفيلد اصطلاح استمرار continuum

ونستطيع أن ندرك الآن ان ردفيلد يعد المجتمع القروى شكلا من أشكال المجتمع الشعبى وهو رأى — فيما يرى اريكسون Erixon يمكن الأخذ به من وجهة النظر التصنيفية المنطقية ، أما من الوجهة التاريخية فهذه الثنائية غير ملائمة (١٠) ويجب أن يكون المقابل الحقيقى للمجتمع الحضرى هو المجتمع القروى · ويرى البرت اسكيرود Eskerod أن هناك اليوم مجتمعات محلية ريفية عديدة ، ولا يمكن ادخالها فى فئة المجتمعات الحضرية طبعا (١١) ·

ونود أن ننبه الأذهان الى مفهوم (المجتمع الشعبى) كما وضعه ردفيلد عبارة عن تشييد أو بناء نظرى عقلى Mental Construct أى نموذج مثالى تصورى Ideal type لا يوجد فى الواقع ، وهو يقارب مفهوم المجتمع البدائى أو المتخلف وبالتالى يمكن أن يدخل فى نطاقه كلا من المجتمع البدائى والمجتمع القروى ، طالما أن خصائص هذا المجتمع التى ذكرها ردفيلد تنطبق معظمها أو كلها على المجتمع الحقيقى الذى نود دراسته سواء أكان مجتمعا بدائيا أو قرويا · وبالنسبة للمقياس

(٩) انظر :
Robert Redfield, The Folk Culture of Yucatan, University of Chicago Press, Chicago, 1941, p. 364 ff.
(١٠) قاموس الاثنولوجيا ، ص ٣١٠ ·
(١١) المرجع السابق ص ٣١١ ·

الذى وضعه ردفيلد يمكن استخدامه لتحديد موضع المجتمع الذى ترغب فى دراسته ، عن طريق مقارنة خصائص مجتمع بالمجتمعين النموذجين. وقد يوضع المجتمع الذى ندرسه بالقرب من ندوذج المجتمع الشعبى اذا كانت خصائصه تشبه هذا النموذج ، أو يوضع بالقرب من نموذج المجتمع الحضرى اذا كانت خصائصه تشبه خصائص نموذج المجتمع الحضرى .

وفى ضوء الخصائص التى ذكرها ردفيلد لنموذج المجتمع البدائى أو الشعبى ، نستخلص حقيقة أساسية وهى أن الفلاح بالنسبة لردفيلد هو عبـــارة عن مركز حضـــارى Cultural Status وليس مركزا مهنيـــا Occupational Status كما ذهب الى ذلك عالم الاجتماع جوليان ستيوارد Julian Steward (١٢) . ويعنى هذا أن الفـــلاح هـــو حامل للثقـــافة القروية ، وليس مجرد شخص يمتهن الزراعة فالزراعة ليست فقط مهنة وانما هى كل ثقافى متكامل .

ولقد انتهى ردفيلد من دراساته الميدانية على المجتمعات القروية الى حقيقة أساسية مؤداها أن البناء الاجتماعى هو المحور الأســـاسي لاختبار كل مظاهر حياة المجتمع المحلى (١٣) . ولذلك فان كثيرا من المظاهر الاقتصادية والممارسات السرية والدينية هى تعبيرات عن البناء الاجتماعى . بل ان جزءا هاما من الاتجاه السلوكى الأخلاقى يحكمـه مفهوم الصواب المرتبط أساسا بالمطالب والالتزامات الاجتماعية نحـــو الأقارب وغيرهم من الناس والمرتبط كذلك بفكره الأدوار الاجتماعية التى تصنع البناء الاجتماعى ذاته .

ويستخدم مفهـوم البنـــاء الاجتمـــاعى - كغيره من المفاهيـــم السوسيولوجية والأنثروبولوجية - ليشير الى معـــادن عدة ، وان كانت هناك عناصر أساسية يجمع عليها الأنثروبولوجيون والسوسيولوجيون لاسيما هؤلاء الذين لهم اهتمامات بالدراسات الحقلية فى المجتمعات الصغيرة

---

(١٢) انظر -

Julian Steward, Theory of Culture Change : The Methodology of Multilnear Evolution, University of Illinois Press, Urbana, 1955.

(١٣) انظر -

Robert Redfield, The Little Community, University of Chicago - Press, Chicago, 1965.

التى يمكن فيها تحديد عناصر ومظاهر البناء الاجتماعى وخصائصه فى سهولة ويسر . وعلى أية حال ، فمن المهم الوقوف فى دراسة البنـــاء الاجتماعى على الشبكة الكلية للعلاقات الاجتماعية The total network of social relations وهذا هو التعريف الذى وضعه راد كليف براون للبناء الاجتماعى (١٤) . وهذا يثبت أن الوقوف على طبيعة ومشخصات شبكة العلاقات والروابط الاجتماعية وما يستتبع ذلك بالطبع من دراسة النظم الاجتماعية القائمة بصفتها انعكاسا للبناء الاجتمـــاعى ودرجـــة تأثيرها به ، تكون صلب الاهتمام الدراسي فى ميدان البناء الاجتماعى .

وبعد ردفيلد ـ الذى يعد رائدا بلا منازع فى ميدان دراسة المجتمـع القروى ـ قام عدد كبير من الأنثروبولوجيين بدراسـات متعـــددة على مجتمعات قروية فى أنحاء متفرقة من العـــالم . ونذكر من بين هـــذه الدراسات دراسة اريك وولف عن أنماط الفلاحين فى أمريكا اللاتينية (١٥)، ودراسة مارتن لانج عن القرية الصينية (١٦) ، ودراسة ادريان ماير عن الفلاحين فى الباسفيك (١٧) ، وارنسيرج عن الفلاح الايرلندى (١٨)، وكانسيان عن فلاح جنوب ايطاليا (١٩) ، وسميث عن المجتمع الريفى فى اليابان (٢٠) ، ولويس عن قرية تبوزتلان فى المكسيك(٢١) ...

---

(١٤) انظر – A. R. Radcliffe-Brown and Daryll Forde (eds.), African Systemc of Kinship and Marriage, Oxford University Press, 3rd Impression, London 1956, p. 82 .

(١٥) انظر – Eric Wolf, Types of Latin American Peasantry, American An thropologist, 57, 1955. pp. 452-471.

(١٦) انظر –

(١٧) انظر – Martin C. Mayer, Peasants in the Pacific : A Stndy of Fiji Indian Rural Society, Routledge and Kegan Paul, London, 1961.

(١٨) انظر – C. M. Arensberg, The Irish Countryman, Macmillan, New York, 1959 .

(١٩) انظر F. Cancian, The Southern Italian Peasant : World View and Political Behaviour, Anthrop. Quart. 34 : 1-18, 1961

(٢٠) انظر – R. J. Smith The Japanese Rural Community : Norms Sanc- tions and Ostracism, Amer. Anthrop. 63, 1961, pp. 522-533 .

(٢١) انظر O. Lewis, Tepoztlan, Village in Mexico, New York, 1960.

الخ . وهكذا أضحى الاهتمام بدراسة المجتمع القروى يشكل أحد تيارات البحث الرئيسية المعاصرة للأنثروبولوجيا فى القرن العشرين (٢٢) .

ونتجه الآن صوب عدد من الحقائق الأساسية التى أثارها ردفيلد فى كتابه الأخير . فقد ناقش موضوع علم الأنثروبولوجى ، وعرض فى هذا الصدد لآراء عدد كبير من الأنثروبولوجيين الكلاسيكيين والمعاصرين . وهو يذهب الى القول بأن علم الأنثروبولوجيا قد ركز على دراسة الجماعة البدائية كمجتمع مغلق وككل متكامل . وبعبارة أخرى دراسة المجتمع البدائى على أنه « ثقافة » مما يمكن معه رؤيته على أنه مجموعة من العادات والأنظمة داخل اطار فريد من الحياة . وهكذا أصبح الأنثروبولوجى - على حد تعبير كروبر - Kroeber « يتصور عالم المقارنات التى يجريها باعتباره مؤلفا من ثقافات أو مجتمعات أو أنساق اجتماعية ، كل منها يمكن تصوره كشيء متميز عن كل ما عداه » (٢٣) وهذه الحقية التى يشير اليها كروبر بمكن الاستدلال عليها من الحقل الميدانى لدراسات الأنثروبولوجيين الاجتماعيين ، فقد « ذهب كل منهم الى مكان ناء وعاش فى مجتمع صغير مغلق وعاد ليدون تقريره عن ثقافة معينة ككل متكامل يمكن أن تفسر على أنه نسق مكون من أجزاء مترابطة وظيفيا (٢٤) .

وقد كان العلامة هادون Haddon أول من طبق منهج الدراسة الحقلية بدقة وبصورة موضوعية ، وذلك عندما رأس بعثة جامعة كمبردج المؤلفة من بعض العلماء لدراسة منطقة مضايق توريس Torres Straits وهى عبارة عن مجموعة من الجزر الواقعة فى المحيط الهادى شمال شرق استراليا ، واستغرقت تلك الدراسة عامين من ١٨٩٨ الى ١٩٠٠ . ويعتبر ايفانز بريتشارد Evans-Prichard تلك الرحلة نقطة تحول فى تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، اذ ترتب عليها نتيجتان هامتان :

(٢٢) انظر - Clifford Geertz, " Studies in Peasant Life : Community and Society ", in Biennial Review of Anthropology, B. J. Siegel (ed.), Stanford University Press, Stanford, 1962

(٢٣) انظر - A. L. Kroeber, in Method and Perspective in Anthropology, ed., Robert F. Spencer, University of Minnlsota Press, Minneapolis, 1954 .

(٢٤) راجع - الترجمة العربية .

الأولى ــ النظر الى الأنثروبولوجيا الاجتماعية كعلم يحتاج الى التخصص والتفرغ الكاملين ٠

الثانية ــ اعتبار الدراسة الحقلية عنصرا جوهريا ليس فقط فى تمرين الطلاب لهذا العلم ، وانما فى تكوين العلم ذاته ، بمعنى أن المنهج الرئيسي لهذا العلم أصبح الدراسة الحقلية أو الميدانية ٠

كما قام راد كليف براون Radcliffe-Brown بدراسة حقلية لسكان جزر الأنداماان Andaman Islanders وهى مجموعة جزر فى خليج البنجال (جنوب بورما) تتبع الهند ، واستغرقت تلك الدراسة عامين من ١٩٠٦ الى ١٩٠٨ ٠ ويعتبر ايفانز بريتشارد هذه الدراسة أول محاولة يقوم بها أحد الأنثروبولوجيين الاجتماعيين لفحص النظريات الاجتماعية بالرجوع الى مجتمع بدائى معين ولوصف الحياة الاجتماعية فى ذلك المجتمع بطريقة تبرز بوضوح النواحى التى تتفق مع تلك النظريات ٠ وتفوق أهمية هذه الدراسة ما قامت به بعثة « هادون » فى مضايق توريس التى اهتمت بالجوانب النفسية أكثر من اهتمامها بالجوانب الاجتماعية (٢٥) ٠

وقد وصل تعميق وتركيز الدراسة الحقلية الى القمة على يد العلامة البريطانى الجنسية والبولندى المولد مالينوسكى Malinowski الذى أنفق فى دراسته لسكان جزر التروبرياند Trobriand بمنطقة ميلانيزيا مدة أربع سنوات من عام ١٩١٤ ــ ١٩١٨ وهى أطول مدة لبحث ميدانى ٠ وكان مالينوسكى أول انثروبولوجى يستخدم لغة الأهالى أنفسهم فى جمع المعلومات بدلا من الاعتماد الكلى على الاخباريين (٢٦) ٠ كذلك كان مالينوسكى أول انثروبولوجى عاش مع الأهالى متبعا فى ذلك عاداتهم وتقاليدهم طوال مدة الدراسة ٠ وبفضل تلك الظروف استطاع أن يتغلغل فى الحياة الاجتماعية عند

---

(٢٥)انظر ــ أحمد أبو زيد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مترجم عن الانجليزية لمؤلفه ايفانز برتشارد ، منشاة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٠ ٠

(٢٦) الاخبارى Informant هو الشخص الذى يمتلك خبرة بموضوع ما ، ويلجأ اليه الباحث الانثروبولوجى كى يمده بهذه الخبرة ــ انظر :

C. Winick, Dictionary of Anthropology, Iowa, 1958.

سكان جزر التروبريانه وأن يحللها ويفهمها فهما عميقا ، وبالتـــالى تمكن من تأليف عدد كبير من الكتب تدور حول الحياة الاجتماعيـــة لسكان تلك الجزر ٠

ويذكر ردفيلد أنه نتيجة لتركيز الأنثروبولوجى دراســـته على مجتمعات بدائية صغيرة ومنعزلة ، فانه قد استطاع أن يحقق الأهداف الثلاثة الآتية (٢٧) :

١ ـ أن يطور مناهجه وأن يتصور مجموعة هائلة من المقارنات٠

٢ ـ الاحاطة بمعرفة متكاملة لعدد كبير من العلوم الاجتماعية التى تدرس : الاقتصاد ، الدين ، الحياة العائلية ، ونظم الحكم ٠

٣ ـ تقديم كل شيء عن طريقة الحياة نتيجة لصغر وتماسك المجتمـع البدائى ٠

ويزداد الموقف اتضاحا الآن اذا ما ناقشنا مجال بحث هذا العلم، وهل يشمل المجتمع البدائى وحده أم كافة المجتمعات الانسانية ٠ فقد تردد علماء الأنثروبولوجيا قليلا قبل اعادة تعريف علمهم بأنه دراسة كل الشعوب فى كل أنواع المواقف الاجتماعية والثقافية ٠ فمثـلا أكد رادكليف براون عام ١٩٢٣ القيد الخاص بان الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس الشعوب غير المتحضرة فحسب ، ولو أنه غير رأيه فيما بعـــد عام ١٩٤٤ وقد شايع كل من ايفانز بريتشارد ولويد وورنز Lloyd Warner وغيرهم من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين فكرة أن الأنثربولوجيا تدرس كل المجتمعات البشرية بلا استثناء ، رغم أن تركيزها الأســامي ينصب أساسا على المجتمعات البدائية (٢٨) ٠

والى عهد قريب كانت المجتمعات القروية من الموضـوعات التى تهتم بها موضوعات أخرى غير الأنثربولوجيا ٠ ولكن منذ سنوات قليلة ترجع الى عام ١٩٢٩ ابتدأ الأنثروبولوجيون فى دراسة المجتمع القروى

---

(٢٧) انظر ـ الفصل الاول من الترجمة العربية « الانثروبولوجيا والمجتمع البدائى » ٠

(٢٨) انظر بحثنا السابق الاشارة اليه بعنوان « الاتجاهات المعاصرة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية » ٠

باعتباره يمثل نوعا من المجتمعات التى تاتى فى منتصف الطريق بين مجتمع القبيلة ومجتمع المدينة الحديثة • وقد قام عدد كبير من العلماء بدراسات ميدانيـــة فى أمريكا اللاتينية عن أنواع الثقافات والطبقات القروية التى تتفرغ من هذه الثقافات أو المجتمعات المحلية الصغيرة • وهذا ما يظهر واضحا فى دراسات كل من اريك وولف (٢٩) Eric Wolf وتشالز واجلى Charles Wagley ومارفن هاريس ·(٣) Marvin Harris كما أن هناك دراسات اخرى عديدة للمجتمعات المحليـــة الصـــغيرة (المجتمعات القروية) لعلماء أنثربولوجيين فى أنحاء متفرقة من العالم فى أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط وأوروبا والصين والهند سبقت الاشارة اليها آنفا • وفى كل هذه الدراسات يرى المــرء ـ بتعبير ردفيـــلد ـ « مجتمعا صغيرا وليس مجتمعا كاملا فى حد ذاته ، بل مجتمعا تربط بينه وبين الشعوب القبيلية البدائية من ناحية وبين البلاد والمدن من ناحية أخرى علاقة جوار وعلاقة صعود ونزول » (٣١) •

وفى مقال شهير له بمجلة علم الاجتماع الأمريكى يناقش ردفيلد هل مجتمع الفلاحين مجتمع شعبى فعلا ؟ وهو يذهب الى القول بأنه يمثل مركزا وسطا وعلى حد قوله : « هناك كثير من القرى أو المــدن الصغيرة التى ربما لها من نواحى التشابهه مع المجتمع الشعبى بقــدر مالها من نواحى التشابه مع الحياة الحضرية » (٣٢) •

وقد نمى ردفيلد هذا الخط الفكرى فى كتــابه الحالى موضـــوع الترجمة ، حيث أورد جميع السمات الأساسية للفلاحين ، والتى تربطهم أساسا بالمجتمع الشعبى •

---

(٢٩) انظر -Eric R. Wolf, Types of Latin American Peasantry, op cit. pp. 452-71.

(٣٠) انظر -- Charles Wagley and Marvin Harris, " A Typology of Latin American Sub-Cultures ", American Anthropologist, LXII No. 3, Part 1, June 1955, pp. 428-51.

(٣١) راجع الترجمة العربية •

(٣٢) انظر — R. Redfield The Folk Society, The American ournal of Sociology 52, 4, 1947.

ويجب الاشارة هنا الى الصعوبة التى تواجه تحديد وتعيين الوحدة الاجتماعية المدروسة ، فمن الضرورى قبــل أن يقصر الأنثروبولوجى دراسته على قرية واحدة (مثلا) أن يتأكد من طبيعة العـلاقات التى تربطها بالقرى الأخرى المجاورة لها ، والتى قد تؤثر فى تشكيل بنائها ونسقها الاجتماعى . وينبه كثير من علماء الأنثروبولوجى وبخاصــة الذين تخصصوا فى دراسة القرية ، الى أن الباحث الأنثروبولوجى حين يدرس القرية يجب أن يأخذ فى اعتباره الحقيقة التى مؤداها : أن ثقافة هذه القرية هى ثقافة جزئية ، وقد كان كروبر من أوائل الأنثروبولوجيين الذين أدركوا هذه الحقيقة ، ومن أدق من أعطوا تعريفا محددا للفلاحين خلال ذكره لخصائص الحياة القروية التى تتلخص فى أنهــم يعتمدون فى معيشتهم على فلاحة الأرض . وأنهم لا يعيشون منعزلين تماما كما هو الحال فى التنظيمات العشائرية والقبلية ، اذ أنهم مرتبطين الى حد ما بأسواق المدن ، ولكن ينقصهم الاســتقلال الســياسي Political autonomy والاكتفاء الذاتى الذى تتمتع به هذه العشائر والقبائل . ولعل أهم هــذه الخصائص التى تميز أهل القرى هو ارتباطهم الشديد بالأرض واحتفاظهم بفلكلور مميز خاص . وهذه الخصائص التى ذكرها كروبر قد ساعدت على ايضاح أن المجتمعات المحلية القروية تتكون من مجتمعات جزئيــة ذات ثقافات Part societies with Part cultures بمعنى أنها تفتقر الى التكامل الاجتماعى والاكتفاء الذاتى اذا سلخناها من المجتمــع الكبير التى هى جزء لا يتجزأ منه (٣٣) .

وهذا هو نفس ما يعنيه فوستر Foster بقوله : ان مجتمع القرية هو شبه مجتمع Half Society أى أنه جزء من وحدة اجتماعية أكبــر — تكون الأمة عادة — ذات بناء منظم رأسيا وأفقيا . ويميز هذا المجتمــع القروى أو الشعبى أسلوب مشترك فى الحياة هو أسلوب الثقافة الشعبية Folk Culture وهى ثقافة جزئية . Part Culture والثقافة الشعبية عبارة

---

(٣٣) انظر — A. L. Kroeber, Anthropology, Harcourt and Brace and Co New York, 1948, p. 284 ff.

عن ثقافة تابعة أو شبه ثقافة (٣٤) . Half Culture ومعنى هذا أن القرية تنتمى أساسا الى ثقافة أكبر وأشمل هى ثقافة المجتمع الكبير . ولا شك أن اغفال العلاقة بين الثقافتين قد تؤدى الى تشويه نتائج الدراسة ، أو الى عدم فهم الوظائف الحقيقية للنظم المختلفة ، التى قد تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالبناء الاجتماعى الأشمل . وهذه الحقيقة قد أكدتها دراسات أنثروبولوجية معاصرة عديدة ، وفى مقدمتها بالطبع الدراسات التى قام بها ردفيلد (٣٥) .

وفى ضوء الدراسات التى قام بها ردفيلد والخصائص التى ذكرها لنموذج المجتمع الشعبى ينتهى الى أن الفلاح هو عبارة عن مركز ثقافى كما سبقت الاشارة الى ذلك . كما ينتهى بعد مناقشات متعددة الى القول بأن الفلاح « هو ذلك الرجل الذى يسيطر بطريقة فعالة على قطعة من الأرض الزراعية يرتبط بها منذ وقت طويل بروابط العاطفة والتقاليد . ويكونان هو والأرض جزءا من شيء واحد أو مجموعة واحدة من العلاقات الراسخة منذ وقت طويل (٣٦) » .

والنقطة الجديرة بالذكر أن ردفيلد يؤكد على طبيعة ما يجرى من علاقات بين المجتمع الصغير أو القروى والمجتمعات المحيطة به ، لأن الأنثروبولوجيين الذين درسوا المجتمعات البدائية ـ كما لاحظ كروبر ـ قد جروا على دراسة هذه المجتمعات ككليات عضوية متكاملة فى حد ذاتها ، ولكنهم الآن يدرسون المجتمعات المحلية كأجزاء من مجتمعات

---

(٣٤) انظر George M. Foster, What is Folk Culure p American Anthrcpologist, 55, 2, 1953.

وانظر أيضا ـ قاموس الانثولوجيا ـ مادة الثقافة الشعبية ص ١٥٨ ـ ١٦١ وكذلك عاطف وصفى ، فاروق العادلى : مقالات تحليلة ونقدية فى علم الاجتماع والانسان ، ص ٧ وما بعدها .

(٣٥) انظر بصفة خاصة المؤلفات الآتية لردفيلد :

Tepoztlan, A Mexican Village : A Study of Folk Life, Press, Chicago, 1930. The Folk Culture of Yucatan, University of Chicago Press, Chicago, 1941. A Village that Chose Progress, University of Chicago Press, Chicago, 1949. The Little Community, University of Chicago Press, Chicago, 1965 and Peasant Society and Culture, op. cit.

(٣٦) راجع الترجمة العربية .

أكبر . وعليه يدرسون المجتمع القروى كمجتمع نصفى ، وبتعبير ردفيلد لا يستطيع الأنثروبولوجى أن يوجه اهتمــامه الى القــرية فقط أو الى المجتمعات الريفية المتفرقة فى المزارع المجاورة ، اذ يجد أمامه قــرية ترتبط بأخرى أو مزرعة تبعد عنها أو مدينة ترتبط بالريف فى نسيج من العلاقات الاجتماعية . ومن الواضح أن مايربط بين الأفراد فى شــبكة العلاقات هو مسألة تشابه أو اختلاف على جانب كبير من الأهمية »(٣٧).

ويضرب ردفيلد مثالا حيا من الهند يوضح أهمية ضرورة الاهتمــــام بدراسة شبكة العلاقات الاجتماعية فى المجتمع القروى ســواء على مدى القرية أو خارجها فيقول : « تتكون العناصر الأساسية لشبكات العلاقات على مدى البلد فى الهند من الروابط الطائفية والعائلية التى تستمر لأجيـــال طويلة . وترتبط هذه العلاقات بين مجموعة من القرى وأخـــرى ، أو بين العائلات فى قرية مع العائلات التى تشبهها فى الثقافة والوضع الاجتماعى فى قرية أخرى كما لو كان البناء الاجتماعى للمجتمع البدائى المغلق قــد تمزق وتفرقت أجزاؤه فى مساحة شاسعة . وهكذا يعتبر ريف الهند مجتمعا قبليا أو بدائيا أعيد تنظيمه كى يتلاءم مع حضارة معينة » (٣٨) .

كذلك ركز ردفيلد على أهمية دراسة العلاقات الاجتماعيـــة التى تربط الفلاحين بالسادة فى القرية مثل العمــدة والطبيب والمدرس أى الطبقة المتعلمة أو الصفوة فى القرية التى يدرك الفلاحون أنهم أفضل وأرقى منهم . ويقول ساندرز Sanders فى هذا الصدد : « وتتمتــع طبقة المتعلمين بأهمية أكبر مما تدل عليه مهامهم وواجباتهم فى القرية حيث أنهم يمثلون الدولة والكنيسة القومية ونظام المدرسة فى الدولة»(٣٩) وتستند مكانتهم الاجتماعية العالية ــ بطبيعة الحال ــ على أساس أنهم من المتعلمين ، وكذلك على النفوذ الذى يتمتعون به كممثلين لأنظمــة السلطة فى الدولة .

---

(٣٧) راجع الترجمة العربية .

(٣٨) راجع الترجمة العربية .

(٣٩) انظر –– Irwin T. Sanders, Balkan Village University of Kentucky Press, Lexington, 1949, p. 11 .

ويركز ردفيلد أيضا على دراسة القرية كثقافة مركبة ، لانها تتزود بروافد فكرية متعددة عن طريق لتصالها بالانتـــاج العلمى والفـــكرى للطبقات الاجتماعية الاخرى ومراكز الفكر فى المدينة (٤٠) وهذا عكس ثقافة الشعب البدائى الذى يعتبر نظاما مستقلا يتمتع باكتفاء ذاتى(٤١) ويلاحظ أن ردفيلد يستخدم مفهوم المجتمع القروى ليحل محل مفهوم المجتمع الشعبى ـ كما يستخدمه جورج فوستر ـ George Foster فهما فى نظره مفهومان متماثلان (٤٢) .

ونتيجة لاختلاف ثقافة القرية المركبة عن ثقافة القبيلة أو المجتمع البدائى ، فان ردفيلد يطلق على تلك الثقافة القروية المركبة اصطلاح « حضارة » (٤٣) civilization وفى هذا الصدد يقدم لنا مفهومى التراث الكبير Great tradition والتراث الصغير . Little tradition وكذلك عبارتى ثقافة الخاصة أو الثقافة المتدرجة Hierarchic culture وثقافة العـــامة. Lay culture واختار ردفيلد مصطلحى التراث الكبير والتراث الصغير من بين عدد المصطلحات والتعبيرات الأخرى التى تشمل : (الثقـــافة الرفيعة High culture والثقافة الدنيا Low culture) و (الثقافات الشعبية Folk cultures والثقافات الكلاسيكية Classic cultures) ، (التقاليد الشعبية Popular traditions وتقاليد المتعلمين learned traditinos

---

(٤٠) انظر " Acculturation : An Exploratory Formulation ", American Anthropologist, LVI, No, 6, December 1954, p. 974.

(٤١) انظر George Foster, " What is Folk Culture "—, op. cit., p. 169.

(٤٢) انظر – Ibid., p. 169 ff. وانظر أيضا ـ فاروق العادلى وعاطف وصفى مقالات تحليلية ونقدية فى علم الاجتماع والانسان ، ص ٧ وما بعدها .

(٤٣) طبقا لمفهوم ردفيلد ، فان جميع المجتمعات البشرية على حد ســـواء تملك ثقافات سواء أكانت هذه الثقافات متقدمة أم متاخرة . وقد استعمل تايلور Tylor فى كتابه « الثقافة البدائيـــة عام ١٨٧١ » وكذلك كروبر Kroeber كلمتى حضارة وثقافة كمفهومين مترادفين « يشيران دائما الى درجات مختلفـــة من الشيء نفسه » . ويرى شبنجلر Spengler وتوينبى Toynbee أن الحضارة هى المرحلة الاخيرة الحتمية لتطور الثقافة . وعلى هذا يمكن القول بأن مفهـــوم الحضارة يوازى مفهوم « الثقافة الراقية » فالخلاف اذن بين الثقافة والحضارة هو خلاف فى الدرجة « الحضارة تتضمن درجة أعلى من التطور والتفوق » وليس خلافا فى النوع .

وانظر ـ قاموس الانثولوجيا ص ١٤٣ الى ١٥٣ ، ص ١٧٨ الى ١٨٤ .

وبالنسبة للتراث الكبير فيستخدمه ردفيلد ليشير الى تراث المدارس والمعابد فى القرية • ومن ثم يعتبر تراث المثقفين : الفلاسفة وعلماء الدين ورجال الأدب ، وهو تراث يتم تكوينه بوعى ويتداول من جيل الى جيل • أما التراث الصغير فيؤخذ فى أغلب أمره على أنه شيء عادى لا يخضع لكثير من التدقيق أو التهذيب أو الاصلاح الواعى • ومع ذلك ، فهناك تداخل كبير بين هذين التراثين ، بيد أنه لا يمكن التمييز بين هذين النوعين من التراث فى القبائل والجماعات المنعزلة • أما فى الجماعات غير المنعزلة عن ركب الحضارة فيزدوج مضمون المعرفة : فهناك مضمون بالنسبة للرجل العادى ، ومضمون آخر بالنسبة لأفراد ثقافة التدرج • ويطبق ردفيلد بمهارة هذين المفهومين بالنسبة لثقافة القرية التى تتصف بالتركيب والتعقيد • ومن ثم وجب على الأنثروبولوجى أن يقوم بتحليل العلاقات الاجتماعية والثقافية لمجتمع القرية المحلى الصغير فى ضوء اطار أشمل ، أى فى نطاق علاقته بالدولة والحضارة ككل •

ويحدثنا ردفيلد — فى نهاية المطاف — عن نظرة الفلاح الى الحياة الطيبة • وهو يرى أن علم الأنثروبولوجيا قد ركز فى أوائل القرن العشرين على الاختلافات بين الشعوب أكثر من تركيزه على أوجه الشبه بينها • كما يرى أن هناك انطباعا عاما مؤداه أن الفلاحين متشابهين وهذه الحقيقة هى ما يؤكدها أيضا أوسكار هاندلين Oscar Handlin على اعتبار أن الفلاح فى أنحاء الارض يمثل طريقة فى الحياة قديمة قدم الحضارة نفسها • وهناك مثلا ملامح أساسية يشترك فيها الفلاحون فى كل مكان ، فهم مثلا يتشابهون فى اعتبار الاسرة كجماعة اجتماعية ، والارتباط الروحى بالأرض ، والتركيز على أهمية الانجاب (٤٤) •

وهذه الملامح الأساسية المشتركة تدل على أنهم نوع واحد من البشر لدرجة أن أطلق عليهم الكاتب الفرنسي رينيه بوراك Porak « سلالة ذات صفات نفسية وجسدية عامة » (٤٥) •

---

(٤٤) راجع ما ذكرناه بخصوص تحديد كروبر لصفات الفلاح فى بداية المقدمة التحليلية للترجمة العربية •

(٤٥) راجع الترجمة العربية •

ولعل هذا ما دعا ردفيلد الى اختيار عبارة « الحياة الطيبة » للدلالة على ذلك النمط المتكامل من المواقف والاتجاهات السـائدة ، لا سيما عندما تمثل الاتجاه القيمى لحياة الفلاحين فى بقاع عديدة من الأرض تبعد عن بعضها البعض فى الزمان والمكان · ويحدثنا ردفيلد عن الاتجاهات والقيم القروية فى شيء من التفصيل والامتـاع فيذكر أن للفلاحين شيء يمكن أن نسميه نظرة أو رأيا فى الحياة الطيبة ، وبعبارة رجال الأنثروبولوجيا الاتجاه القيمى أو المزاج العام للشعب · ويطلق جورج فريدمان Friedman على هذه الاتجاهات القيمية عبارة « طريقة النظر الى الحياة » ·

والواقع أن مبحث القيم أو المزاج العام لشعب من الشعوب قـد اصبح موضع اهتمام عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين · وقد قام عدد منهم بدراسة القيم الأساسية التى تتميز بها المجمعـات البدائية المغلقة والمجتمعات القروية · وقد أثار مفهوم « القيمة » بعض الجدل بين هؤلاء العلماء · ومن أكثر تعاريف هذا المفهوم نظاميـة تعريف كلايد كلا كهون وهذا هو تعريفه بعد تعديله على يد ردفيلد حيث يقول : « ان القيمة تصور معين ـ واضح أو ضمنى خاص بفـرد أو بجماعة ـ للشيء المرغوب ، يؤثر فى عملية الاختيار من بين الأساليب والوسائل والأهداف المتاحة (٤٦) · ويرى دافيد بيدنى David Bidney أن مجموعة القيم لشعب ما من الشعوب تمثل فى حقيقة الأمر « بؤرة التكامل بالنسبة لأى ثقافة معينة (٤٧) » ·

---

(٤٦) هذا التعريف هو تعريف كلايدكلاكهون للقيمة بعد تعديله على يد روبرت ردفيلد انظر :

Clyde Kluckhon, " Values and Value — Orientations in the Theory of Action "in Toward a General Theory of Action, ed T. Parsons and S. A. Shils, Harvard University Press, Cambridge, 1961, pp. 388-433.

وانظر ايضا R. Redfield, "Values" in an Appraisal of Anthropology Today, University of Chicago Press, 1953, pp. 322-41.

وانظر كذلك : Farouk El-Adly, Two Essays on Talcott Parsons Theories, Essay No 2 : A Sociological Approach to Talcott Parsons, The Structure of Social Action Reprint form the Bulletin, The University, Khartoum, Vol III, 1972, p. 22 ff.

(٤٧) انظر David Bidney, " The Concept of Value in Modern Anthropology ", in Anthropology Today, ed by A. L. Kroeber, University Chicago Press, Chicago, 1953, pp 682-99.

ويرى ردفيلد أن ظروف الحياة القروية ذاتها تؤدى الى وجود عامل التشابه فى نظرة هؤلاء الفلاحين الى الحياة ، ذلك التشابه الذى كان أحدى نتائج التوسع فى موضوع علم الانثروبولوجيا الذى لم يعد يقتصر على دراسة المجتمع البدائى وحده الذى ظل أمدا طويلا كوحدة مثالية للبحث الأنثروبولوجى (٤٨) .

ويعدد ردفيلد أوجه التشابه بين الفلاحين ، تلك الأوجـــه التى تؤدى بهم الى نظرة متماثلة أو واحدة – الى حد كبير – فى طريقـة الحياة . ويشير فى مناقشته لآراء عدد كبير من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع . ويمكن تلخيص أهم الآراء التى انتهى اليها ردفيلد فى مناقشته لأوجه التشابه والاختلاف فى نظرة الفلاحين الى طريقة الحيـــاة فى السطور التالية .

ينظر الفلاحون الى الأرض نظرة تبجيل واضحة . ويعتقـدون أن العمل الزراعى هو أسمى الأعمال (٤٩) على عكس العمل بالتجارة . ويتصف العمل الزراعى بصفة التقديس . فالزراعة شيء عملى تسـوده مشاعر دينية . وبعبارة أخرى هناك احساس قوى بالارتباط بالطبيعة وبتبجيلها ويعبر ستورت Sturt عن هذا الارتباط بأنه « احساس خافت بشيء مبجل » فى الأرض وفى النشاط الزراعى . ويؤيد ردفيلد هـذه الحقيقة بانطباع عملى خرج به من دراسته لاحدى قرى مايا فقد « استمر بعض الرجال يمارسون الزراعة رغم أنها لم تكن مجزية من الناحيـــة الاقتصادية ، لاعتقادهم بأن زراعة حقل من الذرة يعتبر شيئا ضروريا للمشاركة فى الحياة الدينية والأخلاقية لذلك المجتمع » (٥٠) . ويؤيد ذلك كل من اروين ساندرس Sanders ودونالد بتكين Pitkin . كما يركز الفلاحون على عنصر الكد والاجتهاد بغرض الانتاج كاحدى الفضـــائل الأولية .

---

(٤٨) انظر – فاروق العادلى ، الاتجاهات المعاصرة فى الانثروبولوجيــا الاجتماعية .

(٤٩) قارن – عاطف غيث ، القرية المتغيرة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ . وكذلك – حامد عمار . انظر –

Hamed Ammar, Growing up in an Egyptian Village, Silwa. Province of Aswan, Routledge and Kegan Paul Ltd., London 1954, p. 35 ff.

(٥٠) راجع الترجمة العربية .

بيد أنه توجد شواهد أخرى مضـادة تدل على أنه لا يمكن تعميم هذه الحقيقة تماما فهناك من الفلاحين من لا يعتبر العمل على الأرض فضيلة من الفضائل الأساسية ، بل يقوم الفلاح بالزراعة فى أسى وحزن شديد • وعلى حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين ـ الذى نقل عنه بيت ريفرز Pitt Rivers هذه العبارة :

(Il ne sent Pes celle — ci'le de passe et le prolongue)

وهذه العبارة تعنى أن الفلاح « يعمل لنفسه وليس لصالح الأرض، ولا يشعر بأن الأرض امتداد لنفسه » • ويرى بيت ريفرز أن هذا القول ينطبق على الفلاح السورى وكذلك على الفلاح فى جنوب ايطاليا •

وأيا كانت درجة صحة التفسيرات التاريخى والاقتصادى ـ البيئوى لموقف الفلاحين من الأرض والعمل ، فانه ما لا شك فيه أن كثيرا من الفلاحين يشتركون فى مجموعة من المواقف والقيم التى بينها كثير من من أوجه الشبه ، وما يخلق الاختـلاف بينهـــم فى تماثل النظرة الى طريقة الحياة يكون راجعا الى شيء معين فى التاريخ القديم لهـــؤلاء الفلاحين أو نتيجة لبعض الأحداث القريبة مثل زيارة مفاجئة فى عبء الفقر أو ظهور أى فرصة للهروب منه (٥١) •

ومن الصفات الأخرى المشتركة التى تعزى للفلاحين صفات الرزانة والمزاج المعتدل واحتقار التعبير عن العواطف علانية والمشاعر الرقيقة ، على عكس سلوك المحاربين القدماء (مثلا) الذين ظهروا فى الالياذة أو فى عصر القراصنة ، كما وجد ردفيلد أن الزواج يعد جزءا من العمل

---

(٥١) تعد الهجرة للمدينة مخرجا outlet متاحا لسكان القرى والقبائل للخروج والهروب من دائرة الفقر التى تحيط بهم نتيجة لعملهم على رقعة محدودة من الارض الزراعية • وتؤكد الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة التى أجريت على أفريقيا تلك الحقيقة ، بتأكيدها على العلاقة بين معدلات الهجرة والعامل الاقتصادى والقرية على هذا النحو تمثل عاملا من عوامل الطرد السكانى للقـــادرين على الهجرة ، بينما تمثل المدينة عاملا من عوامل الجذب السكانى بما فيها من فرص مهنية متعددة ومتاحة • وقد أجرى عدد كبير من الانثروبولوجيين دراسات قيمة على ظاهرة الهجرة مبرزين بصفة خاصة أثر الهجرة فى أنماط المهاجر السـلوكية وقيمه الاجتماعية •

انظر فاروق العادلى ، الاتجاهات المعاصرة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، السابق الاشارة اليه •

والتقوى فى الحياة (٥٢) أما عن مكان التجربة الجنسية فى اطار القيم القروية ، فليس هناك محل للتظاهر بالمغامرات الجنسية أو التفاخر بها فى الحياة القروية حيث يرتبط العمل والشعور الفعلى بروح من التحفظ والتأدب وكبح العواطف (٥٣) .

ومرة أخرى يتحدى العلماء هذه التعميمات على اطلاقها كما فعلوا بالنسبة لشعور التبجيل نحو الأرض والكد فى العمل الزراعى باعتباره فضيلة من الفضائل . ويستشهد ردفيلد فى هذا الصدد بالأستاذ تنتورى Tentori والسناتور نيتى Nitti عن الاختلافات التى توجد بين الشعوب القروية بالنسبة لمسائل العنف والدفاع عن الشرف والتركيز على المغامرة الجنسية . وعلى أية حال فان هذه الخلافات لم تتضح تماما حتى الآن ، وقد تتفق بعض هذه الاختلافات مع الظروف العامة للحياة القروية . وقد يكون هذا الاختلاف ناشئا من رسوخ بعض العادات والطباع فى مجتمع قروى معين ، بينما لا تزال مثل هذه العادات والطباع فى طريقها للنمو فى مجتمع قروى آخر . وقد يكون هذا الاختلاف أيضا راجعا الى أن الفلاحين فى بعض أجزاء من العالم قد تأثروا بالسادة أو النخبة الذين يعيشون معهم ، وبذلك نمت لديهم بعض الآراء والقيم التى استمدوها منهم (٥٤) .

ولذلك يختلف وضع القروى عن وضع البدائى ، لأن القروى يعرف أناسا أكثر تحضرا منه ويعتمد عليهم . وتتسم حياة القروى ـ الفكرية والأخلاقية ـ بعدم الاكتفاء الذاتى ، أى باعتماده على أفراد آخرين خارج قريته فى مساعدته على استرداد حقوقه وفى تلقينه تعليمات الكتاب المقدس . ومن هنا فان رجل المدينة أو السادة يكونان جانبا من جوانب الحياة الأخلاقية المحلية عن طريق الانعكاس واعطاء الأمثلة والنماذج الذى يقدمها هؤلاء الأشخاص الخارجيين سواء كان القروى

---

(٥٢) انظر ـ

Robert Redfield and Alfonso Rojas : Chan Kom, A Maya Village, Phoenix Books, The University of Chicago, Chicago, 1962.

(٥٣) راجع الترجمة العربية .

(٥٤) راجع الترجمة العربية .

يسعى الى تقليد هذا النموذج أو تجنبه أو سواء ادرك أوجه الشـــبه والخلاف بين ذلك النموذج وبين مثله هو (٥٥) ٠

ويسعى الفلاحون فى الوقت الحاضر الى أن يصبحوا شيئا مختلفا وتجذبهم المدينة للعمل الصناعى ، كما تتكون وتنمو كثير من التطلعات بين الفـــلاحين ٠ وبذلك يتحـول الفـــلاحون الى أنواع أخـرى من الأفراد مثل العمال الصناعيين أو الطبقات الاجتماعية الحضرية (٥٦)٠ ولذلك يجب على عالم الأنثروبولوجيا فى هذا الصدد أن يقوم بدراســة عدد آخر من المتغيرات المعقدة مثل العلاقات الداخلية بين المزاج العام للسادة والمزاج العام للقرويين واعتماد كل منهم على الآخر ، والعلاقات بين تراث المدينة الواسع الانتشار والتراث المحـلى للقـــرية ، وتأثير التغيرات التى تطرأ على ملكيـــة الأرض فى العـــلاقات والاتجاهات العائلية ٠

ومع كل هذا ، لا يوجد ما يمنع ـ فى رأى ردفيلد ـ من التفكير فى نمط بشرى ثابت يمكن التعرف عليه من دراستنا للفـلاحين ، أى الاحتفاظ بالتكامل الطبيعى للحياة القروية فى محاولة فهم الحقيقة ٠

هذه هى أهم الآراء والأفكار التى ضمنها ردفيلد فى كتابه الشيق موضوع الترجمة ٠ ونأمل أن نكون قد وفينا القصد ، ووفقنا فى عرض وجهة نظر المؤلف فى هذه المقدمة التحليلية المركزة لتكون عونا فى فهم آرائه المعروضة تفصيلا فى الترجمة العربية ٠

والآن تجدر الاشارة الى أن تعليقات وشروح الترجمة العربية مرقمة بالحروف الأبجدية العربية وذلك من بدايـة الترجمـــة حتى نهايتهـــا وموضوعة بين قوسين ، وذلك تمييزا لها عن الأرقـام التى تشـــير الى المراجع التى ذكرها ردفيلد نفسه ، والموجودة فى نهاية الكتاب طبقـــا لوضعها فى الأصل الأجنبى ذاته ٠ وهى عبارة عن أرقام مسلسلة متتالية لكل فصل على حدة ٠ وتجدر الاشارة الى أن جميع هوامش الكتاب هى

---

(٥٥) راجع الترجمة العربية ٠

(٥٦) راجع حاشية رقم (٥١) من المقدمة التحليلية للترجمة العربية ٠

من وضع المترجم ذاته . وهـــذه الهوامش تتناول بالشرح والتحليـــل المصطلحات العلمية الهامة ، كما تعرف بشخصية أهم من وردت أسماؤهم فى سياق الدراسة من العلماء والدارسين .

وأخيرا فقد رأينا انه من المفيد أن نورد - فى نهاية هـــذه المقدمة التحليلية - حصر المناطق الثقافية والجماعات القبائليـــة فى العـــالم ، مستعينين بكتاب :

R. Spencer and E. Johnson, Atlas for Anthropology, Dubuque, USA, 1960.

وستساعد تلك المناطق الثقافية والجماعات القبائلية القـارىء فى تحديد مواقع القبائل والجماعات الثقافية المتعددة التى ذكرها ردفيلد فى كتابه ، كما ستساعد أيضا فى المقارنة بين مختلف هذه القبائل ، والالمام كذلك بالجماعات البدائية فى العالم التى يهتم الانثروبولوجيون بدراستها لا سيما وأن ردفيلد قد عقد الفصل الأول من كتابه عن : الانثروبولوجيا ودراسة المجتمع البدائى . وحتى تكون الصورة واضـــحة جليـــة أمام القارىء قمنا بتوزيع هذه الجماعات على خرائط لقارات العالم .

+ + +

قارة افريقيا - خريطة رقم (١)

المناطق الثقافيـــة :

أولا : منطقة الثقافة العربية (نشأت فيها الحضارة لأول مرة ومنهـا انتشرت فى العالم) .

ثانيا : ١ - منطقة السودان الغربى .
٢ - منطقة السودان الشرقى .

ثالثا : منطقة ساحل غينيا .

رابعا : منطقة القرن الشرقى والحبشة .

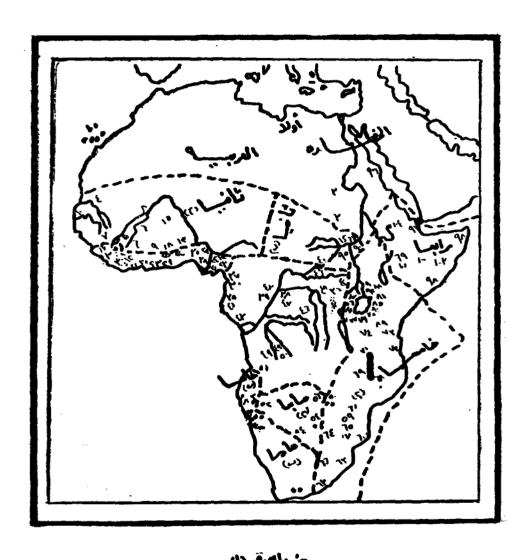
خامسا : ١ - منطقة القطعان الشرقية .
٢ - منطقة القطعان .

سادسا : منطقة الكونغـــو .

سابعا : ١ - منطقة الخويزان (البوشمن)
٢ - منطقة الخويزان (الهوتنتوت) .

الجماعات القبائليـــة :

١ - تيداتييو .
٢ - كاتدرى .
٣ - البقـارة .
٤ - السنغالية .
٥ - بامبارا .
٦ - دوجون .
٧ -ماندنجو .
٨ - سونغاى .
٩ - داجابا .
١٠ - ولوف .
١١ - مانـو .
١٢ - فولانى .
١٣ - هوسـا .
١٤ - دان .
١٥ - موس .
١٦ - كبيلى .
١٧ - سوسو .
١٨ - تالنسي .
١٩ - نوبى .
٢٠ - فاى .



خريطة رقم (١)
المناطق والجماعات الثقافية بافريقيا

٢١ ـ كرو
٢٢ ـ أشانتى
٢٣ ـ فانتى
٢٤ ـ داهوميان
٢٥ ـ ايو
٢٦ ـ جا
٢٧ ـ يوروبا
٢٨ ـ بينى
٢٩ ـ ايبو
٣٠ ـ مندى
٣١ ـ ياكو
٣٢ ـ جبارى
٣٣ ـ تيف
٣٤ ـ جوكون
٣٥ ـ فانج
٣٦ ـ بوامبا
٣٧ ـ بوندى
٣٨ ـ مونحو
٣٩ ـ بانجالا
٤٠ ـ بابانجى
٤١ ـ أونجو
٤٢ ـ باكونجو
٤٣ ـ مانجبتو
٤٤ ـ لوجبارا
٤٥ ـ أزاندى
٤٦ ـ باتاتيلا
٤٧ ـ توا (أقزام)
٤٨ ـ مبوتى (أقزام)
٤٩ ـ بوشونجو
٥٠ ـ للوندا
٥١ ـ أوفيميوندر
٥٢ ـ هيريرو
٥٣ ـ أوفاميو
٥٤ ـ يوشمان
٥٥ ـ هوتنتوت
٥٦ ـ لوزى
٥٧ ـ بالا
٥٨ ـ ثوتجا
٥٩ ـ فيندا
٦٠ ـ تونجا
٦١ ـ شونا
٦٢ ـ اكسوسا
٦٣ ـ زولو
٦٤ ـ تسوانا
٦٥ ـ لوفيدو
٦٦ ـ باسوتو
٦٧ ـ سوزاى
٦٨ ـ يو
٦٩ ـ ييمبا
٧٠ ـ لامبا
٧١ ـ قياكيوسا
٧٢ ـ سواحيلى
٧٣ ـ تاتيا
٧٤ ـ شاجا
٧٥ ـ كيكويو
٧٦ ـ أنكول
٧٧ ـ وانياموبزى
٧٨ ـ جوزى
٧٩ ـ واندرويو
٨٠ ـ واترمي

٨١ - باجندا •
٨٢ - ينورو
٨٣ - هايا
٨٤ - ناندى
٨٥ - سوك
٨٦ - الور
٨٧ - توركانا
٨٨ - ماساى
٨٩ - اشولى
٩٠ - نوير
٩١ - لاتجو
٩٢ - شيلوك
٩٣ - نوبان
٩٤ - دنكا
٩٥ - بيجا
٩٦ - داناكيل
٩٧ - صومالى
٩٨ - أمهاوا
٩٩ - فالاشا
١٠٠ - أثيوبيا
١٠١ - جالا
١٠٢ - جوافش

قارة استراليا
وما حولها وجزيرة مدغشقر
خريطة رقم (٢)

المناطق الثقافية :

أولا : منطقة بولينيزيا .

ثانيا : منطقة ميكوونيزيا .

ثالثا : منطقة ميلانيزيا .

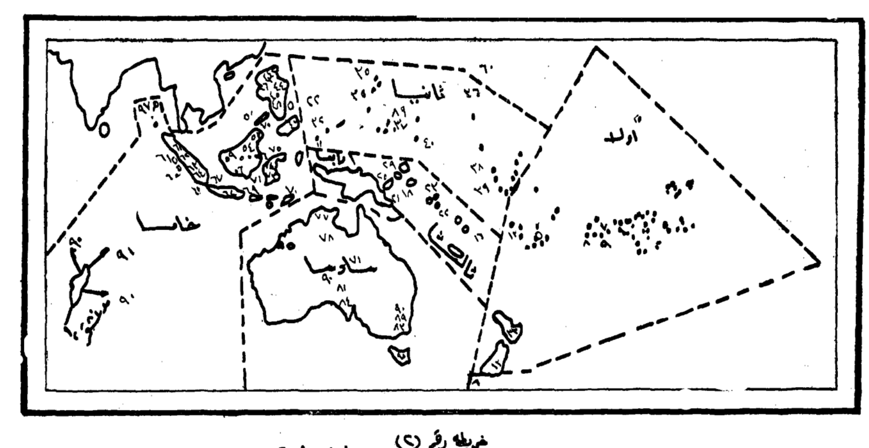
رابعا : منطقة بابوا (غينيا الجديدة) .

خامسا : منطقة أندونيسيا .

سادسا : منطقة استراليا .

الجماعات القبائلية :

١ - هاواى
٢ - سكان جزر ايستر
٣ - ماركيزان
٤ - تواموتوان
٥ - تاهيتى
٦ - سكان جزر سوسيتى
٧ - سكان جزر كوك
٨ - راراتونجا
٩ - ماتجايا
١٠ - تونجا
١١ - ساموا
١٢ - فيجيا
١٣ - مورى
١٤ - كالدونيا الجديدة
١٥ - سكان الجـــزر المختلطين الحدثيين
١٦ - سكان جزر لويالتى
١٧ - سكان جزر البانكمي
١٨ - سكان جزر سولومون
١٩ - أيرلندا الجديدة
٢٠ - بريطانيا الجديدة
٢١ - سكان جزر الأدميرالية
٢٢ - تيكوبيا
٢٣ - أونتنج جاوا
٢٤ - تروبرياند
٢٥ - بابوان
٢٦ - أرابيش
٢٧ - بانارو
٢٨ - كيوا
٢٩ - ووجو
٣٠ - كووما
٣١ - ماسيم



خريطة رقم (٢)
المناطق والجماعات الثقافية باستراليا وما حولها ومدغشقر

٣٢ ـ سكان جزر بالاو
٣٣ ـ سكان جزر باب
٣٤ ـ جوابيان
٣٥ ـ سكان جزر ماريانا
٣٦ ـ سكان جزر مارشال
٣٧ ـ سكان جزر كاروليين
٣٨ ـ سكان جزر جيلبرت
٣٩ ـ سكان جزر اليس
٤٠ ـ يوناب
٤١ ـ تايال
٤٢ ـ الوكاد
٤٣ تينجوان
٤٤ ـ اجوروت
٤٥ ـ افوجاو
٤٦ ـ تاجالوج
٤٧ ـ كالينجا
٤٨ ـ فيزايان
٤٩ ـ ياجوبر
٥٠ ـ مورو
٥١ ـ باتاك
٥٢ ـ روسون
٥٣ ـ دياك لاند
٥٤ ـ كليماتنا
٥٥ ـ سيانج دياك
٥٦ ـ دياك سي
٥٧ ـ جاكون
٥٨ ـ ساكاى
٥٩ ـ سيمانج
٦٠ ـ أتجيهينيز
٦١ ـ نياسان
٦٢ ـ باتاك
٦٣ ـ مينا نجكامو
٦٤ ـ كربو
٦٥ ـ مينتاوان
٦٦ ـ انجانيز
٦٧ ـ ساندانيز
٦٨ ـ جاواى
٦٩ ـ باليتيز
٧٠ ـ ألوريس
٧١ ـ ماكسار بوجى
٧٢ ـ قولا
٧٣ ـ سادانج
٧٤ ـ تورداجا
٧٥ ـ ميناهاسا
٧٦ ـ كاربرا
٧٧ ـ مورنجين
٧٨ ـ وارامونجا
٧٩ ـ أورينا
٨٠ ـ كاميلاروى
٨١ ـ ديرى
٨٢ ـ يين
٨٣ ـ كورناى
٨٤ ـ نارينيرى
٨٥ ـ تسمانيا

٨٦ ـ تيوى
٨٧ ـ أورو كايفا
٨٨ ـ كيراكى
٨٩ ـ تروكيز
٩٠ ـ والبيرى
٩١) بيريوبورونت
٩٢ ـ ماليكون
٩٣ ـ تانالا ـ بتسليو
٩٤ ـ أنتا ندروى
٩٥ ـ ساكالافا
٩٦ ـ مالاجاش
٩٧ ـ أندمان

+ + +

قارة أمريكا الشمالية
(خريطة رقم ٣)

المناطق الثقافية :

أولا : منطقة الخليج القطبى

ثانيا : منطقة الخليج الغربى الشمالى

ثالثا : منطقة مابين الجبال (أحواض سهول كاليفورنيا)
(Intermountain California Basin-Plateau)

رابعا : منطقة الجنوب الغربى

خامسا منطقة ما تحت القطبية الشمالية **Northern Subrotic**

(أ) منطقة يوكون - ماكنزى **Youkon-Mackenzie**

(ب)الجزء الشرقى

سادسا : منطقة السهول

سابعا : المناطق الشرقية

(أ) منطقة ميز الشرقى

(ب)المنطقة الشرقية الجنوبية

ثامنا : منطقة المكسيك وأمريكا الوسطى



خريطة رقم (٥)
المناطق والجماعات الثقافية في أمريكا الشمالية

الجماعات القبائلية :

١ - اليت
٢ - شوجاش
٣ - نانيفاك (أسكيمو)
٤ - مضيق بيربح (اسكيمو)
٥ - شمال الاسكا (اسكيمو)
٦ - ماكنزى (اسكيمو)
٧ - كوبر (اسكيمو)
٨ - كاريبو (اسكيمو)
٩ - ايجلوليك (اسكيمو)
١٠ - لابرادور (اسكيمو)
١١ - جرينلاند الغربية (اسكيمو)
١٢ - جرينلاند الشرقية (اسكيمو)
١٣ - يولار (اسكيمو)
١٤ - أنجاليك
١٥ - تانانا
١٦ - كوتشين
١٧ - هان
١٨ - هير
١٩ - كاسكا
٢٠ - سليف
٢١ - ضلع الكلب
٢٢ - ييلونيف
٢٣ - سيكان
٢٤ - بيفر
٢٥ - شيبوان
٢٦ - كارير
٢٧ - اياك
٢٨ - شلينجت
٢٩ - هايدا
٣٠ - تسيمشيان
٣١ - ببلاكولا
٣٢ - كواكيوتل
٣٣ - نوتكا
٣٤ - كواكيوتل
٣٥ - ماكاة
٣٦ - خليج ساليش
٣٧ - تشينوك
٣٨ - تولووا
٣٩ - بوروك
٤٠ - كلامات
٤١ - بويتى الشمالية
٤٢ - سانبول
٤٣ - كوتيناى
٤٤ - فلاتهيد
٤٥ - نيزبيرس
٤٦ - ويندر يفرشوشون
٤٧ - وينتو
٤٨ - نيسانان - بلتوين
٤٩ - بومبو
٥٠ - ميورك
٥١ - يوكوتس - مونو
٥٢ - واشو
٥٣ - شوماش
٥٤ - بابت الجنوبية
٥٥ - شيميهيفى
٥٦ - بانامت

٥٧ ــ يوتى
٥٨ ــ حوزيوت
٥٩ ــ شوشون الغربية
٦٠ ــ بلاك فوت
٦١ ــ جروس فينتر
٦٢ ــ اسينيون
٦٣ ــ شبين
٦٤ ــ كرو
٦٥ ــ أرا ياهو
٦٦ ــ هيداتسيا
٦٧ ــ ماندان
٦٨ ــ اريكارا
٦٩ ــ داكوتا : (يامكتون، سانتى، تبتون)
٧٠ ــ بونى
٧١ ــ كيورا
٧٢ ــ كومانش
٧٣ ــ ليبان اباش
٧٤ ــ ايوا
٧٥ ــ اروتو
٧٦ ــ كانسا
٧٧ ــ ميسورى
٧٨ ــ اوساج
٧٩ ــ اوماها
٨٠ ــ بونكا
٨١ ــ شيبوا
٨٢ ــ كرى
٨٣ ــ مينومينى
٨٤ ــ سوك وفوكس
٨٥ ــ وينيباجو
٨٦ ــ الينوى
٨٧ ــ ميامى
٨٨ ــ بوتلواقومى

٨٩ ــ اوتار
٩٠ ــ ميكماك
٩١ ــ بوثوك
٩٢ ــ مونتاحناى
٩٣ ــ ناسكابى
٩٤ ــ بينوبسكوت
٩٥ ــ هيرون
٩٦ ــ ايروكواز | موهوك، اونيدا، اونونداجة، كايوجا، سينيكا
٩٧ ــ شوتى
٩٨ ــ شيروكى
٩٩ ــ كارو
١٠٠ ــ شوكتو
١٠١ ــ جربك
١٠٢ ــ ابناكى
١٠٣ ــ كارانكاوا
١٠٤ ــ شيموكيا
١٠٥ ــ ناشيز
١٠٦ ــ اتاكابا
١٠٧ ــ سيمينول
١٠٨ ــ ديجيينو
١٠٩ ــ ولاباى
١١٠ ــ يافاباى
١١١ ــ هافاسوياى
١١٢ ــ يوما
١١٣ ــ ماريكوبا
١١٤ ــ كوشيمى
١١٥ ــ باباجو
١١٦ ــ بيمــا
١١٧ ــ كوكوبا
١١٨ ــ الاباش الغربيون

١١٩ ـ نافاهو

١٢٠ ـ هوبى

١٢١ ـ تانوان بيلو :
- تواس
- اسليتا
- جيميز
- سانتاكلارا

١٢٢ ـ سان الديفسو
- نامب
- تسوك
- تيكوريس
- سانديا

١٢٣ ـ كيريسان بيبلو :
- اكوما
- لاجونا
- زيا
- سان فيليب
- سانتو دومنجو
- كوشيتى

١٢٤ ـ جيكاريلا اباش

١٢٥ ـ ميكاليرو اباش

١٢٦ ـ ياكى

١٢٧ ـ سيرى

١٢٨ ـ اوباتا

١٢٩ ـ تاراد هومار

١٣٠ ـ زاكاتيك

١٣١ ـ اوتومى

١٣٢ ـ هواستيك

١٣٣ ـ توتوناك

١٣٤ ـ تاراسكان

١٣٥ ـ اريتك

١٣٦ ـ ميكسيتك

١٣٧ ـ زابوتيك

١٣٨ ـ ميكس

١٣٩ ـ زوك

١٤٠ ـ كاكشيكيل لنيكا

١٤١ ـ شول

١٤٢ ـ شورتى

١٤٣ ـ مايا

١٤٤ ـ شونتاك

١٤٥ ـ اكسيكاك

١٤٦ ـ سوموميسكيتو

١٤٧ ـ هينشول

١٤٨ ـ كوفا

قارة أمريكا الجنوبية
خريطة رقـم (٤)

المناطق الثقافية

أولا : منطقة تشيبشا — Chibcha

ثانيا : منطقة الانكا — Inca (Andean)

ثالثا : منطقة انتليان — Antillean

رابعا : (أ)منطقة الأمازن

(ب)منطقة المرتفعات البرازيلية الشرقية .

خامسا : منطقة شاكو — Chaco

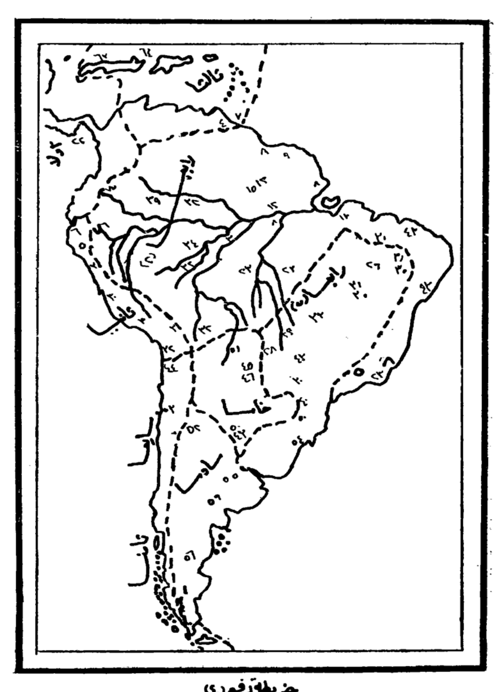
سادسا : منطقة بانتاجونيا — Pattagonian (Pampan)

سابعا : منطقة اروكانيان — Araucanian

ثامنـا : المنطقة الجنوبية — Southern (Fuegian)

الجماعات القبائلية :

١ - شيبشا	١٣ - ماكوصي
٢ - يابز	١٤ - يارورو
٣ - جورجيرو	١٥ - توليبانج
٤ - كاريب	١٦ - حيفارو
٥ - كوكورادو	١٧ - ويتوتو
٦ - كايابا	١٨ - بورو
٧ - دارو	١٩ - واى واى
٨ - ارلواك	٢٠ - موندو روكو
٩ - ياجيا	٢١ - تمبيرا
١٠ - بالينلث	٢٢ جواجاجارا
١١ - كاجابا	٢٣ - بارينتيتن
١٢ - كونا - كيفا	٢٤ - مورا



خريطة رقم (٤)
المناطق والجماعات الثقافية فى أمريكا الجنوبية

٢٥ - كانيلا
٢٦ - ابينانا
٢٧ - كايابو
٢٨ - بورورو
٢٩ - ترومای
٣٠ - أفكا
٣١ - ايمارا
٣٢ - سيريوفو
٣٣ - باريسمى
٣٤ - شيربنت
٣٥ - كاراجا
٣٦ - بوتوكورو
٣٧ - ماكو
٣٨ - توكانو
٣٩ - ابورينا
٤٠ - كاينجانج
٤١ - بورى
٤٢ - توبى تامبا
٤٣ - شينيتيهارا
٤٤ - اثاكاما
٤٥ - شورتى - أشلو سلاى
٤٦ - ماتاكر
٤٧ - جوراتى
٤٨ - تويار سبيلاجا
٤٩ - أبيبون
٥٠ - جوايكورو
٥١ - شيريجيانو
٥٢ - هياربى
٥٣ - دياجيتا
٥٤ - شاروا
٥٥ - بيلش
٥٦ - تيهوبيلش
٥٧ - أوركانيان
٥٨ - شونو
٥٩ - الاكالوف
٦٠ - أونا
٦١ - ياهجان
٦٢ - سيلكنام
٦٣ - كيبونى
٦٤ - أزاواك
٦٥ - كماريب
٦٦ - تاينو

قارة آسيا وقارة أوربا
خريطة رقم (٥)

المناطق الثقافية :

١ ـ منطقة سيبيريا القديمة

٢ ـ منطقة سيبيريا

٣ ـ منطقة الاستبس الآسيوية الوسطى

٤ ـ منطقة مجـــال الحضـارة الصينية :

(أ) منطقة الصين

(ب) منطقة كوريا

(ج) منطقة اليابان

(د) منطقة أيام (فيتنام)

٥ ـ المنطقة المنشورية الهامشية

٦ ـ منطقة التيبت

٧ ـ منطقة حضارة هندو : **Sphece and Hindu Civilization**

(أ) الهند

(ب)بووما

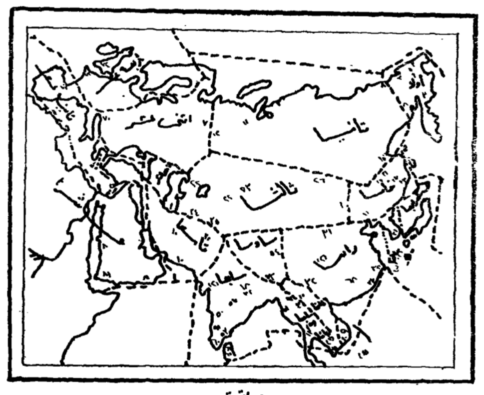
(ج) تاى (سيام ـ تايلاند)

(د) كامبوديا

٨ ـ منطقة جنوب شرق آسيا الهامشية (تبع منطقـة أندونيســيا حضاريا)

٩ ـ منطقة مجال الحضارة الاسلامية

١٠ ـ منطقة الحضارة العربية فى آسيا



خريطة رقم (٥)
المناطق والجماعات الثقافية في آسيا وأوربا

١١ - منطقة القوقاز
١٢ - منطقة جنوب أوربا
١٢ - منطقة شرق أوربا
١٤ - غرب أوربا

الجماعات القبائلية :

١ - اسكيمو آسيا
٢ - شوكشي
٣ - كورياك
٤ - كامشادال
٥ - يوكاغير
٦ - لاموت
٧ - اينـــو
٨ - ياكرت
٩ - تونجوس
١٠ - ساموید
١١ - أوستياك
١٢ - يوراك
١٣ - لابس
١٤ - فوجول
١٥ - جليلاك
١٦ - مانشوس
١٧ - جولد
١٨ - اوش
١٩ - مانيارج
٢٠ - مغــول
٢١ - بيريات
٢٢ - كيرغيز - كازاك
٢٣ - كالمرك
٢٤ - تركمان - الاكراد
٢٥ - أوزبك
٢٦ - أتراك الأناضول
٢٧ - صينيون شماليون
٢٨ - صينيون جنوبيون
٢٩ - كوريرن
٣٠ - يابانيون
٣١ - ريو كيان
٣٢ - يو - هكا - اموی
٣٣ - فوكينيز
٣٤ - لو لو
٣٥ - لاو
٣٦ - ياو
٣٧ - موی
٣٨ - مياو
٣٩ - فيتناميون
٤٠ - شام
٤١ - كمبوديون
٤٢ - تای
٤٣ - كارن
٤٤ - بورما
٤٥ - مون
٤٦ - خامي
٤٧ - ناجا
٤٨ - شان
٤٩ - بالونج
٥٠ - خـــا
٥١ - شين
٥٢ - كاشين
٥٣ - ليبشا
٥٤ - سكان التبت

٥٥ - نيباليز
٥٦ - كولاريا
٥٧ - بايجا
٥٨ - هندوس
٥٩ - كويما ، باداجا ، كورومبا
٦٠ - تردا
٦١ - فيـدا
٦٢ - سينهاليون
٦٣ - نايار
٦٤ - بالوتشي
٦٥ - الفرس
٦٦ - جورجيا وأرمينيا
٦٧ - بدوروالا
٦٨ - بدو
٦٩ - البانيون
٧٠ - فينن
٧١ - ماجيار
٧٢ - باسك
٧٣ - بريتون
٧٤ - ويلش
٧٥ - شيريميس
٧٦ - لاتفيان
٧٧ - هازارا
٧٨ - جوند
٧٩ - سانتال
٨٠ - عرب الشمال (القحطانيون)
٨١ - عرب الجنوب (العدنانيون)

شــكر

أشكر لكلية سوار ثمور والى مؤسسة وليم . ج . كوبر دعوتهـم لى لالقاء هذه المحاضرات ، وفترة اقامتى السارة بالكلية خلال مارس عام ١٩٥٥ . كما اخص بالشكر الأساتذة رتشارد ب . برانت ، لورنس د. لافور ، فردريك كليس الذين قاموا بادارة المؤسسة أثناء الاعـــداد لزيارتى . وقد أولانى هؤلاء رعاية كبيرة عند مقدمى .

كما أدين للاستاذ ف ج . فريدمان باثارته للمناقشة التى قادها حول موضوع الجماعات القروية ، وقد نوهت بذلك فى الفصل الرابع . كما أزجى الشكر الى الأساتذة بدور ارميلاس ، دونالد بتكين ، اروين ت . ساندرز لسماحهم لى بالاشارة الى مخطوطاتهم وملاحظاتهم التى لم تنشر بعد . وأشكر ايضا ج . بارنز ، مكيم ماريوت ، وملتون سنجر الذين قرأوا المخطوط كله وأجزاء منه ، وأبدوا اقتراحات ساعدتنى كثيرا . وقد قامت الآنسة روز مارى وتكو باعداد المخطوط للنشر . وقد ظهرت بعض صفحات الفصل الثالث فى مجلة Quarter Far Eastern فى الجزء الخامس عشر من العدد (الأول) الصادر فى نوفمبر عام ١٩٥٥ . وانى أشكرهم على الاذن باعادة نشر هذه الصفحات .

اما الصفحات التالية فيمكن اعتبارها كملحق لكتاب « المجتمــع الصغير » الذى ظهر فى مطبعة جامعة شـيكاغو عام ١٩٥٥ (أ) ، وفى هذا الكتاب باستثناء فصل واحد اعتبرت المجتمعات الصغيرة مجتمعات مستقلة عما عداها . أما الفصول الحالية فثمة سير تمهيدى للغاية لنوع من أنواع المجتمعات المعتمدة على غيرها الا وهو مجتمع القرويين كنمط يمكن وصفه .

(أ) اعادت جامعة شيكاغو طبع كتاب المجتمع الصغير The Little Community عدة مرات ، وطبع للمرات الرابعة عام ١٩٦٥ . ويشتمل هذا الكتاب على عشرة فصول لعل اهمها على الاطلاق الفصل الثالث الذى عقده ردفيلد عن البناء الاجتماعى من صفحة ٣٣ الى صفحة ٥١ ، والذى يركز فيه على العلاقات الاجتماعيـــة التى تربط سكان القرية ، بعد ان عقد فصلا مسبقا عن النظام الايكولوجى ـ الفصــل الثانى من صفحة ١٧ الى صفحة ٣٢ ركز فيه على العلاقات التى تربط الانســان بالطبيعة . انظر ـ Robert Redfield, The Little Commounity, the University of Chicago Press, Chicago, 1965.

الفصل الأول

الأنثروبولوجيا والمجتمع البدائى

كثيرا ما يكون النمو المفاجىء خطرا · ويصـــدق ذلك على فروع المعرفة الأكاديمية ، صدقه على الكائنات البشرية · فكما أن الشاب اليافع الذى كان طفلا ساحرا يبدو أنه لا يعرف ماذا يفعل بذراعيه وساقيه ، فكذلك علمنا ألا وهو الأنثروبولوجيا يبدو فى مرحلة تطوره وكأنه يفتقد بعض الشيء الاتقان والتأكد مما يجب أن يفعله · وقد أخترت أن أعرض فى هذه الفصول علم الأنثروبولوجيا فى مرحلة النمـو · وقد يجـد القارىء ذلك المشهد مضايقا الى حد ما ، ولكنى آمل أن أجعل القارىء يرى نمو ذلك العلم · وهكذا أكسب تعاطفه مع افتقار ذلك العلم الى الاتقـــان ·

وأود أن أبدأ حديثى بملاحظة هامة ، وهى ان علوم الانســـان تميل الى ان تتشكل حول صورة مجـــردة لذلك الشيء الذى تقـــوم بدراسته · كما أن هذه الصورة ما هى الا مجـرد اقتراب من الحقيقة ذات الجوانب المتعددة · فهى تبالغ وتزيد من أهمية جانب معين من جوانب الموقف البشرى والاجتماعى الذى يوليـــه ذلك العلم اهتماما خاصا · كما يمكن أن نقول أن هذه الصور بينما تتجاهل الطرق العديدة التى تنطلق منها الحقيقة فهى فى حد ذاتها أصدق من الحقيقة نفسها ـ أصدق من الحقيقة طبقا للمثال الأفلاطونى عن الحقيقة ·

وفى بعض العلوم الاجتماعية تكون هذه الصورة مجردة جـــدا وبعيدة كل البعد عن الواقع · اذ يهتم رجل الاقتصاد بالأسواق خاصة ، ويكون مفاهيم دقيقة لأسواق تصورية ولطرق السلوك فى مثل هـــذه الأسواق · وفائدة هذه التجريدات مرهونة بتجاهل الشيء الكثير ممـا يحدث فى الحياة البشرية · أما فى العلوم الأخرى فلا تسود صـــورة واحدة ، حيث أن هناك كثير من الصور الغامضة · وبالنسبة لعلم الاجتماع الأمريكى ، فاننى أذكر أهمية المدينة كتجمع للمشـاكل الاجتماعيـــة ومجتمع الهجرة كنوعين من أنواع الواقع الاجتماعى التى أثارت كثيرا من الأحكام المجردة بالنسبة لطبيعة الأشياء فى هذا العلم · وقد يوجد

فى علم النفس أيضا مثل هذه الحقائق المتكررة التى أثارت كثيرا من التجريدات كحيوان التجـربة فى موقف الاختبـار • وفى علم النفس الفرويدى نجد مريض المدينة المضطرب فى عيادة الطبيب النفسي عند اجراء المقابلة فى مكتب الطبيب •

وفى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية أظن أن ثمة وضوحا تاما فى الحقيقة المتواترة التى يصورها ذلك العلم الا وهى الجمـاعة أو القبيلة البدائية : أى ذلك التوطن البشرى المغلق(أ) • ويقوم علمنا على تجارب أحد علماء الأنثروبولوجيا الذى يعيش مع بعض الشعوب المنعـــزلة فى مكان ناء ، والذين تقتصر حياتهم العامة فى أغلبها على الوادى أو حيلة الصيد أو جزيرة يقطنونها منذ القدم • ويأمل عالم الأنثروبولوجيا أن يذهب الى مكان ناء ، وأن يجد هناك جماعة عن الأفراد يتشابهون فى كثير من الأشياء ويعيشون طبقا للتراث (ب) ، Tradition وأن يأخذ على عاتقه وحدة مسئولية اكتشاف كل شيء عن حياة هؤلاء الأفراد ، وأن يقتصر على هذه الجماعة فى بحثه عن كل ما يتصل أو يتعلق بحياتها • وقد استطاع فى أغلب الحالات أن يبلغ الأمل الى حد ما •

وفى القرن التاسع عشر عندما بدأ علماء الأنثروبولوجيا ، لم يكن ذلك الأمل سائدا بشكل عام • فقد قام علماء الأنثروبولوجيا فى ذلك الوقت بدراسة الثقافة لا الثقافات ، والمجتمع ككل ، لا مجتمعا معينا بالذات(أ)

(أ) تركز الاهتمام التقليدى للانثروبولوجيا الاجتماعية على دراسة المجتمع البدائى ، وبصفة خاصة على القبيلة باعتبارها وحدة اجتماعيـــة تمثل نموذجـــا للدراسة المحددة التى يمكن التعرف فيها على حدود المجتمع وشكله فى بساطة ويسر، تمكن من الوصول الى نتائج مضمونة الى حد كبير نظرا لبساطة التركيب المؤرفولوجى للنظام القبائلى سواء كان ذلك فى عدد السكان أو كثافتهم أو حركة الهجرة الداخلية والخارجية أو عدد المؤسسات الاجتماعية • هذا الى ضيق نطاق العلاقات الاجتماعية وصغر الحجم وتجانس الجماعة وتماثل أفرادها أنظر ــ فاروق العادلى ، الاتجاهات المعاصرة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، الذى سبقت الاشارة اليه •

(ب) انظر تعريف التراث فى الفصل الثالث من هذا الكتاب •

(أ)ناقش علماء أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر ــ بصفة عامة ــ مفهوم الثقافة أو المجتمع مناقشة مجردة ، دون تطبيقها على ثقافة بالذات أو مجتمع بعينه • انظر ــ أحمد الخشاب ، دراسات انثروبولوجية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ •

ومن المفيد هنا أن نشير الى ذلك الجـــدل القائم حول طبيعية التفـــرقة بين الانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيا الاجتماعية والواقع أن الجدل والنقاش قد ثار طويلا حول هذين الفرعين وعلاقة كل منهما بالآخر • فبعض العلماء مثل العالم

وقـد كتـب ادوارد ب ـ تايـلور (ب) Edward Taylor مؤسس علـم الانثروبولوجيا وكذا آدم سميث (أ) Adam Smith عن الدين ولغـة

الامريكي سول تاكس Sol Tax يرون أن الفرق بين النوعين هو فرق فى الاصطلاحات وليس فى الموضوع ، ويرون كذلك ضرورة استخدام الاصطلاحين بالتناوب . وهناك رأى آخر يتصدره العالم الأمريكى كروبر Kroeber بأن الفرق بين الفرعين لا يتعدى الفرق بين الثقافة culture والمجتمع society وعلى ذلك فنحن كما يقول عالم الانثروبولوجيا الفرنسى ليفى ستراوس Levi Strauss بصدد فرعين متداخلين فى معظم الدراسات والأبحاث ، وان وجدت اختلافات بينهما فى اختلافات طفيفة . ويقول ما نصه : « وهـكذا يمكـن لنا أن نقـول ان الانثروبولوجيا الاجتماعيـة والانثروبولوجيا الثقافة أصبحنا تدرسان نفس الموضوعات ، ولكن يوجد اختـلاف بسيط وهو أن الانثروبولوجيا الثقافية تبدأ بدراسة الاشياء المادية والفنون العمليـة وتنتقل منها دراسة النشاط الاجتماعى والسياسى بينما تبدأ الانثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة الحياة الاجتماعية والانتقال بعد ذلك الى دراسة النشاط الاجتماعى والسياسى بينما تبدأ الانثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة الحياة الاجتماعية والانتقال بعد ذلك الى دراسة الأشياء التى هى من نتاج العلاقات الاجتماعية وعن طريقها تعبر الحياة الاجتماعية عن نفسها ، ويمكن تشبيه هذين العلمين بكتابين يحتويان على فصـول متشابهة ، ولكن يختلفان فى ترتيب تلك الفصول وفى عدد الصفحات » . انظر ـ

C. Levi-Strauss, Structural Anthropology, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1968, p. 457 .

وينتهى ليفى ستراوس من هذه المناقشة الى استنتاج مؤداة أن الفرق بين العلمين لا يعدو أسلوب الدراسة ، ولا ينصب الى موضوعها فالموضوع واحد تقريبا ، اذ لا يوجد مجتمع انسانى بدون ثقافة ، ولا يمكن أن توجد ثقافة حية بدون مجتمع . أنظر ـ

عاطف وصفى الانثروبولوجيا الثقافية ، دا رالنهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .

(ب) يعد السير ادوارد تايلور (١٨٢٣ ـ ١٩١٧) مؤسس علم الانثروبولوجيا الحديث ، وأحد أعلام المدرسة التطورية . وكان تايلور يؤمن بوجود مراحل متميزة فى نمو الثقافة البشرية ، ولو أنه يستخدم اطلاقا مصطلح تطور . ولم يكن يعتقد أن تقدم النمو الثقافى أمرا احتميا . وقد قدم العلامة الانجليزى تايلور أشـهر تعريف للثقافة فى كتابه الثقافة البدائية عام ١٨٧١ حين قال : « الثقافة .. هى ذلك الكل المركب الذى يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والاخلاق والقانون والعادات ، وأى قدرات وعادات أخرى يكتسبها الانسان بصفته عضو فى مجتمع » . وقد ساد هـذا التعريف عند كل رواد هذا الفرع فى القرن التاسع عشر ، بل ان العلامة الامريكى لوى Lowie ـ الذى يعد مؤسس الانثروبولوجيا الثقافية فى أمريكا ـ قد بدأ كتابه الشهير المجتمع البدائى عام ١٩٠٢ (Primitive Society) بنقل تعريف تايلور للثقافة ووصفه « بالتعريف الشهير » انظر ـ عاطف وصفى ، المرجع نفسه ، ص ٤١ . وكذلك قاموس مصطلحات الاثنولوجيا . ص ٤٢٠ .

(أ) يلقب آدم سميث (١٧١١ ـ ١٧٧٦) بأبى الاقتصاد السياسى الحديث . وقد نظر الى المجتمع الانسانى على أنه « نسق طبيعى » بمعنى أنه ينشأ من الطبيعة البشرية ذاتها وليس عن طريق التعاقد الاجتماعى وبهذا المعنى انتشرت مفاهيم « الاخلاق الطبيعية » و « الدين الطبيعى » . وترتب على هذا الفهم للمجتمع الانسانى ـ أى اعتباره ظاهرة طبيعية ـ ضرورة استخدام المنهج التجريبى الاسـتقرائى فى دراسته والبعد عن مناهج الفلسفة العقلية الديكارتية . وأشهر أبحاث آدم سميث على الاطلاق هى أبحاثه الاقتصادية . فقد كان أظهر من انتقد نظرية التجاريين فى دراسته الشهير . عن ثروة الامم . وهو صاحب سياسة الحرية الاقتصادية . الشهيرة « دعه يعمل دعه يمر » Laissez faire — Laissez passer فى رأيه يجب أن تمنح الحرية والقوة للنسق الاقتصادى .

انظر ـ فاروق العادلى ، مذكرات فى الاقتصاد الاجتماعى ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، الخرطوم ١٩٧٢ .

التفاهم بالاشارة ، وعن كثير من الموضوعات العامة الأخرى وكذلك عن الثقافة عامة . ولا يمكن للقارىء أن يعرف من خلال كتاباته أو من خلال كتابات فريزر (ب) Frazer أو ماكلينان (أ) Mclennan أو من خلال كتابات الكثيرين كيف كانت حياة شعب معين بالذات . وقرب نهاية القرن أضيف علم الأنثروبولوجيا أو علم الاثنولوجيا كما كان يسمى غالبا الى قائمة الاهتمامات التى كانت تتمثل فى رحلات لا كتشـاف التاريخ الطبيعى لبعض الأماكن غير المألوفة فى العالم . فقد تحول أ . س . هادون Hadden من أحد علماء الحيوان الى عالم انثروبولوجيا ابان رحلاته لمضايق توريس فى ميلانيزيا فى الفترة ما بين عامى ١٨٨٨ — ١٨٨٩ (ب) . وقد صحبه فى رحلته الثانية العالم و.هـ.ر. ريفـرز (ج) Rivers ليقوم بدراسة السكان . وقد قام ريفرز باختبار قدراتهم الحسية كمـا لاحظ عاداتهم . وبرغم من أن تطويره لمنهج البحث الميدانى فى تسجيل

(ب) هو السير جيمس جورج فريزر (١٨٥١ — ١٩٤١) وينتمى بمنهـج كتابته الى القرن التاسع عشر ، على الرغم من أنه عاش ما يقرب من نصف حياته فى القرن العشرين وهو من أهم دعائم المدرسة التطورية ، وتمثل أعماله امتدادا لتفكير تايلور ومورجان وغيرهما ومن أشهر كتـاباته « الغصن الذهبى » وتعتبر نظرية السحر والدين أهم ما أسهم به فريزر فى دراسات الانثربولوجيا التطورية . انظر — سير جيمس فريزر ، الغصن الذهبى . دراسة فى السحر والدين ، ترجمة باشراف احمد أبو زيد ، الجزء الاول ، الهيئة المصرية أبو زيد فريزر والغصـن الذهبى ، ص ٩ — ٥٨ .

(أ) جون فرجسون ماكيتان (١٨٢٧ — ١٨٨١) عالم من علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية ، اسكتلندى المولد والمنشأ . ومن الدراسات التى استأثرت باهتمـامه واهتمام غيره من علماء القرن التاسع عشر عادات وأد البنات والثـأر والزواج الاغترابى أو الخارجى Exogamy أى الزواج من خارج الوحدة الاجتماعية . وتجدر الاشارة الى ان دراسة هذه الموضوعات لم تتم على أساس ميدانى حقلى ، وانما اعتمد ماكلينان فى أبحاثه ودراساته — كما كانت عادة علماء القرن التاسـع الذين يسمون باسم علماء المقاعد الوثيرة Arm chair anthropologists على أقـوال الرحالة والمستكشفين ورجال الادارة من المستعمرين الاوربيين . انظـر — أحمد الخشاب ، المرجع نفسه الذى سبقت الاشارة اليه .

(ب) انظر — المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

(ج) ويليام هالز — ويفرز (١٨٦٤ — ١٩٢٣) زميل هادون لرحلة مضايق توريس ، وعمل فى هذه الرحلة كاخصائى نفسي فى عام ١٨٩٨ ، عاد منها وقد تشبع بمهنة الانثروبولوجيا . ولذلك أوقف سـنوات عمره الاخيرة فى دراسـة الانثروبولوجيا . وكان من المؤمنين بالنظرية التطورية ، ثم تبنى بعد ذلك النظرة الانتشارية التى تبدو واضحة فى كتابته عن تاريخ المجتمع الميلانيزى عام ١٩١٤ . وقد أبدى ريفرز فى كثير من كتاباته اهتماما كبيرا بالمسائل والمشكلات المنهجية فى الانثروبولوجيا .
انظر — قاموس الاثنولوجيا ، ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

الأنساب Genealogies قد أدى الى التفهم العميق لنظم القـــرابة الذي حققه علم الأنثروبولوجيا الحديث ، فقد نشرت دراســـات ريفرز وكذا دراسات علماء آخرين عن السكان خلال رحلة مضايق توريس فى شكل سلسلة من الأبحاث الصغيرة يدور كل منها حول موضوع واحد ، وبذلك لا يجد القارىء دراسة كاملة لحياة السكان فى مجموعها ٠

ومع هذا ، فمن خلال ذلك الاهتمام المبكر بالعادات والثقافة عامة أو الموضوعات المفضلة يستطيع المرء أن يميز بين بداية دراسة الجماعات البدائية كمجتمعات مغلقة ومتكاملة على أيدى المبشرين الذين عاشـوا لفترات طويلة بين شعوب غريبة عليهم قبل ظهور علم الاثنولوجيا ٠ ففى عام ١٨٥١ نشر لويس هـ٠ مورجان (أ) Morgan فى بداية حياته كأنثروبولوجى دراسة جزئية لهنـــود اروكوا وفى عام ١٨٨٨ ظهـرت دراسة علمية للاسكيمو بقلم فرانزبواس (ب) Boas وهنا نجد دراسة سريعة للحياة رغم وجود بعض التحليل الواضح لكيفية تكامل أجزاء الثقافة ٠ وقبل عام ١٩٠٠ ساعد بواس فى تنظيم رحلة جيسوب Gesup وكان من نتائجها أن ظهرت دراسات لبعض شعوب أمريكا والهند وسيبريا التى تتمثل لديها الثقافات بطريقة كاملة الى حد ما ٠

(أ) لويس هنرى مورجان (١٨١٨ - ١٨٨١) من علماء الانثروبولوجيـــا الامريكيين الاوائل ٠ وضع نظرية فى التطور الاجتماعى وكان لها تاثير على الدوائر السوسيولوجية لمدة بضع سنوات ٠ وقد اكدت نظريته الاهمية الاساسية للعـــوامل التكنولوجية فى المجتمع وما يتعرض له من تغيرات ويحدد مورجان ثلاث مراحل أساسية للتقدم هى : التوحش ، والبربرية ، والحضارة ٠ ويقسم كل مرحـلة من الاثنين الاولين الى ثلاث مراحل فرعية ، ويرى أن كل مرحلة ومرحلة فرعية من هؤلاء تسهل دائما باختراع تكنولوجى رئيسي ٠

انظر - قاموس الاثنولوجيا ، ص ٤٠١ وكذلك أحمد أبو زيد ، مورجان ، تراثه الانسانية ٠

(ب) فرانزبواس (١٨٥٨ - ١٩٤٢) عالم أنثروبولوجيا واثنولوجيا شهير ، ؟ المانى الاصل ، هاجر الى أمريكا عام ١٨٨٧ ٠ كان له تاثير القوى على دراسات الانثروبولوجيا فى امريكا ، اذا كان من تلاميذه كروبر ، ولوى ، ورادين، وهيرسكوفيتس وغيرهم من اعلام هذا العلم ٠ وقد حول اهتمامات لدارسين من الدوران حول النظريات والتاملات الى الجمع الميدانى الدقيق ، وتصنيف المواد المجموعة ٠ وهـــو يعـد من رواد المذهب الوظيـــفى الاول ٠ انظر - قاموس الاثنولوجيا ، ص ٣٨١ ٠

وقد تلقى هادون تعليمه فى علم الحيوان وريفرز فى علم النفس وبواس فى علم البصريات الفسيولوجية . وقد أصبحوا أنثروبولوجين من خلال قيامهم بالأبحاث فى الحقل الانثروبولوجى . وكانوا المعلمين الأوائل الأنثروبولوجين الذين شغلوا مناصب أساتذة الأنثروبولوجيا فى الجامعات . وقد نشر اثنان منهم وهما : أ . ر . راد كليف برون (أ) Radcliffe-Brown وبرونيزلاو مالينوسكى (ب) Malinowski بعض الكتب فى عام ١٩٢٢ نذكر منها الأرجنونس (ج) فى غرب المحيـــط

(أ) راد كليف براون (١٨٨١ — ١٩٥٥) انثروبولوجى انجليزى شـــهير . اشـــتغل بتدريس الانثروبولوجيـــا والانثروبولوجيـــا والاشراف على دراســـات الانثروبولوجية فى عدة جامعات داخل انجلترا وخارجها ، ومن بينهـــا جامعـــة الاسكندرية . ويعد أحد مؤسسي المدرسة الوظيفية وان لم تتخذ كتاباته شكل النظرية المدرسية فى هذا الشأن .

(ب) برونيزلاو مالينوسكى (١٨٨٤ — ١٩٤٢) ولد فى بولندة وتوفى فى امريكا درس بجامعات بولندة ثم لندن حيث تتلمذ على سلجمان . سافر الى استراليا حيث قضي هناك فترة الحرب العالمية الاولى . وقد قام خلال هذه المدة بدراسته المشهورة عن جزر « التروبرياند » انظر — المقدمة التحليلية للترجمة العربية . ثم فيما بعد استاذا للانثروبولوجيا الاجتماعية فى لندن ، يعزى اليه اعطاء الدراسات الوظيفية صيغتها النظرية وارساء قواعد مدرستها ، وكان من بين تلاميذه ريموند فيرث وايفانز بريتشارد . وقد ترك مالينوسكى انتاجا خصبا متنوعا . انظـــر — قاموس الاثنولوجيا ، ص ٣٩٩ .

(ج) يقول مالينوسكى فى مقدمة كتابه الرئيسي « الارجونوتس » اننى فى هذا الكتاب حاولت ان أعطى صورة لبعض أشكال العلاقات التجارية التى تنشأ بين مجموعة من القبائل تسكن فى غينيا الجديدة ، وتقوم الدراسة الاثنوجرافية على أساس الأخذ بمبدأ التكامل فى دراسة النظم الاجتماعية ، فهذه النظـــم تتشـــابه وتتداخل بحيث يتعذر دراسة مظهر اجتماعى معين دون أخذها جميعا فى الاعتبار .. واذا كنا ندرس أساسا التبادل التجارى بين القبائل ، الا انه لا بد لفهم هـــذا الجانب الاقتصادى من دراسة التنظيم الاجتماعى . السحر ، والاساطير ، والفولكلور وكافة الجوانب الاخرى المرتبطة بالظاهرة وتساعد على فهمها » ومع دراسة مالينوسكى تناول أساسا النشاط الاقتصادى ، الا أنه وجد أن نظم التبادل والانتاج ارتباطا وثيقا بالانسان القرابية ، والرئاسة والعشائرية ، والدينية والسحرية . فانتاج القوارب التى يستخدمها الاهالى فى تبادل سلع مرتبطة بمجموعة من الشعائر والطقـــوس الدينية والسحرية التى تعتبر بدورها بمثابة قوة دافعة لأداء تلك الانشطة ، وعلى ذلك بهدف تبادل الهدايا والسلع الى تحقيق غايات اقتصادية ، بقدر ما يحقق للجماعة مزيدا من القاب التقدير الاجتماعى والهيبة الاجتماعية .

وقد اهتم مالينوسكى بدراسة شكل معين من أشكال التبادل هو المسمى بنظام الكولا وهو نوع من تبادل السلع يتم على نطاق واسع بين عدة قبائل تســـكن عدة مجتمعات تكون مجموعة دائرية من الجزر .

انظر — أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الاول ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ .

وكذلك B. Malinowski Argonauts and the Western Pacific Routledge and Kegan Paul, London, 1950.

وراجع كذلك المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

الهادى وسكان جزر الأندمان (أ) . وقد ذهب كل منهم الى مكان ناء وعاش فى مجتمع صغير مغلق وعاد ليدو تقريره عن ثقافة معينة ككل متكامل يمكن أن يفسر على أنه نسق (ب) مكون من أجزاء مترابطة وظيفيا . واستمرت دراسة مالينوسكى فى شكل سلسلة طويلة من الأبحاث التى تم نشرها عن سكان جزر التروبرياند . وبينما جذبت هذه الكتب اهتماما متزايدا بمرور الوقت ، فقد أرست بشكل واضح نموذجا للبحث فى الأنثربولوجيا الاجتماعية . ذلك هو ما تصور الأنثرولوبوجيون القيام به . فكل دراسة هى مجرد بحث واحد عن كل متكامل يمكن أن يفهم على أنه يغطى كل احتياجات الحياة بطريقة منظمة يفهمها هؤلاء الاشخاص الذين يعيشونها ويعتبر كل منها دراسة عامة قام بها باحث واحد لثقافة واحدة ومجتمع واحد منفصل عن الثقافات والمجتمعات الأخرى . حتى أن الرحلات التجارية التى يقوم بها سكان جزر التروبرياند كانت تعتبر جزءا من نسق متكامل هو ثقافة التروبرياند . ولا يجد المرء عند قراءته لكتابات راد كليف براون أية دراسة هامة لأى شيء خارج المجتمعات البدائية دون الاشارة الى أى شيء خارجها ، كما يمكن أن يفهمها - الى حد ما - رجل واحد يعمل

(أ) راجع المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

(ب) يمكن تعريف النسق بأنه أية وحدة اجتماعية تؤدى وظيفة معينة . وتبعا لهذا التعريف أو التصور يكون للنسق الاجتماعى وحدة وكيان وظيفى ، فليس هو مجرد تجمع أو حشد وانما كل متكامل . وترتب على الاهتمام بفكرة « النسق الاجتماعى » « والتكامل الوظيفى » بين أجزائه المناداة بأن النظام الاجتماعى Social Institution يفقد معناه فى الاغلب حين ينتزع من النسق الاجتماعى الذى ينتمى اليه . فالنظام الاجتماعى - على هذا النحو - لا يتحقق وجوده ووظيفته الا فى داخل النسق الاجتماعى الشامل . أما اذا انتزع فانه يفقد أهم خصائصه ، ومن الصعب التعرف على حقيقته .

انظر -

A. R. Radcliffe-Brown, Structure and Function in Primitive Society, London, Oxford University Press, 1965.

وانظر كذلك لنفس المؤلف :

Functionalism : A Protest. Amer. Anthrop. 51, 1949.

وانظر أيضا تعريف النظام الاجتماعى .

بمفرده وليس ضروريا أن يكون ذلك الرجل مؤرخا لأنه لم يكن لدى هؤلاء الأميين تاريخ يمكن دراسته (أ) ٠

وكنتيجة لمثل التجربة المتميزة مع المجتمعات الصغيرة المنعــزلة والمغلقة استطاع الأنثروبولوجى الاجتماعى تطوير مناهجه ، كما أمكنه تصور مجموعة هائلة من المقارنات ، ومكنته مسئوليته الكاملة من دراسة طرق الحياة البعيدة وغير المألوف من أن يحيـــط علما بكل العــلوم الاجتماعية ٠ وبذلك استطاع أن يعرف شيئا عن الاقتصاد ونظم الحكم والدين والحياة العائلية عن الشعوب التى يقوم بدراستها ٠ كما ساعده أيضا صغر وتماسك المجتمع البدائى فى تنمية نزعته لتقديم كل شيء عن طريقة الحياة ٠ وعندما يجد دارس المجتمعات المتمدينة نفسه بصـــدد دراسة جزء من كل مثل الأزقة والاحياء الفقيرة فى مدينة ما أو الانحراف أو أنماط الاستيطان أو سوق قروى ، فان الأنثروبولوجى يعــرض فى هذه الحالة كل شيء عن ذلك الكل المتكامل الصغير ٠ وظهرت هــذه الكليات « المجتمعات » الصغيرة المتكاملة وكأنها أجزاء مترابطـــة فى تماسك تام ، بحيث اذا تصدى المرء لأحدها من جانب معين وجد نفسه مضطرا الى أن يذكر الكثير عن الجوانب الأخرى ٠ وبالنظر الى المجتمع البدائى على أنه ثقافة ما ، أمكن رؤيته على أنه مجموعة من العــادات

(أ) ان اغفال التاريخ فى دراسة المجتمعات البدائية أمر لا مناص منـه ٠ وهذا ما يؤكده عدد كبير من الانثروبولوجيين ولا سيما هؤلاء الذين يشايعون المذهب الوظيفى وفى مقدمتهم ايفانز بريتشارد وراكليف براون ومالينوسكى ٠ فالاهتمام ـ فى نظرهم ـ يجب أن يكون موجها الى واقع وحاضر النظم الاجتماعيـــة فى النسق الاجتماعى أو البناء الاجتماعى الكلى ٠ ولذلك فالمدرسة الوظيفية ـ بصفة عامة ـ لا تهتم بتتبع ماضى وتاريخ النظم الاجتماعية فى المجتمعات البدائيـــة وذلك لاسباب متعددة أهمها عدم وجود السجلات التاريخية الدقيقة التى تشرح تاريخ النظم البدائية ، وكذلك لا يمكن الاعتماد على ذاكرة كبار السن لاعــادة بناء النظم الاجتماعية القديمة ٠ وقد لخص العلامة مالينوسكى هذا الاتجاه فى فقرة صغيرة فى كتابه الشيق عن دينامية التغير الحضارى أفريقيا فقـــد قال : « وهكذا بدلا من تصيد الادلة عن طريق تنسيق عامل الزمن واسقاطه فى حوادث الماضى والحاضر والمستقبل للوصول الى تتابع تاريخى أو تطورى ، ـ يجب علينا تنظيم الوقائع الاجتماعية فى مجموعات (نظم اجتماعية) تعيش كلها متداخلية ومتواجدة معا فى الحاضر ، وبالتالى يمكن دراستها ككل عن طريق دراسة ميدانية وضعية » ٠ ويمكن موضوع الانثروبولوجيا أخذ يتسع بحيث شمل دراسة المجتمعات التاريجية مثل المجتمعات القروية والمدن الصغيرة ، وفى بعض الاحيان دراسة المجتمعات الصناعية المتقدمة ولذلك يجب بالنسبة لتلك المجتمعات الحديثة عدم اغفال دراسة تاريخها نظرا لوجود الوثائق المؤكدة ٠

والنظم داخل اطار فريد من الحياة واذ اعتبر مجتمعا أمكن ايجاد كل العلاقات الاجتماعية - باستثناء القليل منها التى تم وصفهما بين هذه المجموعة الصغيرة من الناس . وهكذا ظهرت مفاهيم الثقافة (أ) والبناء الاجتماعى (ب) والنمط الأساسي (ج) وكذلك مبدأ الكلية (د) Holism فى علم الأنثروبولوجيا عامة .

وهكذا أصبح ذلك المجتمع البدائى المنعزل الذى يعتبر فى حد ذاته متكاملا ، والذى يعتبر الآن محض مجرد فكرة جاءت نتيجة تجـــارب عديدة تقترب جدا من التجريد - أصبح نموذجا للبحث العلمى وكيـــانا متميز للمقارنات والتعميمات . وأصبحت الأنثروبولوجيـــا الاجتماعيـــة بمثابة التاريخ الطبيعى لبعض العضويات الاجتماعية المتشابهة والمتمايزة. وقد كتب كروبر (هـ) Kroeber حديثا : « وهكذا أصبح الأنثروبولوجى

(أ) راجع حاشية رقم ٣١ من المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

(ب) يشير مفهوم البناء الاجتماعى بين جمهرة الانثروبولوجيين الى « الشبكة الكلية للعلاقات الاجتماعية »The whole network of social relation s وهذا هو التعريف الذى وضعه رادكليف براون للبناء الاجتماعى ، ويدخل فى نطاقه ايضا العلاقات الاجتماعية الثنائية Dyadic relations وكذلك عمليـــات التمييز بين الافراد أو الطبقات على أساس الدور الاجتماعى . انظر -

A. R. Radcliffe-Brown,
" On Social Structure Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. LXX, part, I, 1940, p. 2.

ويعارض الانثروبولوجى الفرنسي الشهير ليفي ستراوس قصر مفهوم البناء الاجتماعى على الجانب الخاص بالعلاقات الاجتماعية ، لان هذا يجرد دراسات البنـــاء الاجتماعى من استقلالها ويجعلها مجرد منهج أو طريقة فى البحث فحسب فى مجال الدراسات الاجتماعية . انظر -

Levi-Strauss, Social Structure, in Anthropology Today, A.L. Kroeber (ed.) Chicago, University of Chicago Press, 1953, p. 525.

وتجدر الاشارة الى ان البناء الاجتماعى هو عبارة عن نموذج مقـــام على غرار الواقع الاجتماعى الامبريقى ، ولكنه ليس مطابقا له .

(ج) هو النمط الثقافي الاساسي الذى يميز الثقافة ويدل عليها فى مجموعها، اى لا يكون مقصورا على قسم واحد فقط من اقسام الثقافة .

(د) ان مبدأ الكلية مستمد أساسا من أصحاب نظرية علم النفس الجشطالتى . وتعتقد روث بندكت مثلا أن « الكل - كما يؤكد العلم الحديث فى كثير من الميادين - ليس مجرد مجموع أجزائه ولكنه نتاج ترتيب متميز والعلاقات المتبـــادلة بين الاجزاء التى خلقت كلا جديدا » . انظر :

Ruth F. Benedict, Configurations of Culture in North America, American Anthropologist, 34, I.

(هـ) الفريد لويس كروبر (١٨٧٦ - ١٩٦٠) عالم أنثروبولوجيا أمريكى اشتهر بدراساته فى ميادين اللغة والثقافة والدين .. الخ عند هنود امريكا الشمالية ودراسة آثار المكسيك وبيرو . ومن أبرز ما ساهم به فى الانثروبولوجيا نظريته عن « ما فوق العضوى » Superorganic . انظر - قاموقف الاثنولوجيا ، ص ٣٩٤.

يتصور عالم المقارنات التى يجريها باعتباره مؤلفا من ثقافات أو مجتمعات أو أنساق اجتماعية ، كل منها يمكن تصوره كشىء متميز عن كل ما عداه « ٠ وقد أمدنا اكتشاف هذه الكيانات الكلية الطبيعية بما يمكن ن يسمى الكيان الطبيعى أو الكائن العضوى أو شكل الحياة بالنسبة لذلك الفرع من فروع التاريخ الطبيعى الذى يهتم بالجنس البشرى وقد كان هادون على حق اذ توجد فى العالم مجموعة متنوعة من الكليات الطبيعية مثل : الأنواع الحيوانية ، أو المجتمعات الصغيرة المنعزلة ٠ وقد كان الباحث يقوم بجمع البيانات الخاصة بكل منها وملاحظتها ، ثم يقوم بعرضها على منضدة البحث العلمى ، ويقارن بينهما كى يعرف القوانين التى تحكم بناءها ووظائفها وعملياتها الطبيعية ٠

وبطبيعة الحال فان الواقع يختلف عن ذلك كثيرا ، والحياة البشرية لا تتكون من جماعات صغيرة منعزلة عن بعضها البعض ٠ وبقدر ما كان ذلك تكوينها قبل ظهور الحضارة ، فانها لم تعد كذلك منذ أن تصدت الأنثروبولوجيا لذلك الجانب من جوانب الواقع الذى يتمثل فى وجود المجتمع البدائى المنعزل ٠ ومما يسترعى الانتباه أن نذكر أنه فى الوقت الذى كان يتم فيه ارساء المجتمع البدائى المنعزل كنموذج للدراسة فى الأنثروبولوجيا ، كان جراهام والاس يقوم بتأليف كتابه الذى بين فيه أن العالم كله قد أصبح مجتمعا كبيرا واحدا وهكذا ارتبط المجتمع البدائى المنعزل بذلك المجتمع الكبير عندما قام الأنثروبولوجى بدراسته ٠ وفى الحقيقة كان الأنثروبولوجى نفسه أحد أدوات أو مقومات ذلك التحول ٠ وقد قام الأنثربولوجيون بدراسات عديدة للمجتمعات فى علاقاتها الكثيرة والمعقدة مع الشعوب الاخرى ، وكذلك فى أحقاب التاريخ المعروف أو الذى يمكن معرفته ٠

وقد تردد علماء الأنثروبولوجيا قليلا قبل اعادة تعريف علمهم بأنه دراسة كل الشعوب فى كل أنواع المواقف الاجتماعية والثقافية ٠ ففى عام ١٩٢٣ عرف راد كليف براون الأنثربولوجيا الاجتماعية والاثنولوجيا فى خطابه الرئاسي بأنهما دراسة الشعوب غير المتمدينة ٠ وبذلك أكد هذا القيد على موضوع هذين العلمين بقوله أن القيمة العملية لهذه الدراسات هى أنها « تنقذنا من الوقوع فى كثير من الأخطاء الجسيمة فى معاملاتنا مع الأجناس والشعوب الأصلية » (٣) وقد قال فى عام ١٩٤٤ أن ميدان

الأنثربولوجيا الاجتماعية « هو كل المجتمعات البشرية دون شك»(٤)، وقد يقبل كثير من الأنثروبولوجيين موقف ايفانز بريتشارد Evans Pritchard (أ) الذى حدد عام ١٩٠١ (٥) الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها تعنى من الناحية النظرية دراسة كل المجتمعات البشرية كفرع من فروع الدراسات الاجتماعية ، وتهتم أساسا بالمجتمعات البدائية (ب) . وقد يرفض البعض هذا التحديد وخاصة هؤلاء الذين لا يحبذون فكرة اقتصار ذلك العلم على المجتمعات البدائية . ففى عام ١٩٣٩ نادى لويدوورنر (ج) Lloyd Warner بأن كل المجتمعات البشرية بدائية أو متحضرة ، بسيطة أو معقدة ، تعتبر موضوع دراسة الأنثربولوجيا . وقد أثبت سعة رأيه هذا بأن قام بدراسة بعض المجتمعات البدائية جدا وكذا بعض المجتمعات المتمدينة جدا . وقد تحرك الأنثروبولوجيون الأمريكيون سريعا عندما أخذوا على عاتقهم جزءا من مسئولية دراسة الشعوب المتمدينة والدول والأحداث العالمية مثل التصنيع

(أ) ايفانز بريتشارد (من مواليد ١٩٠٢) وهو من أشهر الانثروبولوجيين الاجتماعيين الذين قاموا بدراسات قيمة عن السودان لا سيما قبائل الزاندى والنوير بث صدر له عام ١٩٣٧ كتابه الشهير « الشعوذة والعرافة والسحر عند الازاندى » . كما صدر له عام ١٩٤٠ كتابه عن النوير ، وفى عام ١٩٠١ صدر له كتاب « القرابة والزواج عند النوير » وقد تتلمذ ايفانز بريتشارد على يد كل من مالينوسكى وسليجمان الذى قام قبله بدراسات عن القبائل السودانية . وقد شغل ايفانز بريتشارد وظيفة أستاذ الانثروبولوجيا بجامعة اكسفورد منذ عام ١٩٤٦ حتى أحيل الى المعاش منذ عامين . وقد سبق لايفانز بريتشارد أن قام بتدريس علم الاجتماع بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) حاليا من عام ١٩٣١ حتى عام ١٩٣٤ .

(ب) راجع حاشية رقم (٢) من المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

(ج) لويد وورنر (من مواليد ١٨٩٨) عالم انثروبولوجيا امريكى .. تتلمذ على كل من روبرت لوى وراد كليف براون . وقد اشتهر بدراساته الميدانية التى أجراها فى استراليا والولايات المتحدة ومن أشهر دراساته دراسته التى أجراها عن مدينة أمريكية طلق عليها اسم « دراسة اليانكى سيتى » ، Yankee City والتى ساهمت فى تشكيل ميدان الدراسة فى ميدان علم الاجتماع الصناعى . وقد فسر وورنر الحياة الاجتماعية بالرجوع الى البناء الاجتماعى متفقا فى ذلك مع أستاذه راد كليف براون . معارضا فيما اسماه دوركيم بالعقل الجسمى وقد أفادت دراسات وورنر فى ابراز طبيعة الجهاز الاجتماعى داخل المصنع الحديث . انظر — فاروق العادلى ، الاجتماى الصناعى ، مكتبة القاهرة الحديثة . القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

والتحضر (أ) • وفى خطاب رئاسي بعد مرور ثمان وعشرين عاما على خطاب رائد كليف براون نادى رالف بيلز (ب) Ralph Beals باسم علم الأنثروبولوجيا وارتباطه بعلم الاجتماع بضرورة ايجاد « نظرية عامة » تربط كل الدراسات التى تدور حول المدن الآسيوية واكتساب وتمثل ثقافات أخرى (التثقيف من الخارج (جـ) acculturation والدراسات

(أ) تعد دراسة موضوع التصنيع والتحضر نتيجة حتمية للتطور الذى طرأ على دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية ، بعد أن كان التركيز الدراسي المنهجى منصبا أساسا على دراسة المجتمع البدائى • ويعد جتكند Gutkind وفيليب ماير Mayer وسوزول Southall وهيلدا كيوبر Kuper من أوائل الانثروبولوجيين الاجتماعيين المعاصرين الذين عنوا بالدراسات الخاصة بظواهر التحضر والهجرة • ولا شك فى أن كتاب اليونسكو الشهير الذى اشترك فيه عدد ضخم من الانثروبولوجيين المعاصرين من أجل دراسة ظواهر التصنيع والتحضر فى بعض الدول الافريقية النامية بجنوب الصحراء ، هو دليل حى على اهتمام الانثروبولوجيين المعاصر بدراسة المتضمنات الاجتماعية المتعلقة بكل من التحضر والتصنع انظر بصفة خاصة

UNESCO, Some Social Aspeots of Industrialization and Urbanization Africa South of the Sahara, Lausanne, 1956.

(ب) رالف ليون بيلز (من مواليد ١٩٠١) انثروبولوجى أمريكى • تخصص فى أنثروبولوجيا أمريكا اللاتينية ، موضوع التغير الثقافى ، ودراسات المجتمع • انظر _ قاموس الاثنولوجيا ، ص ٣٨٠ •

(ج) التثقف من الخارج هو المصطلح الامريكى الذى يقابل المصطلح البريطانى « الاتصال الثقافى » Cuiture Contact كما يقابل أيضا مصطلح « العبور الثقافى » Trasculturation الذى يستخدمه كتاب أمريكا اللاتينية • انظر :

Ralph Beals, 'Acculturation' in Anthropology, A.L. Kroeber (ed.), Chicago, 1953, p. 626 .

الاجتماعيين المحدثين (ردفيلد ، لينتون ، هيرسكوفيتس) • يشتمل على تلك تلك الظاهرة التى تنتج حينما تتصل لأول مرة جماعتان من الافراد ذات ثقافتين مختلفتين ، وينتج عن هذا الاتصال تغيرات فى انماط الثقافة الاصلية لاحدى أو لكلا الجماعتين • انظر _ و R. Redfield et al., " Memorandum on the Study of Acculturation American Anthropologist, Vol. XXXVIII, pp. 149 ff. (Also published in Man, African and Oceania).

وندرك من هذا ان هذا المصلطح يتصرف الى تلك الاحوال المتغيرة فى المجتمع الامى البدائى تحت تاثير الحضارة الغربية • ومع ذلك فهناك اتجاه فى ايامنا هذه الى اجلال مصطلح التغير الاجتماعى أو الثقافى محل المصطلح الحالى • ففى تحليلهم لظاهرة التغير الاجتماعى فرق كل من هورنل والن هلمان

Hoernle and Ellen Hellman

بين ظاهرة التغير الاجتماعى ومصطلح التثقف من الخارج أو تمثل ثقافات أخرى على النحو التالى :

السوسيولوجية عن الحضرية Urbanism كاسلوب فى الحياة . وفى الوقت الحاضر تقوم الانثروبولوجيا وخاصة عند الأمريكان بدارسة كل شيء يتعلق بالجنس البشرى .

ويقوم الأنثروبولوجى عادة فى الوقت الحاضر بدراسة مجتمع يرتبط بدولة قومية أو حضارة معينة أو يكون جزءا منها . فهناك كثير من الكتب الحديثة التى كتبها الأنثروبولوجيون عن مجتمعات فى الملايو (٨) وبورما (٩) وبارجواى (١٠) والصين (١١) وكندا عندما كانت تحت الحكم الفرنسي (١٢) وفى بلجيكا (١٣) وميسورى فى الولايات المتحدة الامريكية (١٤) كما نشر ايفانز بريتشارد كتابا عن تاريخ طائفة اسلامية (أ) تحت الحكم الاستعمارى (١٥) . وكتبت روث

« لأن مصطلح التغير الاجتماعى يستخدم عادة ليصف التغير من خلال ثقافة غربية حديثة ، بينما يستخدم مصطلح التثقف من الخارج ليصف التغيرات الناتجة عن اتصال ثقافتين مختلفتين تماما ، فقد اصبح من الشائع النظر الى العمليتين على أساس انهما مختلفتان فى النوع . ولا يوجد فى نظرنا ما يبرر ذلك ، فالتثقف من الخارج هو شكل من اشكال التغير الاجتماعى مختلف لا فى النوع ، بل فى الدرجة » انظر :

The Analysis of Social Changes and its Bearng on Education, Colonial Review, Vol. 7. No 8, 1952.

ويوضح الاستاذ كنيث ليتل هذه المشكلة _ بصورة أكثر قبولا _ فى قوله : « ان مشكلات التثقف من الخارج يمكن تقديرها بصورة أفضل من خلال النظم الناجمة عن تمثل ثقافات أخرى ، بدلا من فهمها من خلال الثقافات أو الانساق الاجتماعية ذاتها التى تؤثر فى بعضها البعض . وان المشكلة ليست ما هو غربى أو « وطنى أو أصلى ، ولكن بالاحرى ما هو ملائم للجماعات والعلاقات الاجتماعية » انظر _

K. Little, " From Tribalism to Modrn Society " , Year Book of Education. London, 1954 .

ولذلك يؤكد _ الاستاذ ليتل _ بأن مشكلة الافريقى _ المتمثل لثقافة الغرب هى أن « يجد وجوده الاجتماعى فى شكل معاصر . انظر _

K. Little, The Studies of Social Change in British West Africa, Vol. XXIII, pp. 274-284 and West African Urbanisation, Cambridge, University Press, Cambridge, 1963 .

تلك هى دراسة ايفانز بريتشارد عن السنوسية ، حيث نشر دراسة بعنوان : السنوسيون فى برقة عام ١٩٤٩ . ومن المعروف أن برقة كانت خاضعة لحكم الاستعمار الايطالى .

بندكت(ب) Ruth Benedict كتابا مشهورا عن اليـابان (١٦) وكتب الأستاذ لوى (ج) LoWie كتابا عن المانيـا (١٧) كمـا قام أحـد الانثروبولوجيين الفرنسيين بمقارنة قرية فرنسية باخرى فى يوتا (١٨) كما تقوم مجموعة من الانثروبولوجيين الامريكيين بدراسـة منطقـة بورتوريكو (١٩) كلها وتقوم مجموعة أخرى بدراسة التنظيم الاجتماعى فى اليابان (٢٠) • وكثيرا ما يشترك الأنثروبولوجى مع علماء آخرين فى فروع العلوم الأخرى • فعندما يقوم بدراسة قرية فى الهند مثـلا يشترك معه رجل الاقتصاد ، وعندما يبحر نحو البحار الجنوبية يشترك معه بعض علماء النفس الذين يقومون باجراء اختبارات للكشـف عن دوافع الفرد وشخصيته • فلم يعد الأنثروبولوجى يقوم بدراسة المجتمع البدائى المنعزل أو المجتمعات التى تكون أنساقا مغلقة فقط ، كما لم يعد يعمل بمفرده فقد تغيرت طريقة عمله تغيرا عميقا نتيجة للاتساع المفاجىء الكبير الذى طرأ على موضوعاته •

ورغم هذا فان عادات العمل لا يمكن أن تتفق فجأة مع مادة أو موضوع اتسع وامتد حديثا فلا زال الانثروبولوجى يتحرك فى عالمـه الواسع ترشده فكرته الأولى ومفهومه الأول عن المجتمع البدائى المنعزل التجريدى • ولذلك فانه عندما يبحث عن تجربته الأولى ويجـد أن الشعوب البدائية تبعد الآن عنه كثيرا وأن نفقات الوصول اليها باهظة جدا نجده يتخذ طريق الانفاق ـ على حد قول كروبر ـ ويقوم بدراسة

(ب) روث بندكت (١٨٨٧ ـ ١٩١٨) عالمة انثروبولوجيا أمريكية شـهيرة • شغلت عددا من المناسب العلمية علاوة على تدريسها بالجامعة أخرجت عـديدا من المؤلفات التى خلدت اسمها فى الفكر الانثروبولوجى اشهرها : انماط الثقافة (الطبعة الاولى ١٩٣٧) « وزهرة الحرير نيتم والسيف » (وهو تحليل ثقافى لليابان) ارتبط اسمها بتطوير منهج دراسة الثقافة على البعد ، والذى واصلت العمل به وتطويره بعدها مرجريت ميد M. Mead وتلاميذ آخرون لها • من أشهر اسهاماتها ما قدمته نحو تحديد مفهوم « الثقافة » انظر قاموس الاثنولوجيا ، ص ٣٨٠ •

(ج) روبرت هارى لوى (١٨٨٣ ـ ١٩٥٧) عالم أثنولوجيا أمريكى نمساوى المولد وقد شغل منصب أستاذ الانثروبولوجيا بجامعة كاليفورنيا من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٥٠ حيث تقاعد • ويعتبر حجة فى دراسة هنود أمريكا الشمالية • كما أحرز شهرة واسعة كمورخ للنظرية الاثنولوجية • ويعد كتابه « تاريخ النظريات الاثنولوجيـة » الصادر فى طبعته الاولى عام ١٩٣٧ من أهم اعماله على الاطلاق ، انظر ـ قاموس الاثنولوجيا ، ص ٣٩٩ •

مجتمع الأرمن فى ولاية بوسطن (٢١) ، فذلك أقرب مجتمع بدائى منعزل يمكنه الوصول اليه بتكاليف قليلة . وعندما يفكر فى دراسة الأرمن الذين يسكنون الحضر أو اليابان أو مدينة ميسورى يقوم بتجربة المفاهيم والأفكار التى كونها أثناء دراسته للمجتمعات البدائية المنعزلة وقد ساعده ذلك المفهوم فى دراسته لمجتمع الاندمان ، وربما سيساعده أيضا على فهم مجتمع بورتوريكو أو اليابان ، اذا يوضح له ذلك المفهوم الفرق بين المجتمع البدائى المنعزل والمجتمع الجديد الذى يقوم بدراسته. وبذلك يمكنه التعرف على مفاهيم جديدة وطرق جديدة فى العمل والدراسة وقد أبرزت مرجريت ميد (أ)Margaret Meadفى دراسة الدول القومية الحديثة عن طريق التركيز على الشخصية الجماعية لشعوب هذه الدول. فهى تقوم بدراسة الشخصية القومية لدولة تبعد عنها بمسافة كبيرة كما فعلت فى حالة روسيا . وتختلف هذه الطريقة اختلافا كبيرا عن تلك التى اتبعت فى دراسة سكان جزر التروبرياند والاندمان ومع ذلك تجدها تنص على « أهمية استخدام المجتمع البدائى الصغير كنموذج تصورى » عند تقييمها لما ساهم به علم الأنثروبولوجيا فى دراسة الثقافات المعاصرة وهكذا فان المجتمع المنعزل المغلق لا يزال تلك الصورة المجردة التى نشأت حولها الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

وقد حاولت فيما نشرته من قبل (٢٣) أن أقدم وصفا لذلك النموذج التصورى للمجتمع البدائى الصغير الذى تستخدمه مرجريت ميد فى دراسة أشياء تختلف عنه تماما الا وهى الشخصيات الجماعية للدولة القومية الحديثة . وقد حاولت أن أوضح الصفات العامة والمجردة لذلك المجتمع أو تلك الثقافة التى يمكن أن يتصور المرء أنها أكثر انعزالا وأكثر اكتفاء من جماعة الاندمان نفسها . وبمجرد أن تم نشر ذلك الوصف قام الدارسون للمجتمعات الحقيقية التى تكون أجزاء من حضارات أو دول قومية بمقارنة

(أ) مرجريت ميد (من مواليد ١٩٠١) عالمة انثربولوجيا أمريكية معاصرة شهيرة . وقد تخصصت ميد فى الدراسات المتعلقة بالثقافة والشخصية ، أو الطابع القومى ، أو الشخصية القومية ، انظر

Margaret Mead, " National Character " , in Anthropology Today, ed. by A.L. Kroeber, University of Chicago Press, Chicago, 1953 p. 653 ff .

ذلك النموذج بالمجتمعات القـروية التى يقومون بدراســتها • وبطبيعة الحال ، كانت الاختلافات والفروق هى التى استرعت انتباههم • فلم تكن القرية المكسيكية أو البرازيلية تشبه فى كثير من الاحوال ذلك النمــوذج المجرد • وأود أن أذكر هنا أن الفكرة المجردة لا يمكن أن تكون خاطئة لانها تقوم على نموذج تصورى كما تقول مرجريت ميد فهى لا تصف أى مجتمع حقيقى معين ، بل توضح طريقة دراسة ذلك المجتمع الذى تســتخدم من أجله ، وقد تخلق نماذج أخرى • أخرى وليس من المهم أن يقول المرء أنه يتحتم تغيير مفهوم المجتمع الشعبى (أ) Folk Society وأن المجتمع القروى الذى يقوم المرء بدراسته يختلف فى نواح كثيرة عن ذلك النمــوذج فذلك شيء لا يهم فى كثير أو قليل • فالمهم هو عقول الأنثروبولوجيين تتجه الى دراسة المجتمعات التى تختلف عن النموذج البدائى ، لأن هذه المجتمعات تقتصر على المدن ، ولأنه توجد بها أنظمة قومية ، ولأن رجل المدينــة والشخص القروى يقطنان نفس المجتمع مع اختلاف طــرق حياتهما الى حد ما •

والواقع أن الأنثروبولوجيين قد بدأوا ينظرون الى المجتمعـــات الصغيرة على أنها أجزاء كليات ثقافية واجتماعية أكبر وأكثر تعقيدا • وقد تطور ذلك الاهتمام بالمجتمعات الأكبر والأكثر تعقيدا أثناء دراسة أجزاء أخرى من العالم غير القارة الاوربية ، حيث نشأت المجتمعـات القبلية بعيدا عن حضارات تلك القارة ، وتكونت منها دول قومية • وقد أدرك اثنان من العلماء البارزين الذين قاموا بدراسة الحضارة القديمة فى أواسط أمريكا حقيقة ذلك التطور ، وذلك قبلى مجيء الأســبان وسكان المدن والريف بين هنود تلك القارة • وقد قال كيركهوف (٢٤) Kirckhoff أن « الصفة الأساسية لأمريكا الوسطى هى أنها كانت مجتمعا طبقيا مثل مجتمعنا ومجتمع الصين يرتكزا أساسا على محــور المدينة والريف » • ويرى أرميلاس Armillas انفصالا بين الأرستقراطية المتحذلقة فى المدن والشعوب القــروية البدائيــة فى مجتمــع مايا القيم (٢٥) • وبطبيعة الحال لا يمكننا ملاحظة بداية هذا التطور عند الهنود القدماء أو حتى ملاحظة أوجه الصلة والاختــلاف بين المدينــة

(أ) راجع المقدمة التحليلية للترجمة العربية •

والقرية . وتقوم الدراسة الحديثة للشعوب القديمة فى جنوب ووسط أمريكا بتقسيم هذه الشعوب الى مجموعات طبقا لنطاق ومدى تعقيد تطورها السياسي وتتميز بينها القبائل المتجانسة والقبائل الجزئية والولايات الاقطاعية والمدن وكذا الامبراطوريات والحكومات الدينية التى كانت تخضع لحكم رجال الدين (٢٦) .

وسرعان ما وجد دارسو المجتمعات الأفريقية موضوعهم يتعدى حدود المجتمع البدائى المنعزل (أ) وتختلف التطورات التى تبعد عن ذلك المجتمع المنعزل الصغير فى الدراسات الافريقية ، فيمدنا وسط أفريقيا بكثير من الأمثلة لهذه القبائل الكبيرة المتفرقة (٢٧) . وقبيلة التيف Tiv فى وسط نيجيريا تنهض مثلا على ذلك ، حيث يعيش شعب يبلغ تعداده حوالى المليون متفرقين فى جميع أنحاء اقليم واحد ، بينما يدركون أنهم شعب واحد تربط بينهم صلات القرابة ، وفى مثل هذا المجتمع الكبير والمتجانس يستطيع الأنثروبولوجى أن يطبق منهجه فى الملاحظة المباشرة ، لأن « وحدة الملاحظة الشخصية » (٢٨) قد تمثل افتراضا القبيلة الكبيرة . ويستطيع الباحث أن يقوم بدراسة عدد قليل من الاشخاص فقط ولكنه فى هذه الحالة يقوم بدراسة شبكة من العلاقات المعقدة تقتصر على مليون شخص من قبيلة التيف . وتربط هذه العلاقات الافراد والجماعات الأسرية ببعضها البعض ، اذ لا يتكون كل المجتمع من حاكم ومحكوم أو من سكان مدينة وقرويين ولكنه يتكون من أقرباء وجيران (٢٩) . وعندما يعيش الأفراد فى مستوطنات أو قرى مختلفة كما هو الحال بين أفراد قبيلة النوير فى السودان ، فان تلك الشبكة من العلاقات (ب) - علاقات القرابة والصداقة أو العداء فى فى حالة الصلات البعيدة - يمكن أن نتصور أنها تتركز أساسا فى تكوين المجتمعات الصغيرة (٣٠) .

(أ) راجع المقدمة التحليلية للترجمة العربية ، وكذلك انظر - فاروق العادلى ، الاتجاهات المعاصرة فى الانثربولوجية الاجتماعية ، الذى سبقت الاشارة اليه .

(ب) راجع تعريف راد كليف براون لمفهوم البناء الاجتماعى السابق الاشارة اليه وكذلك انظر - أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الاول (المفهومات) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

وعلى النقيض من ذلك نجد دول أفريقيا البدائية حيث توجد قوى سياسية مركزية تؤثر فى الافراد من مراكز السلطة خارج المجتمع الصغير. وقد أمدت قبيلة اللوزى Lovedu فى أفريقيا الوسطى جلوكمان (ج) Gluckman بأمثلة عن المجتمعات الصغيرة التى يمكن وصفها ليس فقط من وجهة العلاقات بين الأشخاص داخل هذه المجتمعات الصغيرة ، ولكن أيضا من وجهة نظر العلاقات بين هؤلاء القرويين وكثير من مراكز السلطة التى تقع خارج هذه المجتمعات الصغيرة . وعلى هذا وجد جلوكمان نفسه مسئولا عن دراسة الدولة بأكملها عندما قام بدراسة الجماعات المحلية الصغيرة بالطريقة التقليدية فى الأنثروبولوجيا . فقد وجد شعوبا تنتمى الى مجتمعات محلية مختلفة تربط بينهم وحدة معينة تماما مثل الأشخاص فى مجتمعات محلية فى الأمم الحديثة ، اذ يوجد بينهم تفاعل واحد مع مراكز السلطة والنفوذ الكبير (٣١) .

وفى الواقع فان المجتمعات الافريقية قد أبعدت الأنثروبولوجى عن المجتمع البدائى المغلق فى نواح كثيرة جدا بحيث لا يمكن ذكرها هنا مثل الاسواق الكبيرة ونظم الانتاج والتوزيع التى تشمل آلاف الأشخاص الذين ينتمون الى أصول ثقافية مختلفة . ويبدو أنه لم يقم أى من الأنثروبولوجيين بدراسة نظم الأسواق فى مثل هذه المجتمعات بطريقة كاملة . وهناك أيضا المجتمعات الفرعية التى تتكون من شعوب متميزة داخل الدولة الأفريقية الواحدة . فبين قبيلة اللوزى وكذلك بين قبيلة اللوفيدز فى رودسيا (٣٢) يجد الأنثروبولوجى نفسه أمام مجموعة من الجماعات الثقافية المتميزة التى يربط بينها تنظيم سياسي واحد . وقد ترتبط أجزاء القبائل نتيجة لولائها لحاكم دينى . وفى غرب أفريقيا سار تطور الدول القومية جنبا الى جنب مع نمو البلاد والمدن بشكل كبير بحيث نجد هيرسكوفيتسي (أ) Herskovits يوضح التناقض الذى رآه

(ج) يشغل ماكس جلوكمان منصب استاذ كرسي الانثروبولوجيا الاجتماعية جامعة مانشستر بانجلترا . وهو من أوائل الانثروبولوجيين الاجتماعيين المعاصرين الذين اهتموا بدراسات التغيير الاجتماعى فى أفريقيا ، وبصفة خاصة الاثار المترتبة على ظواهر الهجرة والتحضر والتصنيع ، انظر بصفة خاصة :

" Max Gluckman, Anthropological Problems arising from the African Industrial Revolution ", in Social Change in Modern Africa, ed. by A. Southall Oxford university Press, London, 1961, P. 80 ff .

(أ) ميلفيل هيرسكوفيتس (١٨٨٥ — ١٩٦٣) عالم انثروبولوجيا أمريكى شهير . استمر بدراساته عن الزنوج فى أفريقيا والعالم الجديد والاقتصاد البدائى.

فى داهومى بين سكان المدينة وسكان الريف . فقد وجد أن سكان مدينة ابومى Abomey يعاملون القرويين بعجرفة وتكبر . فبينما « يبدى القرويون كل ردود الفعل التى يتسم بها الفلاحون فى أوربا نحو سكان المدينة ، نرى فلاحى مدينة أبومى ينزعون الى الشك والمراوغة وعدم الاستجابة » (٣٣) وباختصار ، استطاعت دول غرب أفريقيا أن تكون حضارة ونظم قروية خاصة بها . أما فى السنوات الأخيرة ، فقد ظهر عدد كبير من النظم التى جاءت نتيجة لتأثير الحياة الأوربية ، بالاضافة الى الحضارة الأصلية لهذه البلاد . ولهذا يجب على الأنثروبولوجيين الذين سيعملون فى أفريقيا مستقبلا أن يقوموا بدراسة هذه النظم القبلية الجديدة مثل المدارس السياسية التى تمثل قطاعا كبيرا من الناس ، وكذا الجمعات التعاونية وهيئات التسويق الأخرى وجمعيات مساعدة المهاجرين الى البلاد والمدن ، والجمعيات التعاونية والحرفية والكنائس والأندية الاجتماعية وكذلك الأحزاب السياسية . ذلك لأن أفريقيا تشهد الآن تحولا كبيرا نحو المجتمعات الكبيرة المعقدة ، وهى الخطوة الأولى على طريق الدول القومية التى ستظهر مستقبلا (٣٤) .

وقد قام الأنثروبولوجيون الامريكيون بدراسة الدول القومية وشعوب الحضر بطرق عديدة . فهناك الذين درسوا البلاد والمدن الأمريكية الحديثة مثل وورفر ومساعديه والذين قاموا بدراسة الشخصية القومية أو الشخصية الجماعية التى ذكرناها من قبل . وينتقل هؤلاء الدارسون بخطى سريعة من المجتمعات البدائية المنعزلة الى المجتمعات والثقافات المعقدة وغير المتجانسة . كما أن هناك الأنثروبولوجيون الذين يدرسون المجتمعات الصغيرة فى آسيا والشرق الأوسط وأوربا وأمريكا اللاتينية . وعن طريق هذه الدراسات تتناول الأنثروبولوجيا موضوع هذه الفصول وهو المجتمعات والثقافات القروية .

والى عهد قريب كانت المجتمعات القروية من الموضوعات التى تهتم بها علوم أخرى غير الأنثروبولوجيا . فقد استرعت المجتمعات القروية فى أوروبا وآسيا انتباه رجال الاقتصاد والاجتماع والمؤرخين الذين كانوا يهتمون بأصول النظم القروية لا سيما النظم الزراعية (٣٥). وقد تركز اهتمام هؤلاء الدارسين حول العلاقات بين الفلاحين وأشكال الملكية الزراعية المختلفة وخاصة الاقطاع . وهكذا كان هناك اختلاف بين

دراســـة الفولكلور أو التراث الشـــعبى (أ) Folklore والحيـــاة الشعبية (ب) Folklife

(الحياة القروية (أ) أو بين دراسة الأنثروبولوجى أو الاثنولوجى للحياة البدائية . (الفولكســكنده Volkskunde فى مقـــابل الـــ Volkerkunde (ب) . فلم يقم دارس الحياة القروية باجراء دراسات كلية للمجتمع بأكمله ، ولكنه قام بجمع العادات والحرف التى برع فيها السكان ، وقام بوضع الخرائط التى توضح طريقة توزيعها . وقد كانت المشاكل كلها تاريخية ، واستلزمت طرق البحث استخدام قوائم العناصر والجداول والاستبيانات ، ومقارنة أجزاء الثقافات وليس الثقـــافات أو المجتمعات ذاتها ككل متكامل ولم يتقيد دارسي الحياة القروية « باستخدام المجتمع البدائى كنموذج تصورى » . ومن ناحية أخرى ، لم يهتم أساتذة الأنثروبولوجيا وكذا أساتذة الانثولوجيا فى فرنسا والمانيا وبريطانيـــا العظمى بدراسة القرى الريفية فى بلادهم أو فى البلاد الأخرى . ومنـــذ عهد قريب اتجه الأنثروبولوجيون البريطانيون مثـــلا نحو دراســـــات المجتمعات الريفية فى انجلترا أو فى ويلز ، وبدأوا يوفدون تلاميذهم الى النرويج أو الى المناطق الريفية فى غانا البريطانية .

(أ) الفولكلور هو التراث الروحى للشعب وخاصة التراث الشفاهى . وهو كذلك العلم الذى يدرس هذا التراث . للوقوف على تفصيلات التعريفات الخاصة بالفولكلور انظر ـ قاموس الانثولوجيا ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٩ .

(ب) تعنى الحياة الشعبية حياة الشعب وأساليبه كموضوع للبحث العلمى . ولقد أصبحت دراسة الحياة الشعبية (حياة الفرد لا حياة المجتمع) كجزء من علم الانثولوجيا معترفا بها اليوم كأحد الاهداف الرئيسية فى البحث الوطيفى . أنظر ـ قاموس الانثولوجيا ، ص ١٨٧ .

(أ) لا يرى رودفيلد ان هناك ثمة فرق بين الحياة الشعبية والحياة القروية: ولا يرى ان هناك فرق بين مفهوم المجتمع الشعبى والمجتمع القـــروى ، ولذلك يستخدمها بالتناوب فالمجتمع القروى يعد شكلا من اشكال المجتمع الشعبى . راجع ما سبق ان ذكرناه بهذا الخصوص فى المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

(ب) انفولكسكنده هى الانثولوجيا الاوربية الاقليمية (الالمانية أساسا) والفولكلور تدرس فى البلاد الناطقة بالالمانية وتعنى بدراسة الحياة الشعبية اما الـ Volkerkunde (فهى الانثولوجيا العامة أو الاثنوجرافيا التى تدرس الشعوب البدائية خارج أوربا) ، على الرغم من أن كلا العلمين يمكن ان يضما تحت عنوان واحد هو « الانثولوجيا » . انظر ـ قاموس الانثولوجيا ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٥ . قارن أيضا ـ د. دورسون ، نظريات الفولكلور المعاصرة ، ترجمة وتقديم محمد الجوهرى وحسن الشامى ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ ، ص ١٢ ـ ١٥ .

وعندما انتقل الأنثروبولوجيون الأمريكيون من دراسة المجتمعات القديمة فى شمال أمريكا الى دراسة الحياة القروية المعاصرة فى جنوب ووسط أمريكا اهتم عدد كبير منهم بدراسة أوضاع الفلاحين • وقد أدى ذلك الانتقال الى حدوث تحول لم يدركه هؤلاء العلماء تماما فى طريقة ترتيب المجتمعات التى يقومون بدراستها فى عقولهم • وكما أوضحنا من قبل ، فانه عندما رسخت فكرة « الثقافة » أعتبر العلماء كل الثقافات التى قاموا بدراستها فى ذلك الوقت سواء البدائية منها أو المنعزلة ككائنات منفصلة ومتعادلة تطرح على منضدة البحث لمقارنتها • وبذلك شكلت قبائل كاليفورنيا أو قبائل السهول مجموعة متزايدة من الأجناس المسجلة للبحث التى تكون الجزء الخاص بأمريكا الشمالية من التاريخ الطبيعى للجنس البشرى • وقد أدت مشاكل الانتشار وكذا المشاكل التى تنشأ من اقتراض عناصر الثقافة من قبيلة الى أخرى الى تعقيد هذا الأساس فى المقارنة • وقد كانت المقارنات الأولى تعتمد على المقارنة المباشرة لمجتمعات لم تتأثر بالمدن والحضارة وعندما اهتم الأنثروبولوجيون الأمريكيون بهنود أمريكا الشمالية أساسا تجاهلوا العلاقات التى تربط بين هذه القبائل والمدة والحضارات الحديثة ، الى أن أصبح ذلك موضوعا جديدا للدراسة تحت عنوان « التثقف من الخارج » (أ) أو التغييرات التى طرأت على الحياة البدائية الفطرية نتيجة للتاثيرات التى جاءت اليها من عالم الرجل الأبيض •

ولكن عندما أتى العلماء من سكان أمريكا الشمالية الى أمريكا اللاتينية للقيام بالأبحاث الميدانية ، وجدوا أن ترتيب المجتمعات جنبا الى جنب كعينات أو كنماذج متعادلة منفصلة لم يكن كافيا ولذلك كونوا بسرعة طريقة مختلفة فى ترتيب مادتهم العلمية • ففى أمريكا اللاتينية أثرت طريقة حياة الهنود وحياة الاسبان والبرتغاليين فى بعضهم البعض لمدة طويلة ، وسرعان ما وجد الأنثروبولوجيون أن هناك شيئا يختلف عن القبائل أو أجزاء القبائل القديمة فى شمال أمريكا • فقد وجدوا فى أمريكا اللاتينية نواعا كثيرة من الشعوب التى تربط بينها وبين حياة المدينة أنواع ودرجات كثيرة من العلاقات ، فحملوا مسئوليتهم الجديدة يعتريهم احساس بالغضب ، كما لو كان نموذجهم التصورى المجرد قد

(أ) راجع حاشية رقم (ج) ، ص ٦٦ : ٦٧ •

خانهم . وبدأوا فى تكوين طريقة مختلفة فى ترتيب مادتهم العلمية التى تطلبتها دراسة أمريكا اللاتينية .

وتهتم الدراسات التى تدور حول الحياة فى أمريكا اللاتينية بطرق التجارة مع المدن وبمشاركة القرويين فى الأنظمة القومية ، وبأوجه الخلاف بين سكان الريف وسكان المدن وطبقة النبلاء . ويتم الآن تصنيف الثقافات والمجتمعات فى أمريكا اللاتينية طبقا « لمكانتها » فى ثقافة وحضارة الدولة باكملها التى هى أحد مكوناتها ، وليس طبقا لمناطق حضارتها القديمة . وبطبيعة الحال لا يمكن تجاهل الاختلافات الاقليمية ، ولكن الاختلافات بين البرازيل والمكسيك لا تحجب أوجه الشبه بين بعض المجتمعات الريفية فى البرازيل ومثيلاتها فى المكسيك .

وهناك تصنيف حديث (٣٦) يرى وجود الهنود البدائيين والهنود الحديثين وأنواع الثقافات القروية والحضارات . ونجد فى هذا التصنيف المزارعين القرويين فى البرازيل وبيرو وهايتى والمكسيك وبورتوريكو فى طبقة واحدة ومن ناحية الثقافة نجد اختلافات كثيرة بين تلك الشعوب التى تنتمى الى طبقة واحدة . ولم تكن هذه الشعوب لتوضع فى طبقة واحدة اذا ما استخدم ترتيب الثقافات الذى نشأ عنه دراسة هنود السهول أو هنود جنوب غرب أمريكا وقد وضعهم واجلى Wagley وهاريس Harris فى طبقة واحدة كشعوب قروية » اذ تسود فى ثقافاتهم بعض الأنماط الاوربية القديمة ، ولأنهم شعوب قروية تعتبر نفسها رغم ذلك جزءا من الحياة القروية العامة . وهكذا استطاع الدارسون أن يميزوا بينهم كنوع ليس لهم مكان محدد فى (أمريكا) ، وكنوع يتسم بوجود كثير من الاختلافات الثقافية بين أفراده وبين هنود العصر الحديث الذين يكونون طبقة مختلفة ، ولكنها طبقة مجاورة من الناحية المنطقية وهى شعوب تتميز بأن العناصر السائدة فى ثقافتها ترجع الى أصل هندى ، ولكنها لا تعتبر نفسها جزءا من الحياة القومية العامة . ويعتبر ذلك التصنيف تصنيفا من القاع الى القمة ، لأنه يقوم بترتيب المجتمعات من أكثرها انعزالا الى أكثرها تحضرا . ويتطلب هذا من الأنثروبولوجى أن يقوم بدراسة المجتمع المحلى كجزء من مجمع أكبر ، كما يحتم عليه أن يتعرف على أنواع من العلاقات الثقافية والاجتماعية لم تهيئها له تجربته الأولى تماما مثل العلاقات بين الأفراد

الذين نالوا حظا كبيرا من التعليم وبين هؤلاء الذين نولوا حظـا أقل والعلاقات بين رجل المدينة ورجل الريف . وكذا العلاقات بين النظام القومى العام والنظام المحلى التقليدى .

وفى عام ١٩٢٩ لاحظت أن أحد هذه المجتمعات الريفية فى أمريكا اللاتينية يمثل نوعا من المجتمعات التى تأتى فى « منتصف الطريق بين مجتمع القبيلة ومجتمع المدينة الحديثة » (٣٧) مثل المجتمعات القروية فى أوربا . وقد فكرت فى امكانية توضح الصفات التى تتميز بها الحياة القروية عندما نشر هوريس مينر Horace Miner دراسة لاحـدى الأبرشيات فى كندا عندما كانت تحت الحكم الفرنسي (٤٨) ومنذ ذلك الوقت أدرك الأنثربولوجيون الذين يدرسـون أمريكا اللاتينيـة . أن المجتمع الصغير فى أمريكا اللاتينية يجب أن يفهم على نه جـزء من الدولة والحضارة التى ينتمى اليها (أ) . ولذلك نجد جيلين (ب) Gillin يقوم بدراسة تحول الثقافة الهندية الى ثقافة كريولية التى تمثـل أحد أبعاد الحياة الدينية المتحضرة (٣٩) ويقوم بيلز (ج) بدراسة التصنيع والتحضر كأحد أشكال التثقف من الخارج (٤٠) ويحدد فوسـتر (د) Foster طبيعة المجتمع المتوسط فى أمريكا اللاتينية (٤١) كمـا يشن ستيوارد (هـ) Steward هجوما على الدول القوميـة ، ويمدنا

(أ) راجع المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

(ب) جون جيلين (من مواليد ١٩٠٧) عالم انتروبولوجيا ثقافية أمريكى . ابن عالم الاجتماع الامريكى الشهير جون لويس جيلين . درس بجامعات وبسكونس، وهارفارد ، وبرلين ، ولندن ، وشارك فى اثنين من مؤلفات والده فى علم الاجتماع وقد قام بدراسات ميدانية واسـعة قادته الى الجـزائر ، وبعض بلاد أوربا ، ونيوسكسيكو ، وجيانا البريطانية ، واكوادور ، وشرقى بيروت ، وجواتيمالا . وهو يعمل منذ عام ١٩٤٦ استاذا باحثا بجامعة نورث كارولينا . أبرز اسهاماته تلك التى الفها فى ميدان الطب النفسي Ethnopsychology كما اخرج عـديدا من الدراسات وتقارير البحوث . انظر قاموس الانثولوجيا . ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(ج) راجع التعريف برالف بيلز ، وكذلك مصطلح التثقف من الخـارج : ودراسات التصنيع والتحضر المذكورة آنفا .

(د) جورج فوستر (من مواليد ١٩١٣) انثروبولوجى أمريكى ، تخصص فى دراسة الجماعات الاسـبانية فى أمريكا الشـمالية ، وديناميات الثقـافة ، والانثروبولوجيا التطبيقية انظر قاموس الاثنولوجيا ، ص ٣٨٧ .

(هـ) جوليان ستيوارد (من مواليد ١٩٠٢) انثروبولوجى أمريكى . تخصص اثنولوجية الولايات المتحدة ، ودراسة التغير الثقافى . انظر – قاموس الاثنولوجيا ، ص ٤١٥ .

بمفاهيم وطرق جديدة لوصف مجتمعات بورتوريكو كثقافات ومجتمعات محلية وكنظم قومية فى نفس الوقت (٤٢) كما يقوم اريك وولف (٤٣) Eric Wolf وتشارلز واجـــلى Charles Wagley ومــارفن هاريس Marvin Harris بدراسة أنواع الثقافات فى أمريكا اللاتينيــة بشيء من التفصيل أو بدراسة الطبقات القروية التى تتفرغ من هذه الثقافات . وهكذا نجد أنه فى أمريكا اللاتينية انتقل علم الأنثروبولوجيا من دراسة القبيلة الى دراسة الحياة القروية .

كما يقوم الأنثروبولوجيون بدراسة القرويين فى الصـــين وفى الشرق الاوسط وكذلك يقومون بدراسة فلاحى الهند خاصة فى السنوات الأخيرة . وفى كل هذه الحالات يرى الباحث مجتمعا صـــغيرا وليس مجتمعا كاملا فى حد ذاته ، بل مجتمعا تربط بينه وبين الشعوب القبلة البدائية من ناحية وبين البلاد والمدن من ناحية أخرى علاقة جوار وعلاقة صعود ونزول . وفى بعض الأماكن نجد أن هذه العلاقة الثنائية منطقية وحقيقية فى نفس الوقت . فمثلا يرتبط الفلاح فى بعض أجزاء أمريكا اللاتينية بعلاقات حقيقية مع أهل المدن من ناحية وبين بعض الشعوب البدائية التى لم تصبح شعوبا قوية تماما من ناحية أخرى . وفى كل حالة يمكن التعرف على تلك العلاقة المنطقية وذلك التوسط فى علاقة الصعود والنزول التى تميز القرويين . ويستطيع الأنثروبولوجى أن يتعرف عليها أحيانا . وتتسم المجتمعات والثقافات القروية بأنها تنحدر من أصل معين ، فهى نوع من الترتيب الذى يشمل البشر الذين يتشابهون فى بعض النواحى فى جميع أنحاء العالم . وسنهتم بهذه الجوانب من التشابه فى الفصول الباقية . كما سنحاول أن نرى بعض جوانب الثقافة والمجتمع التى تبرز عندما يوسع الأنثروبولوجى أفكاره فى محاولة لذكر بعض صفات الفلاح بأمانة .

وعندما أعرض مثل هذه التأكيدات الأخيرة ، فانى أقدم تعريفــا للمجتمع القروى كشكل معين . فما هى تلك الطبقة التى يجب أن نأخذها فى اعتبارنا عندما نتحدث عن القروى ؟ . ستكون بدون شك طبقة أو خطا غير محدد تماما مجرد بؤرة اهتمام وليس تعريفا قاطعــا لأننى لا أعتقد أنه يمكن التوصل بشكل حتمى للمجتمع القروى من خـــلال الحقائق ، ويسلم الجميع بصعوبة التوصل الى ذلك التعريف (٤٥) لأن

الفلاحين كنوع من أنواع البشر يصعب تمييزهم مثلما تميز بين الطيور والثدييات أو بين المواد الغروية والمواد المتبلورة • فهنـــاك أكثر من تعريف يمكن الدفاع عنه ، وكل تعريف يركز الاهتمام عن بعض الصفات التي يرى المعرف أنها صفات هامة • واذا اخترنا أى تعريف منها سنجد أن هناك مجتمعات أخرى تشبه المجتمعـــات التى جمع بينهـــا ذلك التعريف وليست مثلها تماما ولهذا يمكننا أن نتصور أن المجتمعـــات والثقافات التى نهتم بها تنتشر فوق حقل خيالى من المجتمعات الحقيقية التى تشبه أو تختلف عن بعضها البعض فى نواحى كثيرة مختلفة • وقد يختار القارىء مجموعة من المجتمعات الحقيقيـة المتجـــاورة فى ذلك الحقل ، وقد أختار أنا مجموعة أخرى •

وقد يوجه المرء انتباهه أولا الى نظم الانتاج والى الاقتصـاديات فى هذه المجتمعات الصغيرة التى تنتشر فوق ذلك الحقل الخيـالى أو التصورى • وقد يستخدم المرء كما يفعـــل العـالم فيرث (أ) Firth كلمة قروى ليصف أى مجتمع من صغار المنتجين الذين يقومون بانتاج ما يحتاجون اليه فى استهلاكهم • واذا بدأ الأمر بهذه الطريقة فسيجد أمامه مجموعة كبيرة جدا من المجتمعات التى تشمل الشعوب القبلية مثل هوبى Hopi وفى الواقع فان مثل هذا الاختيار سيسمح لنـــا أن نطلق كلمة الفلاحين على صيادى السمك فى سواحل الملايو كذلك على هنود سيوكس Sioux من الصيادين ومن الذين يعيشون على الالتقاط• وقد يجد المرء بعض أو جه التشابه الهامة أو على حد قول فيرث (٤٨) « بعض أشكال الحياة المميزة » بين هذه المجتمعات والثقافات الكثيرة التى تقع فى هذه الفئة الشاملة •

(أ) ريموند فيرث (من مواليد ١٩٠١) عالم انثروبولوجيا انجليزى شهير • قام بتدريس الانثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة سيدنى باستراليا ثم بجامعة لنـــدن ابتداء من عام ١٩٣٣ حتى احالته الى المعاش عام ١٩٦٨ وقد ترك مؤلفات عدة نذكر منهـــا :

١ ـ الاقتصاد البدائى عند شعب الماورى فى نيوزيلنده ١٩٢١ واعيد طبعه عام١٩٥٩
٢ ـ الانماط البشرية ، ١٩٣٦ •
٣ ـ عناصر التنظيم الاجتماعى ، ١٩٥١ •
٤ ـ صيادو الملايو ، اقتصادهم الريفى ، ١٩٤٦ •
٥ ـ النيكوبيا : دراسة سوسيولوجية للقرابة فى موليتزيا البدائية ، ١٩٣٦ • واعيد طبعه عام ١٩٥٧ • وقد ضمن نتائج دراسته للنيكوبيا عدة كتب أخرى عدا هذا الكتاب لا يسمح المجال لخصرها هنا ، انظـــر ـ قاموس الانثولوجيـــا ، ص ١٨٦ ، ٣٨٧ •

ومع ذلك لن أتناول الصيادين وصيادى السمك والرعاة فى هذه المحاضرات ويوجد بعض أوجه التشابه بين الشعوب الرعوية التى ترتبط بعلاقات طويلة المدى مع سكان المدن كما هو الحال فى بعض أجـــزاء الشرق الاوسط فى أفغانستان وبين الفلاحين الزراعيين . ولهـــذا قد يساعدنا ادماجهم فى سلسلة من المقارنات على فهم ما قد تؤدى اليـــه العلاقة بين المدينة والقرية أكثر مما تؤدى اليه العلاقة بين الفـــلاح الزراعى وأرضه . ولكن لا يمكن أن يفعل المرء كل شىء مرة واحـدة . سنطرح هذه الشعوب الرعوية جانبا ، ولنلق نظرة على هذه الشعوب التى تتخذ من زراعة الأرض وسيلة للعيش وطريقة فى الحياة .

ويخطر لى الآن أن هذه الشعوب يجب أن توضع ضمن مجموعة المجتمعات التى سوف أطلق عليها اسم المجتمعات القروية والتى تشترك فى شىء واحد على الأقل ، اذ أنها تتخذ من الزراعة وسيلة لكسب العيش وطريقة الحياة وليس مصدرا للربح أما الذين يتخذون الزراعة كوسيلة للاستثمار والربح ويعتبرون الأرض سلعة أو رأسمال ، فيمكن القول بأنهم مزارعون وليسوا فلاحين . واتبع فى ذلك رأى اريك وولف فى أحـد أبحاثه الحديثة .

ومن هذه النقطة نرى أن الفلاح هو ذلك الرجل الذى يســيطر بطريقة فعالة على قطعة من الأرض الزراعية يرتبط بها منذ وقت طويل بروابط العاطفة والتقاليد . ويكونان هو والأرض ـ جزءا من شىء واحد أو مجموعة واحدة من العلاقات الراسخة منذ وقت طويل . ولا يستلزم ذلك أن يكون الفلاح مالكا للأرض أو أنه يتمتع بأى شكل من أشـــكال الولاية عليها أو تربط بينه وبين رجل المدينة أو السادة أى نوع من أنماط العلاقات الجارية بين النظم الاجتماعية (١) . كما أريد أن أذكر الاهتمام على فلاح كوانجتونج Kwangtung والفلاح البلغـــارى اللذان يقومان ببيع منتجاتهما الى أسواق المدينة مباشرة . وتستبعد فكرتنا هذه عـــن

---

(١) يعرف قاموس وينيك Winick النظام Institution بأنه « مجموعة مترابطة من التقاليد الاجتماعية usages على جانب كبير من الثبات . وهو عبارة عن نمط سلوكى متكامل ومركب ومستمر الى حد معقول ـ يتم من خلاله ممارسة الضبط الاجتماعى Social control ويمكن عن طريقه اشباع الرغبات أو الحاجات الاجتماعية الاساسية » .

انظـر C. Winicx, op. cit,

القرويين فى مفهومى هذا أسياد الارض . فقد يتكون المجتمع القروى كلية أو فى بعض جوانبه من المستأجرين أو حتى من الذين يمتلكون الارض بوضع اليد اذا كانوا يتمتعون بسيطرة عليها بشكل يسمح لهم بأن يتخذوا من الزراعة طريقة عامة وتقليدية فى الحياة وليس كعمل أو استثمار من أجل الربح .

وبطبيعة الحال يمكننا أن نبدأ دراستنا للفلاحين بذلك الارتباط التاريخى بين فلاحى أوربا وتلك المجموعة المعقدة من النظم التى تعرف باسم الاقطاع . واذا بدأ المرء بالاقطاع فانه لا يقوم بتعريف القروى أولا ، وانما يقوم بتعريف ذلك النظام الاجتماعى والسياسي والاقتصادى الذى يعتبر الفلاحين أحد أجزائه فقط . وقد قام شجوبرج Sjoberg بوضع وصف تفصيلى للمجتمع الاقطاعى من وجهة نظر علم الاجتماع . وتوجد فى مثل هذا النوع من المجتمعات « أقلية صغيرة (نخبة) تستغل عددا كبيرا من الاشخاص التابعين الذين يتقبلون دورهم بطريقة سلبية . وتتميز الطبقة العليا « باحتكارها » للقوة والسلطة ، كما تتميز بمجموعات القرابة الصحيحة والانجازات التى يقدرها الجميع حق قدرها » . ويشير شجوبرج الى حقيقة هامة فى رأيى أيضا وهى أن تلك الأقلية تشمل أيضا المثقفين « وهم حملة التراث القديم المكتوب الذى يستمد منه النسق الاجتماعى تبريرا عقليا متقنا لضمان وجوده واستمرار بقائه » ٥١ . ومن ناحيتى أيضا فاننى أعتبر ذلك التوجيه للفلاح عن طريق قوة عليا سواء فى المجال الأخلاقى أو فى المزرعة أو المدينة جانبا من جوانب الحياة القروية يستحق شيئا من البحث والدراسة .

وسأتبع مفهوم وولف عن القرويين كمنتجين زراعيين يتخذون طريقة فى الحياة على تلك الأراضي التى يسيطرون عليها . وسأضيف أيضا ذلك التركيز على العلاقة بين الفلاح والأقلية فى المزرعة أو القرية أو المدينة الذى تستوحيه من عرض شجوبرج كما أريد أن اعتبر القرويين كأحد الأبعاد القروية لحضارات قديمة . ويقول كروبر فى هذا الصدد : ان الفلاحين أناس قرويون بدون شك » ولكنهم يرتبطون فى طريقة حياتهم بالأسواق فى المدن ، ويكونون قطاعا طبقيا داخل شعب أكبر يشتمل عادة على مراكز حضارية وعواصم رئيسية فى بعض الأحيان

ويشكلون مجتمعات جزئية ذات ثقافات جزئية (أ) ٥٢ . ولكننى لا أميل الى أن نقتصر فى مفهومنا هذا عن مجموعة المجتمعات القروية الحقيقية على تلك التى تكون جزءا من المجتمعات الاقطاعية المعروفة لأننى أريد أن نأخذ فى اعتبارنا أيضا الفلاحين فى الهند والصين واليابان والعالم الاسلامى . وقد حضرت ذات مرة مؤتمرا كان يحضره عدد من المؤرخين وعلماء الاجتماع الذين لم يمكنهم التوصل الى اتفاق حاسم حول ما اذا كان نظام الاقطاع كما تعرفه أوربا قد ظهر فى أى من هذه المناطق سواء فى الوقت الحاضر أو فى الماضي ٥٣ . ولهذا فاننى أعتبر أنه ليس من الضرورى أن يكون هناك أى نوع من العلاقات الاقتصادية أو السياسية بين القرويين وسادتهم من صفوة القوم ، ويبدو لى أن علاقات المركز الاجتماعى بين الفلاح الصفوة العليا هى علاقات على جانب كبير من الأهمية ، كما أنها تتشابه فى كثير من أنحاء العالم . وسأحاول أن أذكر شيئا عنها .

وبطبيعة الحال يجب أن نعلم الفرق حينما نقول أن العلاقة بين الفلاحين والسادة هى علاقة اقطاعية ، اذ يتشابه فلاحو انجلترا فى العصر الاقطاعى مع فلاحى انجلترا ٥٤ فى آخر القرن التاسع فى نواح كثيرة . فما هى أوجه الخلاف بينهم باستثناء تلك التى تتعلق بعلاقتهم القانونية والعرفية مع أسيادهم . ولا تزال الحياة القروية تجرى فى دماء أهل الريف فى السويد رغم أنهم لم يشهدوا أى نظام اقطاعى كما قيل لى . والفلاح السويدى فى العصر الحاضر رجل متعلم يشارك فى الحياة القومية ٥٥ .

لقد تحددت الآن مجموعة المجتمعات الحقيقية الصغيرة بطريقة كافية ، وعلينا أن ننظر الآن الى الشعوب القروية التى تنتمى الى الحضارات القديمة ، تلك الشعوب القروية التى تسيطر على الأرض وتقوم بزراعتها كوسيلة لكسب العيش وكجزء من طريقة الحياة التقليدية، وكذلك الذين يتأثرون بالسادة أو سكان المدن ممن يتبعون طريقة فى الحياة تشبه طريقتهم ولكنها أكثر تحضرا . وتوجد على حافة هذه

(أ) راجع المقدمة التحليلية للترجمة العربية بخصوص آراء ردفيلد وكروبر وفوستر حول هذه النقطة .

المجموعة من المجتمعات مجتمعات صغيرة أخرى تشبه فى بعض النواحى المجتمعات التى توجد فى منتصف المجموعة وتختلف عنهـا فى نواح أخرى وقد ذكرنا الشعوب الرعوية وعلاقتها بالمدن ، فمثلا نجد أن رعاة جوديا القديمة Ancientjudea كانت تربطهم بالقدس مثل هذه العلاقة . وفى اتجاه آخر من منتصف المجموعة نجد تلك الشعوب متى تستوطن حول الحدود والذين يحملون منهم جزءا من التقاليد الريفية داخـل منطقة نائية ذات مصادر الثروة المفتوحة .

ويطلق العالمان المان وهيلن سرفيس Elman and Helen Service كلمة « قرويين » على سكان بارجواى الزراعيين ٥٦ . ويعتبر سكان بارجواى من الفلاحين فى علاقتهم مع سكان المدن فى كثير من قيمهـم واتجاهاتهم . ومن ناحية لا يعيشون فى مجتمعات مترابطة توجد بينها مصادر زراعية مغلقة كما هو الحال بين كثير من فلاحى أوربا وآسيا ، حيث يمكن امتلاك الأرض اذ يعيشون فى بلاد متخلفـة حيث يمـكن امتلاك الارض رغم أنها ليست أرضا جيدة بمجرد العمل عليها ، كمـا يعيشون فى مزارع متفرقة وليس فى قرى . وقـد يكون من الضرورى أن نقوم ببحث نتائج تاثير الظروف التى تشبه أوضاع الحدود على حياة سكان بارجواى فى نواحى تختلف عما قد ينطبق على الفلاحـين من سكان القرى الذين يعملون على أرض محدودة . وعلى الجانب الآخر بعيدا عن منتصف المجموعة نجد سكان الحدود الذين يقطنـون أماكن أكثر بعدا مثل قبائل كابوكلو Cabocolo فى البرازيل وسواحل ملفا . وهؤلاء القرويون أكثر انعزالا وفردية وأكثر استقلالا عن المدينـة من الفلاحين الأصليين . ويبدو أنه توجد فى المناطق الريفية فى البرازيل سلسلة من الشعوب تشبه القرويين بعض الشيء كم اتشبه سكان الحدود ٥٧ الى حد ما . ولا يمكن أن نعتبر الرعاة من الهنود الأمريكيين قروين بمعنى الكلمة .

ويقودنا التناقض بين أمريكا اللاتينية من ناحية ، وآسيا وأوربا القديمة من ناحية أخرى الى طريقة أخرى قد يقترب منها السكان اقترابا حثيثا من الصفات القروية ، كما تبـدو فى المنتصـف مجمـوعة من المجتمعات القروية ولكنهم لا يحققونها تحقيقا كاملا . وينقسـم سكان

الريف ــ بوجه عام ــ فى أمريكا اللاتينية الى نوعين : فهم اما فلاحون أوربيون مستوطنون أو شعوب هندية تربط بينهـا وبين النخبـة فى المدينة علاقة غير متطورة تماما وينطبق على فلاحى الحضارات البدائية القديمة ما يسميه كروبر « بالمجتمعات النصفية ذات الثقافات النصفية »٠ وهم يمثلون البعد الريفى لحياة عامة متحضرة ٠ ولكن فلاح بارجواى أو فلاح جواتيمالا أقل ارتباطا بالأرض والموطن من جاره الهندى (فى جواتيمالا) الذى لا يمكن أن نعتبره فلاحا بمعنى الكلمة حيث تختلف تقاليده عن تقاليد رجل المدينة الذى يعيش معه فى مجتمع واحـد ٠ وتوجد فى حالته اختلافات ثقافية هامة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية فى مجتمع جواتيمالا أو مجتمع بيرو ٠ وفى أمريكا اللاتينية نجد تكون الحياة القروية ٠ فسكان تبورزتلان (أ) Tepoztlan ٥٨ يشبهون الفلاحين أكثر من الهنود الذين يقطنون المناطق الجبليـة فى غـرب جواتيمالا ٥٩ ٠

ويظهر فى تاريخ أوربا وآسيا نفس الفرق بين الأشخاص القرويين الذين يمكن أن نعتبرهم فلاحين بمعنى الكلمة ، والأشخاص القرويين الذين تربطهم علاقات ثقافية غير كاملة مع الصفوة من سادتهم ٠ فقـد أصبح سكان لاتيوم Latium الذين تكون منهم شعب روما فيما بعـد فلاحين بشكل أوضح من سكان القرى السورية فى علاقتهم مع المـدن الهيلينية (أ) التى أنشئت بينهم ، وكذلك أوضح من فلاحى بريطانيـا فى علاقاتهم مع الرومان الذين بنو مدنهم فى انجلترا ٠

لقد ابتعدنا كثيرا عن تحقيق المجتمع البدائى المنعزل ٠ ومع ذلك قد يخدمنا كثيرا النموذج التصورى لهذا المجتمع المنعـزل لأنه يتطلب بحث المجتمعات القروية بطرق هامة تختلف عن النموذج الأصـلى ٠ والآن نستطيع النظر الى الشعوب القروية كأحد الأجناس البشرية ٠ فما هى الخصائص المشتركة المميزة لهـم ؟ وما هى جوانب العـلاقات الاجتماعية وجوانب الحياة الأخلاقية التى يجب علينا دراستها ؟ وما هى جوانب الحياة البشرية التى أهملها الأنثروبولوجيون عندما قاموا بدراسة

(أ) راجع المقدمة التحليلية للترجمة العربية ٠

(أ) الهيلينية أى اليونانية القديمة ٠

القبائل والجماعات البدئية (ب) التى سنتجه الى دراستها الآن . وسيثير شغفنا على التأكيد ما يجرى من علاقات بين المجتمع الصغير والمجتمعات المحيطة به ويلاحظ كروبر ٦٠ أن الانثروبولوجيين جروا على دراسة المجتمعات ككليات عضوية متكاملة فى حد ذاتها ، ولكنهم الآن يدرسون المجتمعات كأجزاء من مجتمعات أكبر . فكيف سيتاح لنا التأمل فى المجتمع الصغير ودراسته من حيث هو عضو بين أعضاء أخرى ، ثم دراسة الكائن العضوى الأكبر الذى يعد هذا المجتمع الصغير جزءا منه ؟ . هذه الأسئلة يمكن أن تخطر للمرء عند الحديث عن الثقافة وانسياق الأفكار والأغراض التقليدية . وسيكون لدينا ما نقوله بصدد هذه الاسئلة فى نطاق العلاقات الاجتماعية فى الفصل الثانى ، وفى نطاق الثقافة أو التراث (جـ) فى الفصل الثالث .

(ب) راجع الحصر الجغرافى للمناطق الثقافية والجماعات القبائلية فى نهاية المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

(ج) انظر تعريف التراث فى الفصل الثالث .

الفصل الثانى

المجتمعات القروية : مجتمعات نصفية

ومن خلال دراساتهم للمجتمعات البدائية التى تتمتع باكتفاء ذاتى، أصبح الأنثروبولوجيون ينظرون الى كل مجتمع صغير مكتف بذاته على نه نسق من العناصر التى تربط بينها علاقات معينة ، ولذلك يعتبرون كلا من هذه المجتمعات ككل متكامل يقبل التحليل ، ويمكن النظر اليه بمفرده دون الاشارة الى كل ما هو خارج عنه ، كما يمكن اعتبـــاره مجموعة من الأجزاء التى تتفاعل مع بعضها البعض داخل كل متكامل. فقد وضح راد كليف براون كيفية تفاعل الحياة اليوميـة والأســاطير والطقوس الدينية فى مجتمع جزر الأندمان . كما توصل مالينوفسكى الى صلاح « الاتجاه الوظيفى » نتيجة لنجاحه فى توضيح العـــلاقات الداخلية الكثيرة بين العادات والنظم الاجتماعية والاحتياجات البشرية فى حياة ســـكان جزر التروبرياند (أ) وقد أوضحت روث بندكت فى كتابها « أنماط الثقافية » أربعة آراء بدائية عن الحياة الطبية كأنماط واضحة ومتعادلة أو انساق من نوع آخر تتفق فيها العادات والنظـــم الاجتماعية مع الاختيار الضمنى للقيم الأسياسية فى مجال الامكانيات البشرية .

وقد اعتبر الأنثروبولوجيون المجتمع البدائى المنعـــزل كأنـــواع عديدة من الانساق الكاملة والمستقلة ١ . كما يمكن اعتباره كنسق من العادات والنظم الاجتماعية ، وفى بعض الأحيان كما فى كتاب بندكت يعتبر كمجموعة من الأفكار الاساسية عن الخير والشر التى تواجه حياة شعب معين . وغالبا ما يعتبر كنسق من العلاقات المميزة بين أفراد ذلك المجتمع كما هو الحال فى الدراسات الهامة التى قام بها الأنثروبولوجيون البريطانيون عن سكان افريقيا الأصليين خاصة وسنستخدم هنا عبارة « البناء الاجتماعى » للدلالة على هذا النسق الكلى من العلاقات الهامة والدائمة التى يتميز بهما أى مجتمع من المجتماعت الأخرى (أ) ، رغم

(أ) راجع المقدمة التحليلية للترجمة العربية ، وكذلك دراسة مالينوسكى عن الارجونوتس .

أن هذه العبارة تستخدم فى معان مختلفة كثيرة فى الأنثروبولوجيا ٢ ـ وسنخص بالاهتمام هنا موضوع البناء الاجتماعى ·

وعند دراسته للمجتمع البدائى كبناء اجتماعى ، ينظر الأنثروبولوجى الى الادوار (ب) المختلفة والمراكز الاجتماعية (ج) للافراد طبقـــا للتراث فى هذا المجتمع · فهناك الآباء والابناء وربما من المهم أيضا انه توجد علاقة خاصـــة بين الآباء وأخوالهم وقد يكون هنـــا قساوســـة وأشخاص عاديون ، وكذا رؤساء وأناس آخرون أو باعة ومشترون ، وتظل هذه الادوار والمراكز الاجتماعية قائمة سواء قام بهما الافراد أو تركوها · وبذلك يمكن أن نتصور ذلك المجتمع على أنه ترتيب من هذه الأدوار الهامة والدائمة والعلاقات التقليدية بينها أما اذا كان المجتمع مجتمعا مترابطا ومنعزلا نسبيا ، فيجد الباحث هذه الادوار والعلاقات بين الجماعات أو القبيلة أو المستوطن التى يقوم بدراستها ، ولهـــذا يحتاج أن يبحث خارجها ·

والآن سأثير السؤال الآتى : اذا اعتبرنا المجتمع القروى نسقا من العلاقات الاجتماعية أو كبناء اجتماعى ، فكيف سنصف العلاقات التى توجد بين ذلك المجتمع والعالم الخارجى وما هى التغييرات التى تطرأ على المفهوم والمنهج اذا قمنا بدراسة قرية واعتبرناها نسقا من العلاقات الدائمة والهامة بين أفرادها ؟ · ذلك لأن الأفراد انما يطلق عليهم كلمة الفلاحين ـ كما هو الحال عندما استخدمنا هذه الكلمة فى الفصـــل الأول ـ نتيجة لاعتمادهم القديم من ناحية على المادة وســكان المدن ·

(أ) راجع تعريف راد كليف براون لمفهوم البناء الاجتماعى ·

(ب) أن الدور Role هو مركب أو مجموعة من انماط السلوك المتعـــارف عليها والمصاحبة لمركز محدد · ومعنى هذا أن المركز الاجتماعى يحتوى على فكرة السلوك المشكل بصورة ما ، بمعنى أن كل شاغل لمركز ما لديه دور محدد عليـــه آداؤه · وهذا هو السبب فى أن عالم الاجتماع يطلق على السلوك المرتبط بمركز متين اصطلاح دور · ان دور الفرد يحتل عدة مراكز فى مجتمعه فانه يقوم بعـدة ادوار ولكن على التوالى ، بمعنى انه فى حالة قيامه بالدور المصاحب لمركز الاب مثلا ، فان الادوار الاخرى المصاحبة لمراكز الزوج والمهندس مثلا تكون فى حالة كمون · ولذلك تقسم الادوار الى قسمين « أدوار نشطة ACtive roles وهى انماط السلوك التى يقوم بها الشخص صاحب مركز محدد فى لحظة معينة ، وأدوار كامنة Latent roles وهى تلك الادوار التى لا يؤديها الفرد فى لحظة معينـــة لان الوقت الملائم لم يحن لها بعد · انظر W. E. Ogburn and M. F. Nmkoff, A . Handbook of Sociology, Butler and Tanner . Tanner, London, 1947, p. 208 and Ralph Linton, The Study of Man, New York, 1936, p. 113 ff.

(ج) يمثل المركز الاجتماعى وضع الفرد فى الجماعة · ويقترح هذا التعريف فكرة الرتبة Rank وعلى ذلكفان مركز الفرد· ووضعه ورتبته الجماعية بالنسبةللآخرين.

وربما تعتبر القرية نسقا غير كامل بحيث لا يمكن وصفه بأنه بنـــاء اجتماعى نتيجة لعلاقاتها مع الأفراد والنظم الاجتماعية خارجها • وربما نطلق نحن الأنثروبولوجيون هذه العبارة على نسق أكبر وأكثر اكتمالا مثل المجتمع الاقطاعى والاقليم المركب والدولة القوميـة ، وليس على القرية الصغيرة • وقد تم وصف الدول البدائية والقبائل المتطورة بشكل معقد من وجهة نظر الانثروبولوجيا مثل دراسة هيرسكوفيتس لداهومى٣ كما قام و • ل• وورنر ومساعدوه بدراسات كثيرة للمجتمعات الحضرية والأمريكية على أنها تمثل الكثير فى الحياة القومية • وقامت مرجريت ميد وآخرون بدراسة الشخصيات القومية للشعوب الحديثـة بطريقــة مختلفة • وحديثا اقترح جوليان ستيوارد أن أى مجتمع معقد يمـــكن اعتباره مكونا من ثلاثة أجزاء • اذ يرى أولا أن هناك المجموعات المحلية مثل سكان المنازل والضواحى والجماعى ، ويطلق عليها اسم التقسيمات و المجموعات الأساسية • ويرى ثانيا أن هناك مجموعات غير محليـة ولكنها تظهر فى كثير من المجتمعات المحلية وتجمع بينها بعض الصفات العامة التى يشترك فيها أفرادها المتفرقون مثل المهنة والطبقة والسلالة أو الاهتمامات الخاصة ، ويطلق عليها اسم التقسيمات أو المجمـوعات الأفقية • ويرى ثالثا أن هناك بعض النظم الرسمية مثل نظم البنـوك

=ولكن يجب ملاحظة أن المركز والرتبة غير متطابقتان • فالمركز اصطلاح موضوعى يشير فقط الى وضع ، بينما يشير الرتبة الى مركز معين فى نظام تسلسلى للمراكز وقد يكون ذلك المركز أعلى أو اقل من المراكز الاخرى : ان نظام الرتب فى مجتمع ما هو الا نظامه الخاص بترتيب المراكز بصورة تنازليـــة أو تصـــاعدية • ويميز الانثربولوجيون الاجتماعيون وعلمــــاء الاجتمـــاع عادة بين المركز المفــروض Ascribed status والمركز المحصل أو المكتسب Achieved status والوصـول الى النوع الاخير يتم عن طريق التنافس فى السيطرة التامة أو المهارمة التامة فى أداء الادوار المرتبطة بالمراكز المختلفة • أما المراكز المفروض فانه ضفى على الشخص على أساس خصائص بيولوجية ذاتية مثل النوع والعمر والسلالة ، أو عن طريق ارتباطات اجتماعية موجودة قبل مولده مثل مركز ولديه ومركز أقاربه ومركز الجماعات غير الارادية التى ولد فيها الفرد _ انظر

Ralph, L. Beals and Harry Hoijer, An intoduction to Anthropology, 2nd ed., The Macmillan Company, New York, 1959. pp. 288-289 and R. Linton, op cit., p. 114 .

والتجارة ونظم المدرسة والعقيدة الرسمية التى توجد الى المجتمع باكمله وتؤثر فيه فى نواح كثيرة . وطبقا لهذه الطريقة فى النظر الى المجتمع الكبير المعقد يعتبر المجتمع نوعا من التشابك الذى تجرى فيه الوحدات المحلية فى اتجاه والمجموعات غير المحلية فى اتجاه آخر بينما تربط النظم الرسمية ذات السلطة المركزية والنفوذ الواسع الانتشار المجتمع باكمله ٤ .

وقد استخدم ستيوارد هذه المجموعة من المفاهيم فى وصفه لاحدى الدول الحديثـــة وهى دولة بورتوريكو التى أقيمت على الجزيرة ٥ . وليس من الضرورى أن نطلق هذه المفاهيم على المجتمعات التى يوجد بها الفلاحون . وانى أعتقد أنه يمكن استخدامهما فى وصف مجتمـــع الدنمرك أو مجتمع نيوزيلاد ، فاستخدامهما يمكن الأنثروبولوجيين من دراسة المجتمعات المعقدة بكثير من الطرق التى طالما تعودوا عليهـــا ، لأنها تستلزم تقسيم هذه الكليات الكبيرة الى جماعات أصغر بوجد بكل منها نوع من الثقافة التى يستطيع الأنثروبولوجى أن يقوم بدراستها . فهو يستطيع أن يقوم بدراسات عن المجتمعات المحلية الصغيرة أو ربما عينات أو نماذج من الطبقات الاجتماعية أو الجماعات الدينيـــة . أما النظم الرسمية مثل القانون والكنيسة ونظم المدرسة والضرائب ، فيمكن دراستها من الداخل بواسطة العلماء الاجتماعيين الآخرين الذين تعودوا على مثل هذا النوع من الدراسة . أما الأنثروبولوجى فسيهتم بالتغيرات المحلية التى طرأت على مثل هذه النظم القومية .

وسيطرد تطور اجــراءات البحث التى تنـــاسب الأنثروبولوجيا لدراسة المجتمعات الحديثة . وتعتبر الطرق المختلفة التى زودنا بها كل من جوليان ، ستيوارد ووارنر وكذا مرجريت ميد دليلا على أن ذلك العلم يمكنه أن يمد فروعه فى اتجاهات كثيرة تماما مثل الشجرة النامية. وسننظر هنا فقط الى ذلك النمو بعيدا عن دراسة المجتمع المحـــلى . وسنحاول توضيح بعض أنواع العلاقات الاجتماعية التى يجب وصفها اذا ما بدأ المرء بالمجتمع القروى المحلى ، وحاول أن يثبت أن هناك كثيرا من العلاقات بين ذلك المجتمع والعالم الخارجى .

وقد ساعدنى بحث مفيد نشره ج أ . بارنز Barnes ٦ ـ أحد الأنثروبولوجيين الذين تدربوا على أيدى العلماء البريطانيين الذين قاموا بدراسة الأبنية الاجتماعية للمجتمعات البدائية ـ فى تحديد ثلاثة أنواع من أنظمة العلاقات الاجتماعية التى يجب دراستها اذا تركنا المجتمع البدائى المنعزل ، وحاولنا وصف المجتمع القروى كبناء اجتماعى . فقد ذهب بارنز الى النرويج وقام بدراسة أبرشية تقع على جزيرة فى هذا البلد ، ووجد أنه لم يستطع أن يوجه اهتمامه الى ما يحدث الأبرشية فقط ، وكان عليه أن يتتبع العلاقات الاجتماعية لهؤلاء الفلاحين النرويجيين خارج مجتمعهم المحلى بيد أنه وجد أن ما عرفه عن أبرشيه برمنز Mremnes يمكن أن « يؤدى مباشرة الى معرفة قطاع صغير جدا عن الحياة الاجتماعية لهذه الأمة » . وهكذا لم يقم بارنز بدراسة ذلك المجتمع القروى الصغير كمجتمع منعزل مستقل ـ فمن الواضح أنه لم يكن كذلك ـ أو كعينة أو نموذج تمثل كلا متكاملا (كما فعل الأنثروبولوجيون الذين قاموا بدراسة قبائل النوير فى السودان وقبيلة التيف Tiv فى نيجريا) أو كأحد العناصر التى تدخل فى دراسة شاملة لدولة حديثة كما فصل ستوارد . ولكنه وجد فى هذه الأبرشية التى قام بدراستها من أنساق العلاقات الاجتماعية التى تعتبر جديدة نوعا ما على الأنثروبولوجى الذى درس المجتمع البدائى المنعزل كما تتبع بعض الأنساق الاخرى خارج ذلك المجتمع المحلى التى تربط بينه وبين مجتمعات أخرى مماثلة ، وبينه وبين الشعب النرويجى بأكمله وكذلك بينه وبين الانساق الصناعية التى تشمل مجال أوسع من الأمة بأكملها .

وربما لم تعد تلك الأبرشية النرويجية مجتمعا قرويا ، فهى تقع خارج وليس بعيدا عن مجموعة المجتمعات الصغيرة التى أطلقت عليها هنا اسم مجموعة المجتمعات « القروية » فمن بين كل عشرة أشخاص فى أبرشية برمنز يوجد ثلاثة من الصيادين وواحد يشتغل بالتجارة البحرية واثنان من العمال الصناعيين واثنان من المتقاعدين أو ممن يشتغلون بمهنة أخرى واثنان فقط ممن يشتغلون بالزراعة . وعلى هذا يمكن القول أن أبرشية برمنز هى مجتمع ملاحى من ناحية وزراعى من ناحية ثانية وقروى من ناحية ثالثة داخل دولة حديثة . كما أن أغلب الشعب من

المتعلمين الذين يشتركون فى الحياة القومية العامة . ولكن لأن أبرشية برمنز تبعد كثيرا عن المجتمع البدائى المنعزل بدرجة أكبر من المجتمعات القروية فى بلاد أخرى أقل تحضرا ، فان ما وجده برمنز هناك من ناحية العلاقات الاجتماعية سيساعدنا كثيرا فى معرفة ما يجب دراسته فى المجتمعات القروية فى آسيا وأمريكا اللاتينية . فنحن فى حاجة الى أساس لمقارنة الجوانب المتحضرة وكذلك الجوانب البدائية فى حيـــاة القرويين .

ويرى بارنز أن هؤلاء الفلاحين النرويجيين هم أعضـاء فى أنواع كثيرة من الجماعات . وتتعدد هذه الجماعات وتتنوع العلاقات بينها بحيث يمكن ترتيبها طبقا لنظام التشابك الذى وضعه الاستاذ ستيوارد ٧. ويضعها بارنز بين ما يسميه « بالمجالات الاجتماعية » بأنواعها الثلاثة . فكل مجال اجتماعى عبارة عن نسق تصورى من الأنشـطة والعــلاقات الاجتماعية التى يمكن فصلها الى حد ما عن المجالين الآخرين . وأعتقد أن كل من هذه المجالات سيساعدنا كثيرا فى محاولتنا للانطلاق من المجتمع البدائى المغلق نحو فهم أكثر للبناء الاجتماعى للمجتمعات القروية .

وهناك أولا (ذلك المجال الاجتماعى الذى يقــوم على قاعـــدة الاقليم ، والذى يشمل عددا كبيرا من الوحدات الادارية المرتبة ترتيبا متدرجا كل منها داخل الأخرى) ٨ . وتشمل هذه السلسلة المتدرجة من الجماعات المحلية الجوع والضواحى والأحياء وكذلك الأبرشية نفســها التى تعتبر فى هذه الحالة جزءا فى سلسلة الوحدات التصاعدية الأكبر ذات الوظائف الادارية والقانونية والدينية والتى تشمل كل منها أبرشيات أخرى فى الترويج .

وعلى مستوى الأبرشية يمكننا أن نرى تحولا من الحياة المحليــة الى الحياة القومية . واذا نظرنا الى أبرشية برمنز من وجهة نظر باحث يدرس الأمة كلها فسنجد أن تلك الأبرشية هى عبارة عن وحـــدة من وحدات الادارة المدنية والدينية . فهناك مثلا مجموعة أبرشـيات تلك المنطقة التى تنتمى بدورها الى رئاسة الشمامسة التى هى جـزء من المرقسية . وتعتبر هذه المجموعات مجموعات رسمية . كما أن لها وظائف

وعلاقات خاصة ٠ وفى داخل الابرشية ذاتها نجد أن العلاقات هى علاقات شخصية ٠ كما تشمل كثيرا من الحياة البشرية ٠ ومع ذلك نجد أن التعليم والارتباط الكامل بين النظم المحلية والقومية فى النرويج الحديثة قد حجبا تماما ذلك الانفصال بين الحياة والحياة العامة ٠ وفى المجتمعات التى لا يزال فيها سكان الريف أناسا قرويين بشكل واضح ، نجد أن النسق أو المجال الاجتماعى الذى يقوم على قاعدة الاقليم والذى استخدمه بارتز فى وصف أبرشية برمنز يربط بين الحياة المحلية والحياة العامة فى نظام الاقطاع أو الدولة ٠ أما فى المجتمعات القروية فيمكننا تمييز هذين الجزءين بشكل واضح ٠ وتتكون مسلسلة الوحدات عند القاعدة من أشخاص تربط بينهم علاقات شخصية وتقليدية ، وهنا نجد أن القرابة والحوار هى العلاقات السائدة وعند القمة يوجد أشخاص تربط بينهم علاقات تجرى داخل نطاق النظم الاجتماعية تتميز بأنها غير شخصية ورسمية واذا اعتبرنا المجتمع القروى نسقا من العلاقات الاجتماعية لمرتبة ترتيبا متدرجا ، نجد أنه ينقسم الى نصفين مترابطين ٠ وقد نستطيع أن نرى نوعا من الصلة أو الارتباط بين الحياة المحلية فى مجتمع قروى والدولة أو ينسق الاقطاع الذى هو أحد أجزائها وتتضح هذه الصلة ايضاحا كبيرا فى أحد المجتمعات الهندية فى غرب جواتيمالا حيث تبتعد الحياة المحلية كثيرا عن الحياة القومية ٠ وتتكون هذه الصلة من الموظفين الاداريين الذين يأتون من المدينة أو ترسلهم السلطة المركزية فى المدينة لربط المجتمع الهندى ، الذى يعتبر مجتمعا منظما فى حد ذاته ٠ بالحياة القومية ٩ ٠ وقد يقوم بهذه الصلة قسيس الأبرشية وبعض أصحاب المحلات التجارية ٠ وفى القرية الأندلسية التى تعتبر مجتمعا من سكان القرى الذين لهم صفات القرويين تقوم بهذه الصلة مجموعة مختلفة من أصحاب المهن والأثرياء الذين يعيشون بعقولهم بعيدا عن القرية التى يسكنونها أى فى المدينة « والذين يمثلون الحكومة بالنسبة للهنود الحمر ، ويمثلون الهنود الحمر أمام الحكومة » ١٠ ٠ وفى المجتمع القروى القديم فى الصين تتمثل هذه الصلة فى كبار موظفى الأمبراطورية الصينية القديمة الذين يقومون بالتفاوض بين الحاكم الامبراطورى وشيوخ القرية ٠

وفى قرى البلقان يتركز خط الصلة بين الحياة المحلية والحياة القومية ، أى بين جزئى تلك السلسلة السياسية الأقليمية التصاعدية فى

شخص القسيس والعمدة ١١ وسنسرد فيما بعد شيئا عن وظائف هـؤلاء الأشخاص الذين يقومون بهذه الصلة فى الحياة الثقافية للشعب ٠

وحتى فى أبرشية برمنز ، فبالرغم من أن الشعب لم يعد شعبا قرويا فان ما يوفر الاستقرار للمجتمع هو تلك الحياة المحلية المنظمة تنظيما اقليميا ٠ « اذ يقومون بزراعة نفس الحقول سنة بعد أخرى ، كما يزرعون أراضي جديدة ، ولكن ذلك يتم ببطء شديد ٠٠ لأن الناس غالبا ما يستمرون فى الحياة فى نفس المنازل ويقومون بزراعة نفس الأرض سنة بعد أخرى » ١٢ وثمة ما يدعونا للاعتقاد أن ذلك كان أهم نظام اجتماعى منذ قرن ونصف ، رغم أن صيد السمك الذى لم يكن قد تصنيعه بعد قد أدخل بعض التعديلات على الحياة القـروية فى دلك الوقت ٠

ولكن صيد السمك قد تم تصنيعه الآن فى النرويج لدرجة أنه قـد أصبح بالنسبة لسكان ابرشية برمنز نشاطا مستقلا الى حد ما عن حياتهم على الأرض وتسود المنافسة فى صناعة صيد السمك ، وكما يقول الناس « أن صيد السردين حرب » ٠ وهنا نجد الولاء للاقرباء بدرجة محدودة (فأى رجل يمكنه أن يشترك فى طاقم سفينة صيد ، كما يقوم كل صاحب سفينة بتشغيل طاقم الصيادين الذين يستطيعون صيد سمك أكثر ٠ وفى خلال موسم السردين يبحر الرجال من سكان ابرشية برمنز صيادون فى سفن تنتمى الى ابرشيات أخرى ـ كما يبحر على ظهر السفن المسجلة فىبرمنز صيادون من مناطق تبعد عنها بستمائة ميل ٠ ويوجـد فى حقيقة الامر ما يشبه سوقا للعمل الحر » ١٣ ٠ ويتركب المجال الاجتماعى الذى يتحرك خلاله رجل برمنز فى دوره كصياد سمك من العلاقات غير الثابتة مع عدد كبير من الأشخاص فى أماكن مختلفة مثل أصحاب السفن وربابنة مراكب ورؤساء الشـباك والطباخين وآخرين من الذين ارتبط عمله بهم ٠ كما يتشابك ويتقابل مجاله الاجتماعى مع صناعة صيد السمك المنظمة فى جميع أنحاء العالم ٠

ويدور الدرس الثانى الذى استفدناه من دراسة بارنز حول السوق فى أى شكل من أشكاله ، حيث يستعير السوق جزءا من الأعمـال التى

يقوم بها الأشخاص من العلاقات الاجتماعية المترابطة فى المجتمعـــات البدائية المغلقة . كما يضع الأشخاص فى مجالات من الأنشطة الاقتصادية المستقلة التى لا تعتمد على بقية ما يحدث فى الحياة المحلية ويختلف العالم الأخلاقى والتقليدى للسوق عن عالمه غير الشخصي والأكثر اتساعا، بل أنهما يتعارضان كما أكد فيبر ١٤ (أ) Weber وآخرون (ب) .

(أ) ماكس فيبر (١٨٦٤ — ١٩٢٠) عالم اجتماع واقتصادى المانى شهير . درس فى مطلع حياته القانون والاقتصاد ، حيث أظهر فيهما تفوقا ملحوظا . وفى سنة ١٨٩٣ عين ماكس فيبر استاذا للاقتصاد فى جامعة فرايبورج Freiburg ، ثم انتقل بعد ذلك الى وظيفة مماثلة فى هايدلبرج وفى سنة ١٩٠٠ اصيب بانهيار عصبى حاد اقعده عن نشاطه الاكاديمى ، ولم يستطع العودة الى التدريس الا فى سنة ١٩١٨، حينما سافر الى فيينا ، ثم ميونخ بعد ذلك . وقد توفى فيبر فى سنة ١٩٢٠ ، فى وقت بلغت فيه مواهبه وقدراته أقصى درجات نضجها .

وقد كتب فيبر عددا من الدراسات والمقالات ، نشر كثيرا منها فى مجلة أرشيف العلوم الاجتماعيــة والســياسية
Archiv fur Sozialwissenschaft und Sozialpolitik
حيث كان من أكثر ممثلى الكتابات الالمانية فى العلوم الاجتماعية فيها . وبالاضافة الى ذلك أسهم فيبر بمقالات متعددة نشرت فى الصحف المختلفة كما عمل بنشاط فى مجال السياسة .

وقد توفى فيبر قبل ان يتم مؤلفه الاساسي الذى يدخل فى النظرية الاجتماعية وهو « الاقتصاد والمجتمع » .

وقد نشر فى عام ١٩٢٢ بعد وفاته . وفى هذا العام أيضا جمعت كتـــاباته المنشورة فى المجلات العلمية وبعض الكتابات الاخرى ، ثم ظهرت بعد ذلك فى شكل مؤلفات تحتوى على « مقالات مجمعة » . ومن هذه المؤلفات ثلاث تتنـــاول علم الاجتماع الدينى ، ومؤلف يدرس التاريخ الاجتماعى والاقتصادى ، ومؤلف يعالج علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية وأخيرا مؤلف يتناول ما نطلق عليه اليوم « علم الاجتماع العرفى » . ومن المؤكد أن هذه المؤلفات بتنوعها الواضح ، تعكس لنا تعدد اهتمامات فيبر واتساعها . انظر نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتمــاع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرين ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢، ص ٢٥١ — ٢٧٧ . وكذلك قاموس الاثنولوجيا ، ص ٤٢٣ — ٤٢٤ . وأنظر أيضا
Max Weber, General Economic History, Glencoe, 111, Free Press,1950.

(ب)على رأس هؤلاء عالم الاقتصاد الاجتماعى (الامريكى) تاونى Tawney

أما في المجتمع القروى فيوجد بعض التوازن بينهما . وقد نجد المجتمع القروى فى المنتصف أيضا اذا نظرنا الى سلسلة من المجتمعات التى يتضح فيها انفصال عالم السوق بشكل متزايد ، اذ تقترب الجماعة فى جزر الأندمان من المجتمع المنعزل المغلق . ولكن قد يأخذ أفـــراد جماعة أقواسهم وسلالهم من وقت لآخر ويذهبون لزيارة جماعة أخرى ، ويقومون بتقديم ما أحضروره معهم من هدايا ، كما يتلقون من مضيفهم بعض مصنوعاتهم كهدايا ١٦ . ولا يمكن تمييز الحياة الاقتصادية بهذا الشكل فى نوع من التبادل (أ) الذى يتم فى وقت لآخر بين الأصدقاء على أساس من النية الحسنة . أما فى ريف الهند ، وهو مجتمع يتسم بتقسيم العمل على نطاق كبير يتم تبادل الخدمات داخل نطاق مركز اجتماعى موروث على شكل طائفة اجتماعية مغلقة . كما توجد أيضـــا بعض الأسواق حيث نجـــد التجـــارة حرة نســـبيا . وفى مجتمـــع شيشيكا ستيناجو Chichicastenango فى جواتيمالا الذى يتكون من الهنود الأمريكيين — وهو مجتمع قروى فيما عدا ذلك الانفصال بين الهندى وسادته فى الحضر — يقضي معظم الاشخاص جانبا كبيرا من صلاتهم فى الرحلات التجارية ، ويقومون بالبيـــع والشراء فى دائرة كبيرة من الأسواق ١٧ . ولكن هذه الحياة التجارية منفصلة تماما عن الحيـــاة الاجتماعية والسياسية فى البلدة والنجع . وقد ادهش المراقبون عدم تأثر تاجر جواتيمالا بكثير من الثقافات المحلية الأخـــرى التى يتنقـــل بينها . ١٨ وكتاجر يعيش ذلك الهندى الذى يعتبر نصف قروى حيـــاة مستقلة ، ويتحرك داخل « مجال مختلف من الأنشـــطة » . ولكن فلاح بلغاريا يبيع منتجاته الى سكان المدينة ويشترى منهم ، رغم ما قيل من أن رحلاته الأسبوعية الى المدينة والقرية قد أدخلت بعض التغييرات الطفيفة

الذى نشر له كتاب شهير عام ١٩٣٧ بعنوان « الدين وازدهار الرسمالية » . وقد آمن تارنى باضرار النظام الصناعى الحديث — على عكس الثقافات البدائية والقروية — على اضطرابات الجهاز النفسي والعصبى . ويؤمن معه بهذا الاتجاه — انتون مايو Elton Mayo الذى كان صديقا لكل من مالينوسكى ورادكليف براون والذى يرجع اليه الفضل فى ابراز ميدان علم الاجتماع الصناعى الى الوجـــود . انظر فاروق العادلى ، الاجتماعى الصناعى ، الذى سبقت الاشارة اليه ، ص ٤٢ وما بعدها :

(أ) قارن الحاشية الخاصة بدراسة مالينوسكى عن الارجونوتس .

على مجتمع القرية ١٩ ، فهو يتخذ موقف المتفرج فى المدينة ويتحدث فى غالب الأمر مع أقرانه من الفلاحين وهكذا ينفصل فى هذه الحـالة أيضا عالم القرية عن عالم المدينة رغم اتصالهما الواضح . وقد تتخـذ الحياة التجارية والحياة الزراعية داخل القرية أشكالا مختلفة فى التفكير والعمل وفى قرية يوتيكان (أ) Yucatecan التى تتميز بأنها مجتمـع زراعى من الدرجة الأولى يتخذ المايانى ـ وهو شخص قروى بشكل أكثر من الرجل الهندى فى غرب جواتيمالا من الزراعة طريقة فى الحيـاة ونشاطا دينيا تماما كما يفعل أفراد قبيلة الهوبى (ب) Hopi وأفراد قبيلة الزونى (ج) Zuni . ولكنه يقوم ببيع نصف محصـوله من الذرة الى السوق . وتعتبر الذرة عندما تنمو فى الحقول أو تقدم للآلهة شيئا معنويا وتقليديا مقدسا ، ولكن عندما تعد للبيع يطلق عليها الناس اسما مختلفا ، ولذلك تنفصل المعاملات التجارية فى الذرة عن المعاملات المحلية ٢٠ كما تعتبر التجارة بالماشية أو الخنازير نشاطا دنيويا يشترك فيه المرء مع أى بائع أو مشتر يقابله .

ويتميز كل مجتمع قروى بمجال معين من النشاط الاقتصادى الذى يستحق الدراسة والذى يختلف الى حد ما عن المجمـوعة المتكاملة لكل الأنشطة التى يتميز بها المجتمع البدائى المنعزل . ويتخذ ذلك المجال الاقتصادى ـ كما يقول بارنز ـ « وضعا مختلفا عند التحليل » ، اذ يجب على المرء أن يقوم بدراسة خاصة لهذا المجال الاقتصادى . ولذا نجـد ب . هانس Hanssen فى دراسة للحياة الريفية فى السوق منـذ قرن يقوم بوصف ٢١ العلاقات التى كانت موجودة بين هؤلاء القرويين الذين كان معظمهم ممن يسكنون الأكواخ وبين سادة المزرعة الذين كان هؤلاء الفلاحون يعملون فى خدمتهم . ويقوم بوصف هذه العلاقات كميدان

(أ) انظر :
R. Redfield, The Folk Culture of Yucatan, po. cit., p. 364 ff.

(ب) قبيلة الهوبى هى احدى قبائل الهنود الحمر فى الجنوب الغربى من أمريكا الشمالية . (ولاية أوريزونا الشمالية) .

(ج) قبيلة الزونى هى احدى قبائل الهنود الحمر وتقع فى أمريكا الشمالية (ولاية نيومكسيكو) .

نشاط يتميز به ذلك المجتمع ٠٠ ولم يكن ذلك المجال فى هذه الحالة مجالا اقتصاديا تماما ٠ فقد دخل ساكنو الأكواخ الحياة المنزلية فى قصــور النبلاء ، كما كان بين بعض هؤلاء الفلاحين فى فترات حياتهم وبين بعض النبلاء والسادة علاقات ثقافية دائمة ، وكذا علاقات أخرى تقوم على أساس المنفعة ٠ وهكذا تم الترابط بين نصفى ذلك المجتمع المزدوج الذى يتكون من السادة والفلاحين عن طريق مجال معين من النشاط الذى يتخذ وضعا منفصلا فى التحليل ، ولكنه بدون شك مجال اثرت من خلاله عادات وأخلاق السادة على الفلاحين ٠ وفى مجتمع النرويج الحديث نجد أنه قد تم تصنيع الصيد تصنيعا تاما ، واصبح يتميز كمجال من مجالات النشاط ، اذ ينفصل الصياد الريفى انفصالا تاما عن الحياة على الأرض كما يتسم ذلك المجال بالسيولة والتنافس والاستقلال المتزايد عن الروابط والعلاقات التى تتكون فى الحياة المحلية ٠

وتعنى كلمة « السوق » مكانا للتجارة ، كما تعنى حالة نفسـية معينة ٠ ويمكن استخدام هذين المفهومين فى دراسة الحياة القــروية والريفية ٠ ويشير بارنز الى صناعة الصيد فى النرويج كميدان اجتماعى وهو مجال ليس له مكان محدد ، ولكنه مجموعة من الأنشطة والاتجاهات والعلاقات التى ترتبط ببعضها البعض أينما وعندما يلتحـق الرجــل النرويجى بصناعة الصيد ٠ وقد تقوم بدراسة هذا الميدان كمجموعة متماسكة من الأشياء التى يقوم بها الأفراد أو يفكرون فيها ٠ وبطبيعة الحال يمكننا دراسة تلك الأسواق التى تم تجديديها جغرافيا ٠ فقد قام ماكبريد Mc Bryde بوصف نوع واحد من الأسواق فى غرب جواتيمالا ، وهو ذلك النوع من الأسواق الذى يتكون من الأشخاص الذين يحضرون معا الى المدينة فى وقت واحد للشراء والبيع ٢٢ ٠ ويمكن أن يصف المرء أيضا هؤلاء التجار المتنقلون فى كل علاقاتهم التجارية نوعا آخر من الاسواق اذا موقع محدد على الارض ٠ وقد قام الدارسون لعلم الاجتماع الريفى والاقتصاد بوصف المناطق التى تباع فيها مراكز التوزيع ٠ وقد قدم أرنسبرج Arensberg وكمبال Kimball وهما من الأنثروبولوجيين وصفا جيدا لمثل هذه الأسواق التى تتركز حول تقاطـع الطــرق وفى المعارض والمحلات فى ريف ايرلندا ٢٣ ٠

ويسمى بارنز ذلك « المجال الاجتماعى » الثالث الذى وجده فى الابرشية النرويجية « بشبكة العلاقات » اذ يعتبر كل أنواع العلاقات التى تربط بين السكان القرويين فيما بينهم والتى تربط بينهم وبين السكان فى مكان آخر كشبكة يشبه الأفراد فيها مواضع العقد أو النقط ، وتشبه العلاقات أيا كان نوعها الخيوط أو الخطوط . ويفكر بارنز هنا فى ذلك الجزء من الشبكة الذى سيبقى اذا أزيلت العلاقات بين الانساق الاقليمية والأنساق الصناعية . ولكى نميز ذلك الجزء المتبقى من الشبكة ولكى نجد له اسما يدل على وجوده فى مجتمع أكبر من المجتمع البدائى المنعزل الذى نتخيله فلنطلق عليه اسم « شبكة العلاقات على مدى البلد » . وان ما يخلق هذه الشبكة هو أن كل شخص - من خلال القرابة أو الصداقة أو المعرفة - « يرتبط بعلاقات كثيرة مع عدد من الاشخاص الآخرين الذين قد يكون بين بعضهم صلاة مباشرة ، وقد لا تكون هناك صلات مباشرة بين البعض الآخر » ٢٤ . وفى أبرشية برمنز تربط هذه الشبكة من العلاقات بين سكان الأبرشية نفسهما . كما تربط بينهم وبين سكان الابرشيات الأخرى ، فليس هناك حدود لهذه الشبكة . كما لا توجد طريقة لتجديد عضوية جماعة معينة فى تلك الشبكة : « فكل شخص يرى نفسه فى منتصف مجموعة من الأصدقاء » ٢٥ ولكن فى بعض الاحيان تتكون الجماعات المحددة مثل أطقم الصيادين أو اللجان من مجموعات مترابطة من الأشخاص داخل هذه الشباك التى لا حدود لها .

وفى كل مجتمع ، مهما كان بدائيا ، لابد أن يوجه المساء بعض الاهتمام الى العلاقات بين الأصدقاء أو العلاقات بين الأقرباء . فليس هناك مجتمع ينتظم فيه الأفراد فى سلسلة من البدنات (أ) أو الجماعات المحدودة الأخرى فقط . وهكذا توجد دائما تلك الشبكات من العلاقات ، التى لا حدود لها ، كلما امتدت قرابة الأنساب خارج المجتمع ، وكلما نشأت العلاقات نتيجة للتعارف والارتبطات الشخصية بين الأفراد من وقت لآخر .

(أ) البدنة Lineage هى الجماعة القرابية الكبرى التى تنتمى اليها العائلات ذات الاصل الواحد . ولكل بدنة اسم يلقب به أفرادها . وتختلف البدنة عن كل من الاسرة والعائلة الممتدة . فالاسرة أو بالاحرى الاسرة الزواجية
= Nuclear or Conjugal Family

وفى المجتمعات البدائية تساهم القرابة الى حد كبير فى صفات مثل الشبكات التى توجد فى تلك المجتمعات . ويوجد فى بعضها نوع من القرابة الكامنة بشكل يسمح لها بالظهور على حدود المجتمع المحلى كى تشمل أفرادا تمت مقابلتهم حديثا . وأذكر فى هذا الصدد كيف يقيم الغرباء فى وسط استراليا علاقات ودية مع بعضهم البعض عن طريق تحديد شخص ثالث ينتمى كل منهما اليه برابطة القرابة ٢٦ .

واذا كانت القبيلة كبيرة ومتفرقة ولا يستقر أفرادها فى قرى متميزة واضحة كما هو الحال فى قبائل التيف فى نيجيريا ، ففى هذه الحالة تعتبر القبيلة شبكة كبيرة من العلاقات على مدى البلد . ولكن اذا قمنا بدراسة هنود السهول الأوائل أو هنود الأمازون أو أفراد قبيلة اللوزون Lozan فاننا لا نهتم كثيرا بشبكة العلاقات على مدى البلد لأن كلا من الجماعة أو المستوطن أو القرية أو القبيلة يعتبر نسقا اجتماعيا منفرداً غير مترابط نسبيا ، ولا توجد بينه وبين الأنساق الأخرى المماثلة أى شبكات من العلاقات الدائمة أو المؤثرة . فقد ترتبط وحدة بأخرى أو تنفصل عنها ، وقد يقع أحد الأشخاص فى الأسر أو يصبح عضوا فى مجتمع محلى كان غريبا عليه فى يوم من الأيام ، ولكن المجتمعات

= تعنى من الناحية الاجتماعية الحياة المشتركة بين رجل وامرأة والاطفال الذين يأتون نتيجة لهذه الحياة . أما العائلة الممتدة Extended Famil فهى جماعة اجتماعية تتكون من عدد من العائلات التى تربطها علاقات قرابية وتعيش فى مكان واحد . وقد يطلق على تلك العائلات اسم رجل أو اسم امرأة ، وقد تكون من نسل رجل Patrilineal descent أو نسل امرأة Matrilineal descent والعائلة الممتدة على هذا النحو لا تختلف عن العائلة المركبة Composite Family أو المشتركة Joint Family انظر

H. P. Fairchild (ed.), Dictionary of Socology, New York, 1940, p. 114

ويرجع فى الواقع اكتشاف هذه الاشكال المتعددة للعائلة الى الانثروبولوجيين الاجتماعيين سواء من حيث الشكل Form أو الاقامة Residence أو درجة القرابة Kinship انظر على سبيل المثال :

J Murdock, Social Structure, New Yor, 1949 and S. C. Dube, Indian Village, London, 1956, p. 131 ff. and M. Yang, Chinese Village, London, 1947, p. 45 and A. R. Radcliffe Brown, Structure and Function in Primitive Society, Oxford University Press, London, p. 70 ff.

ذاتها مترابطة وتتركز العلاقات فى أغلب الأمر فى نظم القرابة أو فى أنواع أخرى من الجماعات ، وبالنسبة لترابط هذه المجتمعات يوضح بارنز هذه النقطة توضيحا طيبا حين يقول أن عيون شبكة العلاقات الاجتماعية صغيرة فى المجتمعات البدائية وكبيرة متسعة فى المجتمعات الحضرية والمجتمعات الجماهيرية ، ويقول : « انى أعنى بعين الشبكة تلك المسافة التى توجد حول أى ثقب فى الشبكة .. ففى المجتمع البدائى نجد أن كثيراً من الطرق التى تخرج من نقطة ما على الشبكة نقطة (أ) مثلا تؤدى الى هذه النقطة (أ) مرة أخرى بعد حلقات قليلة ، أما فى المجتمع الحديث فتوجد نسبة أقل من الطرق التى تؤدى الى النقطة (أ) مرة أخرى » ٢٧ : ففى قبيلة الزونى تعود الحلقات الى رجل الذى بدأنا منه ، وفى ريف النرويج تقودنا الحلقات خارج الأبرشية الى مجتمعات نائية وفى المجتمعات القروية تدور كثير من الحلقات حول القرابة تماما كما هو الحال فى المجتمعات البدائية ، ولكن عين الشبكة أكثر اتساعا وأقل أحكاما من ذلك ، وفى كندا عندما كانت تحت الحكم الفرنسي يسافر القروى ولكن لزيارة الأقرباء ، واذا لم يوجد له أقرباء فى الأبرشية المجاورة فلا يذهب اليها ، ولكنه قد يقوم بالحج الى ضريح القديس آن دى بوبيريه Anne de Beaupré ويقيم مع أقربائه فى كيوبك Quebec ٢٧ .

وتمد هذه الشبكة المتطورة التى تنتشر على مدى البلد فى المجتمعات غير البدائية الأنثروبولوجى بنوع آخر من أنظمة العلاقات الاجتماعية التى تستحق الدراسة ، فهو لا يستطيع أن يوجه اهتمامه الى القرية فقط أو الى المجتمعات الريفية المتفرقة فى المارع المجاورة ، اذ يجد أمامه قرية ترتبط بأخرى أو مزرعة بأخرى تبعد عنها ، أو مدينة ترتبط بالريف فى نسيج من العلاقات الاجتماعية . أما العلاقات التى توجد بين الأفراد بصرف النظر عن نسق العلاقات التى تبدأ فى الأسرة والضاحية ثم تصعد حتى تشمل الحكومة الرسمية للدولة ، فتعبر على جانب كبير من الأهمية فى المجتمعات القروية والريفية بحيث تستحق الوصف . وفى الأمكنة التى تتركز فيها العلاقات بشكل دائم وتشكل نظاما من الروابط بين الأفراد رغم بعد المسكن . نجد أنها تبرز واضحة على الخريطة الاجتماعية لتؤكد تصوراتنا العلمية . وهكذا تتفق النقط والخطوط مع

الخيال الذى تتكون من خلاله المفاهيم ، ونتساءل عما تكون تلك الأفكار التى سنميز بها هذا النوع من الانساق الاجتماعية ، وذلك الجانب من البناء الاجتماعى الذى يمكن أن نسميه بشـبكة العـــلاقات على مدى البـــلد ٠

ومن الواضح أن الغرض أو الهدف الذى يربط بين الأفـــراد فى شبكة العلاقات هو مسالة تشابه أو اختلاف على جانب كبير من الأهمية٠ فقد قام أوسكار لويس Oscar Lewis بمقارنة المجتمعات الريفيـــة فى المكسيك وجزر الهند الشرقية ليؤكد اختلافا من هذا النــوع ٢٩ : واذا نظرنا الى ريف المكسيك نرى قرية ترتبط بأخرى عن طريق التجارة أساسا وكذلك عن طريق التزاور فى الأعياد والقيام بالواجبات والمهام الحكومية وعن طريق الحج الى الأضرحة وتميل المجتمعات المحلية الى تحبيذ فكرة الزواج الداخلى (أ) ، ولكل منها ثقافة متجانسة الى حد ما كما أن الاحساس بالولاء للمجتمع المحلى قوى جدا ، أما الأشخاص الذين يخرجون من مجتمع محلى الى آخر أو الى المدينة فانما يفعلون ذلك كأفراد أو كجماعات أسرية ويقومون بأنشطة متشابهة ولكنها متوازية ومنفصلة ٠ وتتفق هذه الأنشطة مع الحياة الثقافية والأسرية التى يحياها

(أ) الزواج الداخلى Endogamy, Endogamie أى نظام الزواج من داخل الوحدة الاجتماعية In marriage يقضيهذا النظام بالزام الفرد من الزواج منداخل الجماعة القرابية الدموية كان يتزوج الفرد من ابنة عمه hisputernal coueim هذا مطبق فى القبائل العربية بغرض ضغط الارض فى نطاق العائلة الممتدة وتقوية الروابط القرابية ، لان الاولاد الناتجين عن هذا الزواج سيبقون فى نطاق البدنة مما يكسبها قوة ومنعة فى وجه اعدائها ٠ وتعتقد كثير من القبائل العربية ان ابنة العم هى افضل زوجة لانها تشارك زوجها فى مسراته واحزانه بقلبها ، وهى تفضل الزوجة الغريبة من وجوه عديدة ٠ أنظر

Jean Cuisinier, Endogamie et Exogamie dane le Marige Arabe, L'Homme,

وهذا النوع من الزواج هو ما يطلق عليه الانثروبولوجيون مصطلح الزواج التفصيلى
1i, 2 (1962), pp. 80-105 Preferential Radcliffe-Brown, " Introduction " in A. R. Radcliffe, - أنظر marriage Brown and D. Ford (ed.), African Systems and Kinship and Marriage, London, Oxford University Press, 3rd inpression, 1955, p. 1 and pp. 59-60.

الأفراد داخل القرية ، وليس هناك جماعات كاملة ذات ثقافة وبناء اجتماعى ولها علاقات دائمة فى شبكة العلاقات على مدى البلد مع جماعات أخرى مماثلة فى مجتمعات محلية أخرى .

وهذا ما نجده فى الهند فاذا نظرنا الى ريف الهند ، سنرى أن كل مجتمع محلى يرتبط مع كثير من المجتمعات المحلية الأخرى عن طريق نظام الطائفة المغلقة وتتحدد الوحدة الداخلية فى القرية وتتوازن مع الوحدة التى يشعر بها القروى مع أحد أعضاء الطائفة فى قرية أخرى . وفى وقت خطر يهب عضو الطائفة لنجدة زميله فى قرية أخرى. وفى حالة الطوائف العليا تغطى هذه الوحدة التى يشعر بها الأفراد مساحات واسعة ، وقد يجعل منها موزخو الطوائف ودارسو الأنساب نظما معينة .

وفوق ذلك ، تتكون شبكة العلاقات على مدى البلد فى قرى الهند الشمالية من علاقات الزواج الواسعة الانتشار . اذ تحبذ القرى فكرة الزواج من خارج المجتمع (أ) . ففى البنجاب مثلا « يقال أن كل قرية

(أ) الزواج الخارجى Exogamy, Exogamie اى نظام الزواج من خارج الوحدة الاجتماعية Out-marriage وان الاصل فى هذا النظام يقوم على أساس الاعتقاد بأن أعضاء العشيرة او القبيلة اقارب اى منحدرين من نسل جد مشترك ، وقد يكون فى هذا الجد خرافيا . وبناء على ذلك يحرم الزواج بين أعضاء تلك العشائر أو القبائل ، وعلى العضو أن يتزوج من خارج عشيرته أو قبيلته ، أى من قبيلة أخرى. ويعلق مالينوسكى عل ىتلك الوظيفة الهامة بانها جهاز يهدف لتاكيد تماسك العشيرة عن طريق توجيه اشباع الدافع الجنسي نحو أفراد من خارج العشيرة ، فلا تحدث مشاجرات بين اعضاء العشيرة الواحدة بسبب التنافس على زواج الفتيات الجميلات انظر .E. Hoebet, Man in the Primitive World, New York, 1958, p. 349

وتؤدى قاعدة الزواج من الخارج دورا هاما فى توفير علاقات الود والتعاون بين العشائر التى يجمع الزواج بين بعض افرادها ولذلك كانت الخاصية الغالبة عند معظم الجماعات القرابية الدموية هى تطبيق قاعدة الزواج من الخارج ، أى ان اعضاء الجماعة القرابية الواحدة يتزوجون من خارج جماعتهم وذلك لشعورهم بأن روابط القرابة تصل فى قوتها قوة روابط الاخوة والابوة ولذلك يمتد نظام المحارم فيشمل كل أعضاء الجماعة القرابية الدموية الواحدة ، ولكن هذه القاعدة ـ كما سبق ان رأينا فى قاعدة الزواج من الداخل ـ ليست بقاعدة عالمية ـ انظر
J. Murdock, Social Struture, New York, 1949, p. 49.

لها مجموعة تقليدية من القرى تتزوج منها فتياتها ، ومجموعة أخرى تتلقى منها الزوجات » . وهنا نجد شبكة من علاقات الزواج على مدى البلد . وبالنسبة الى قرى البنجاب التى قام ماريان سميث

بدراستها « نجد أن المجتمع الذى يقوم على علاقات الزواج يبدأ على مسافة أربعة أميال ويشمل كل القرى التى تبعد بمسافة ثمانية أميال » ٣٠ وفى قرية كيشان جارحى الواقعة فى جنوب شرق دلهى لا يوجد زواج من داخل القرية ، « وتخرج الفتيات من القرية وتأتى الزوجات الى القرية وهكذا يتنقلن بين أكثر من ثلثمائة قرية أخرى » ٣١ . وعندما قام ماريوت بدراسة هذه القرية وجد أن ٥٧ زيجة تمت فى ذلك الوقت قد ربطت قرية كيشان جارحى بستة عشرة بلدة ومدينة . وتظل العلاقة القروى والقرى الأخرى قوية جدا ، وفى قرية أخرى فى شمال الهند تجد أنه اذا وقع رجل من طائفة أدنى فى مشكلة مع صاحب الأرض الذى ينتمى الى طائفة أعلى فان « غالبا ما يحتمى بأقرباء أمه أو أخته أو زوجته . وغالبا ما يقضي الطفل سنتين و ثلاثة فى زيارة طويلة لمنزل والد أمه فى قرية أخرى » ٣٢ .

وباختصار تتكون العناصر الأساسية لشبكات العلاقات على مدى البلد فى الهند من الروابط الطائفية والعائلية التى تستمر لأجيال طويلة وتربط هذه العلاقات بين مجموعة من القرى وأخرى ، أو بين العائلات فى قرية مع العائلات التى تشبهها فى الثقافة والمركز الاجتماعى فى قرية أخرى كما لو كان البناء الاجتماعى للمجتمع البدائى المغلق قد تمزق وتفرقت أجزاؤه على مساحة شاسعة . وهكذا يعتبر ريف الهند مجتمعا قبليا أو بدائيا أعيد تنظيمه كى يتلاءم مع حضارة معينة .

أما ضيق أو اتساع عين الشبكة ومدى أو نطاق الشبكة نفسها وأنواع الاهتمامات البشرية التى تخدمها العلاقات التى تتكون منها عين الشبكة ، واستقرار العلاقات سواء كانت عرضية أو دائمة ، فهذه كلها عناصر يجب تؤخذ فى الاعتبار عندما نحاول فهم شبكات العلاقات على مدى البلد .

وربما قمت فى هذه الملاحظات بتوسيع وتعميم الأنواع الثـلاثة لأوضاع العلاقات الاجتماعية بطريقة أكثر مما كان يقصد بارنز عندما لاحظ وجودها فى ريف النرويج . اذ اننى أعتبرها نماذج أو أمثلة تساعد الكثيرين الذين سيقومون بدراسة المجتمعات التى تعتبر أكثر تعقيـدا وأكثر ارتباطا مع المجتمعات الأخرى من المجتمعات القبلية البدائية ، وانى أعتقد أنه قد يفيد كثيرا أن نبحث عن تلك الأنواع الثلاثة للانساق أو « المجالات » التى وجدها بارنز فى أبرشـيه برمنز الا وهى : تدرج الجماعات التى تتخذ من الاقليم قاعدة لها ، ومجالات النشاط الاقتصادى المستقلة ، وكذا شبكات العلاقات على مدى البلد ، ولا توجد هـذه الأنواع الثلاثة فى المجتمعات القروية فقط ، فهى تبدأ فى الظهور فى المجتمعات البدائية غير الأوربية أيضا كما تظهر فى الدول الحديثـة ، ويستطيع المرء أن يعتبرها ثلاثة من الطرق التى ينهار فيها المجتمع البدائى المنعزل أو يتمزق ويمتد عبر الأفق الاجتماعى أو تتفوق عليه المجتمعات الأخرى ، ويمكن ملاحظة شبكات العـلاقات على اتسـاع البلدة داخل القبائل الافريقية التى تنمو ويزيد حجمها حتى تشـغل مساحة واسعة تنشأ عليها المنازل والمستوطنات المتفرقة ، ولا تشـمل هذه الشبكات أى مجموعة من الفلاحين ، ولا بد أن هذه الشبكات قـد نمت تماما كما حدث بين القرى فى المناطق الجبلية فى المكسيك قبـل مجىء الأسبان وبما أن العاصمة ازتك Aztec كانت مركـزا حضريا للصفوة والسادة ، فقد أصبحت شبكات العلاقات بين السادة فى العاصمة وبين الفلاحين فى هذه القرى قروية حقا ويمكن أن نصف كل شبكات العلاقات بأنها قروية فى كل مكان نشأت فيه الحضارة بسبب وجـود المدن فى هذه الحالة . ولكن يجب أن نعرف فى هذا الصدد الاختلافات المحلية داخل الحضارات الكبيرة . فمثلا نجد أن شبكة العلاقات الوثيقة بين الفلاح والسادة فى انجلترا ظلت تحتفظ الى وقت متأخر بشىء من شكل القرية أو المزرعة فى العصور الوسطى ، ذلك لأن النبلاء الانجليز كانوا أنفسهم أناسا قرويين على عكس أمثالهم فى فرنسا أو ايطاليـا الذين عاشوا فى حضارة المدينة وابتعدوا ابتعادا كبيرا عن الفلاحين .

كما يظهر الميدان الاقتصادى فى ذلك « السوق الصامت » الذى نوه بأهميته الكتاب الألمان الذين كتبوا عن الاقتصاد البدائى . وقد نما

ذلك السوق الصامت فى مجتمعات ما قبل التعليم ، ويظهر فى أسواق ابومى الكبيرة ، ويقال أن عشرة آلاف شخص قد يشتركون فى مثل هذا السوق ٣٣ . ولكن الصناعة التى تنشأ خارج الحياة المحلية البدائيـــة وخاصة الصناعة الرأسمالية والتكنولوجيــة تجـــذب عامل الكامار من قريته الهندية للعمل فى مصانع القطن أو الجوت . كما تجذب رجـــل القبيلة فى غينيا الجيدة للعمل فى المزارع البعيدة ، وتعتبر « المجالات» الاقتصادية للفلاح أقل وضوحا وأقل تمزيقا للحياة المحلية من تلك التى تؤثر فى رجل القبيلة . فالرجل البدائى هو ذلك الشخص الذى سرعان ما يدخل فى الصناعة الحديثة عند ما تقـام فى بلده ، أما الفلاح الذى يمتلك الأرض فيتبع طريقة فى الحيـــاة قد تكيفت تماما مع كثير من جوانب الحضارة ، وهو بهذا يعتبر أكثر مقاومة لاغراء التصنيع ٣٤ .

ويتحدد الشكل السياسي المتكامل للمجتمع المحـــلى فى كثير من المجتمعات غير الاوربية بدرجة كبيرة عن طريق شيوخ القبائل والمجالس والسلطات الأخرى التى تؤثر فى أكثر من جماعة أو مستوطن ، وفى كثير من المجتمعات الافريقية تتخذ السلطة السياسية والادارية شـــكل التدرج الهرمى ، كما توجد علاقات أو ارتباطات بالسلطة من خـــارج الاقليم ، ويتمثل ذلك فى « القطاعات » والولاء للملكات والمخازن بين قبائل اللوزى Lozi ، حيث يتحد أفراد المستوطنات المختلفـــة عن طريق ارتباط عام بمركز من مراكز السلطة التى تتبع بدورها الملك ٣٥ وفى الممالك الافريقية مثل مملكة داهومى تتحد وحدات النظام السياسي الذى يتوسط بين جماعات القرابة والدولة من داخل الاقليم ، وعلى هذا فاننا نجد ذلك « التدرج للجماعات المتمركزة اقليميا » الذى وجده بارنز فى النرويج ، اذ توجد احـــدى ملامح ذلك التـــدريج الذى تتميز به المجتمعات التى توجد بها علاقات قديمة مع الصفوة التى تعتبر ثقافتهم ثقافة قروية تطورت فى اتجاه مختلف ، وقد أشرت الى نصفى المجتمع فهناك نوعان من الأفراد القرويين : الفلاحون والسادة الأكثر تحضرا . ويتخذ كل من هذين النوعين مواقف معينة تجاه النوع الآخر ، كما تكمل هذه المواقف بعضها البعض (رغم أنها لا تقوم دائما على أساس المجاملة) . كما تحدد تلك العلاقات بين هذين النوعين من الأفراد مركز كل منهما بالنسبة للآخر ، ويدرك الفلاحون الذين يمثلون النوع الأدنى من الأفراد

السلطة السياسية التى يتمتع بها النوع الآخر كما يدركون أيضا « قيادتهم لهم فى المجال الأخلاقى » ٣٦ .

وسيجد الأنثروبولوجى الذى يتوصل الى المجتمع القــروى من خلال دراسة البناء الاجتماعى للقرية أن أجزاء هامة من ذلك البناء تتكون فى القرية من عدد قليل من الأفراد أو ربمـــا من بعض الأفــراد الذين لا يقطنون القرية ، ولكن يعيشون فى مكان آخر . وقد لا يكون هنـــاك سادة أو صفوة بشكل مباشر فى المجتمعات القروية التى تبعد عن البلدة أو المدينة أو المقاطعة . فلم يكن هناك سادة أو صفوة فى القرية البرازيلية التى قام بوصفها بيرسون Pierson ومساعدوه اذ يقــوم القرويون أنفسهم بادارة شئونهم المحلية ، ولكنهم يرتبطون بعلاقات مع الســادة عندما يذهبون الى المدينة أو عندما يأتى الموظفـــون الرســميون الى القرية ٣٧ . وفى قرية يوكاتيكان التى قمت بدراستها كان معظم الناس من الفلاحين وكانت تربطهم علاقات كثيرة ودائمة مع سادة المدينة الأكثر تحضرا والذين يطلقون عليهم اسم Dzulob . ولكن المدرس كان ذلك الشخص الوحيد من ذلك العالم الخارجى الذى يقيم فى القرية ، وفى كثير من القرى الأوربية يوجد عدد قليــل من الأفـــراد على جانب من التعليم ، ويتسمون بأخلاق الحضر ، ويقومون بادارة شئون الفلاحين التى تتعلق بالدولة ، وقـــد أطلقـــوا كلمـــة « الطبقـــة المتعلمـــة » Intelligentsia على هؤلاء الأفراد الذين يتوسطون من الناحية الثقافية والادارية بين الحياة المحلية والحياة العامة . وقد استخدمها ســاندرز Sanders للدلالة على تلك المجموعة الصغيرة من الأفراد التى تتكون من العمدة والطبيب والمدرسين فى القرية البلغارية ، وتربط بين هؤلاء الأشخاص علاقات قوية كما يظهر انفصـــالهم التام عن الفـــلاحين ، ويتحدثون فى السياسة والأدب ، كما يقومون بتنظيم وقيادة الاحتفالات الوطنية ، وهكذا يدرك الفلاحون أن السادة أناس أفضل وأرقى منهم ، ويقول ساندرز فى هذا الصدد . (ويتمتع طبقة المتعلمين بأهمية أكبر مما تدل عليه مهامهم وواجباتهم فى القرية ، حيث أنهـم يمثـــلون الدولة والكنيسة القومية ونظام المدرسة فى الدولة . وتستند مكانتهم الاجتماعية العالية لا على أساس النفوذ الذى كانوا يتمتعون به كممثلين لأنظمـــة السلطة فى الدولة فحسب ، ولكن أيضا على أساس أنهم متعلمون) ٣٨ .

وقد قال مينر Miner ما يشبه ذلك كثيرا عن القسيس والسيناتور عضو مجلس الشيوخ فى الأبرشية القروية فى كندا عندما كانت تحت الحكم الفرنسي ، اذ ينفصل هذان الشخصان وكذا أقرباؤهم عن مجتمع الأبرشية . بحيث لا يوجد بينهم وبين سكان الأبرشية الآخرين أية اتصالات أو علاقات اجتماعية ، ويرجع وضعهم الاجتماعى الى اتصالاتهم مع العالم الخارجى بعيدا عن الأبرشية ، وهو الميدان الذى وجدوا فيه اعترافا بمكانتهم أكثر مما تستطيع أن تقدمه الأبرشية لهم ٣٩ . وفى النرويج قديما كان القساوسة يعيشون فى الريف ، وكان لكل أبرشية موظفوها الحكوميون الذين كانوا يعتبرون من الصفوة الحضرية ٤٠ .

وتعتبر مدينة الكالا Alcala الأندلسية التى قام بوصفها حديثا بيت ريفرز Pitt-Rivers مثالا بينا على ذلك المجتمع الذى يتكون من نوعين من الأفراد يمثل كل منهما نصف المجتمع المزدوج ، ويعيش كلاهما فى مجتمع واحد مترابط ٤١ وبما أن هؤلاء المزارعين يعيشون فى البلدة وليس فى قرية ريفية ، أو يتفرقون فى أحد المستوطنات ، فلا يمكن اعتبارهم قرويين بمعنى الكلمة رغم أن طريقتهم فى الحياة والتفكير تشبه فى نواح كثيرة حياة وطريقة فلاحى ايطاليا وبلغاريا ويعيش فى البلدة أيضا طبقة متعلمة يطلق عليها الاشخاص الذين يعملون على الأرض أو الذين يعيشون نوعا من الحياة الأدنى اجتماعيا اسم السادة Senoritos ويتميز هؤلاء السادة بأخلاقهم وعاداتهم الراقية ، وبتحملهم لمسئولية حماية هؤلاء الأفراد الذين يعتمدون عليهم ، كما يتميزون بالاحساس الشديد بالشرف ، وبكونهم لا يشتركون فى العادات المحلية . وهم يمثلون الطبقة الحاكمة الصغيرة ، ويعملون كوسطاء من الناحية الادارية والثقافية بين المدينة وشبه الفلاحين . ويتحد السادة مع العامة ضد قرية أخرى منافسة أو ضد موظفى الحكومة الذين يأتون من الخارج بغرض النهب والسلب ، ولكنهم يتحدون مع سادة القرى الأخرى فى أعمال الادارة والتجارة . ويرى الباحث أن كلا من هاتين الطبقتين الاجتماعيتين لها طريقتها فى الحياة التى تتناقض مع طريقة الطبقة الأخرى . فيرى المرء أنه بدلا من عقوبة القانون توجد عقوبة استهزاء القرية وسخريتها ، وبدلا من سيطرة الحكومة على الأطعمة والأغذية تنتشر الطواحين السرية والسوق السوداء ، وبدلا من الحرس المهنى يوجد المهربون وأعضاء

العصابات ، وبدلا من المدارس يوجد المدرسون الريفيون . كما يحل الطبيب البيطرى والصيدلى محل الطبيب ، وداية القرية محل الممرضة المتمرنة . ومن أجل الاستعانة بقوة الذين فى مثل هذه الامور يحل عابد الأجرام السماوية محل القسيس » ٤٢ وهنا نجد عامة الشعب فى المدينة والسادة المتحضرين فى بناء اجتماعى واحد ومسكن عام مع العامة .

وهكذا يشمل البناء الاجتماعى للمجتمعات القروية وشبه القروية علاقات النفوذ الثقافى والمثل الذى يقتدى بين نصف المجتمع أو النسق الاجتماعى الذى يتكون من السادة ونصفه الآخر الذى يتكون من الفلاحين . ولا يكفى أن نصف هذه العلاقات بانها علاقات بين الحاكم والمحكوم و المستغل أو المستغلين رغم أنه من المحتمل وجود هذه العناصر . بل يجمل بالدارس أن يصف لنا ما تتضمنه هذه العلاقات بين الفلاحين والسادة من النفوذ والاحتقار أو الشعور بالتفوق أو النقص ، وأمثلة الامتياز والتفوق التى يجب اتباعها والتشبه بها . أو أمثلة الدناءة والوضاعة التى يجب تجنبها . فالشخص القروى يعرف أنه فلاح بسيط ساذج ، وكذلك نجد أن الرجل المتعلم الذى يعيش من ناحية فى المجتمع المحلى أو على الأقل يعيش بعقله بين الدوائر الأكثر تحضرا يحتقر الفلاح . وقد صاح هاملت قائلا : (كم أنا وغد وعبد قروى) فى احدى حالاته النفسية المتكررة التى كان يوهن فيها من شأنه وينتقص من قدره . وفى كل أنحاء العالم تتضمن العبارات والكلمات التى يطلقها سكان الحضر على سكان الريف كثيرا من الاحتقار والتنازل الذى يدل على احساس بالتفوق أو على الوجه الآخر من الصورة نوعا من الاعجاب بفضائل البسطاء والبدائيين والأقوياء شديدى القدرة على الاحتماء . ويعترف القروى من جانبه بنقصه النسبى فى الثقافة والعادات ، ولكنه يتمسك بالفضائل التى تطلق عليه ويعتبر رجل المدينة شخصا عاطلا وزائفا ومبذر . كما يدرك أنه فى وضع أقل بالنسبة للثقافة العامة . ولكنه يدرك أيضا أن طريقته فى الحياة تفوق طريقة رجل المدينة من الناحية الأخلاقية .

ويجد الدارس للبناء الاجتماعى فى المجتمع البدائى المنعزل نسقا أبسط وأصغر من ذلك النسق . اذ أن العلاقات الاجتماعية فى هذا المجتمع متماسكة ومتلائمة وشخصية الى حد كبير . ومع نمو وانتشار الحضارة

تمتد العلاقات الاجتماعية خارج المجتمع المحلى وتفقد الكثير من تماسكها وانسجامها ، « كما هو الحال عندما تتطور وتنمو ميادين النشاط الصناعى » . وبذلك تتكون مجموعات متنوعة من العلاقات الرسمية وغير الشخصية . وفى المجتمعات القروية نرى تكيفا مستقرا نسبيا بين الحياة المحلية وبين الحياة العامة فى الدولة أو الاقطاع ، كما نجد نسقا اجتماعيا متطورا توجد به ثقافتان داخل ثقافة واحدة ، ونسقا اجتماعيا يتكون من نصفى المجتمع العلوى أى السادة والسفلى أى الفلاحين . ويجب أن نؤكد أهمية العلاقات الثقافية بين نصفى المجتمع . وقد قال شجوبرج Sjoberg فى هذا الصدد .. « وتتمثل فى الصفوة والسادة بالنسبة للفلاحين تلك الانجازات العظيمة التى يقدرها الجميع . كما تمد النسق الاجتماعى للقرية بتبرير عقلى بوجوده واستمرار بقائه » . فالقسيس وعضو مجلس الشيوخ فى الأبرشية الكندية وطبقة المتعلمين فى القرية البلغارية والسادة فى الأندلس والمعلمين فى المجتمعات القروية فى جزر الهند الشرقية ، كل هؤلاء انما يعبرون بالأمثلة والتدريس عن صورة أخرى راقية من نفس الحياة التى يحياها الفلاح العادى . ويمكننا أن نعتبر الثقافة القروية دائرة صغيرة تتقابل وتتشابك مع ثقافة أكبر وأقل تحديدا ، أو قد تعتبر الحياة القروية كدائرة أصغر لا تتعرج ولا تصعد سلم الحضارة الحلزونى . واذا كان على دارس المجتمع القروى أن يصف انساق العلاقات الاجتماعية فى هذا المجتمع ، فعليه أن يقوم بدراسة تلك العلاقات الاجتماعية التى تربط بين ابعاد الحضارة الأعلى والبعد القروى الأدنى . وسنبحث ذلك فى الفصل التالى :

الفصل الثالث

التنظيم الاجتماعي للتراث (أ)

انبثق مفهوم الثقافة (ب) عن علم الأنثروبولوجيا الذى قام على دراسات الشعوب البدائية والقبلية المنعزلة . فقد كان لكل من سكان جزر الأندمان والتروبرياند ثقافة معينة . كما كانت هناك ثقافة بين قبيلة أراندا Aranda فى أستراليا وقبيلة الزونى Zuni . وتعتبر كل ثقافة من هذه الثقافات نسقا مستقلا يتمتع باكتفاء ذاتى . وقد وجدت الكلمات التى توضح مفهوم ذلك « النسق الثقافى المتكامل » . فهو « نسق يدعم بنفسه بمعنى أنه لا يحتاج الى أى ارتباط أو علاقة مكملة أو متبادلة أو تابعة او ضرورية مع نسق آخر » . وتعتبر هذه الوحدات أو هذه الثقافات كالتى تميز الأندمان والزونى « أنساقا لأنها تتكون من أجزاء متداخلة تتكيف وتتلاءم مع بعضها البعض ، وتعتبر كاملة لأنها لا تحتاج الى نسق آخر كى تستمر فى أداء وظيفتها » . وقد يرى الأنثروبولوجى فى مثل هذا النسق ما يدل على وجود عناصر الثقافة التى انتقلت الى الجماعة أو القبيلة من جماعات أو قبائل أخرى ولكنه يدرك أن ذلك النسق يمكنه الاستمرار والبقاء بمفرده ، كما لا يحتاج فى وصف أجزائه وطريقة عملها الى الاشارة الى أى شيء خارج تلك الجماعة الصغيرة . وهناك استثناءات لهذه القاعدة ، وذلك عندما تعتمد الجماعة أو القبيلة على جماعة أو قبيلة أخرى كى تحصل على خدمة أو سلعة معينة . ولكن هذه الاستثناءات قليلة جدا ولا تغير من الحقيقة القائلة بأن هذه الثقافة تظل قائمة عن طريق انتقال التراث من جيل الى آخر بين هؤلاء الأفراد الذين يكونون المجتمع المحلى فقط .

(أ) التراث Tradition هو عناصر الثقافة التى تتناقل من جيل الى آخر بل أن هيرسكوفيتس Herskovits يرى ان التراث مرادف للثقافة ولو ان استعملها « قد اكتسب مضامين من انواع مختلفة أو صفات مختلفة للسلوك الاعتيادى » . انظر – قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفلكلور ، مادة تراث ، ص ٨٨ – ٩١ .

(ب) انظر هامش رقم (٣٤) من المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

ومن ناحية أخرى لا تعتبر ثقافة المجتمع القروى ثقافة كاملة ، اذ هى احد جوانب أو أبعاد الحضارة (أ) التى هى جزء منها . وبما أن المجتمع القروى مجتمع نصفى ، فالثقافة القروية ثقافة نصفية (ب) . وعندما ندرس مثل هذه الثقافة نجد أمرين لا ينطبقان على القبيلة او الجماعة البدائية المنعزلة ، ولكنهما ينطبقان على الثقافة القروية . فنكشف أولا أنه لكى تظل الثقافة القروية قائمة فيتحتم ان تكون على اتصال دائم مع المجتمع المحلى من ناحية التفكير الذى ينشأ خارجها ، ذلك لأن الحياة الفكرية والدينية والأخلاقية غالبا ما تكون غير كاملة فى القرية . ويجب على الدارس أن يتعرف أيضا على ما يدور فى أذهان المدرسين والقساوسة والفلاسفة الذين تؤثر طريقة تفكيرهم فى الفلاحين، تاثرها بهم . واذا اعتبرنا الثقافة القروية نظاما متزامنا synchronic فاننا لا يمكن أن نفهمها تماما عن طريق معرفة ما يدور فى اذهان القرويين وحدهم وثانيا تحتم علينا القرية الاهتمام بذلك التاريخ الطويل من التفاعل بينها وبين مراكز الحضارة . فللثقافة القروية تاريخها الواضح ، ونحن مطالبون بدراسة هذا التاريخ الذى لا يعتبر تاريخا محليا ، فهو تاريخ الحضارة التى تعتبر الثقافة القروية أحد مظاهرها المحلية . وقد أوضح جورج فوستر (ج) George Foster هاتين النقطتين بخصوص التعريف على الجانبين الأصليين للثقافة القروية عندما استعرض تجاربه فى مجتمعات أمريكا اللاتينية ، وكتب عن هذه المجتمعات ذاكرا أنه « يتم فيها تزويد واستكمال الثقافة المحلية عن طريق اتصالها بالانتاج العلمى والفكرى للطبقات الاجتماعية الأخرى ، ٢ وقال أيضا « أن أوضح الاختلافات بين المجتمعات البدائية حقا القروية هو أن الأخيرة كان لها اتصال دائم مع مراكز الفكر والتطور الفكرى عبر مئات السنين » ٣ .

(أ) انظر نفس الهامش السابق .

(ب) راجع المقدمة التحليلية للترجمة العربية .

(ج) جورج فوستر (من مواليد ١٩١٣) انثروبولوجى امريكى تخصص فى دراسة الجماعات الاسبانية في أمريكا الشمالية ، وديناميات الثقافة ، والانثروبولوجيا التطبيقية . انظر قاموس الاثنولوجيا ، ص ٣٨٧ .

وهذه تجربة جديدة بالنسبة لعالم قام بدراسة المجتمعات المنعزلة البدائية مثل القبائل الاسترالية وسكان جزر الاندمان والتروبرياند فهى تتطلب أفكارا جديدة ومناهج بحث جديدة . وبالنسبة لدراسة القــرى تتطلب هذه التجربة الاهتمام بالابحاث التى قام بها المؤرخون ودارسو الادب والدين والفلسفة ، وبذلك تزيد من صعوبة علم الانثروبولوجيا ؛ ولكنها تجعله مشوقا وممتعا .

كيف يتسنى لنا فهم تلك الثقافة المركبة التى تستحق أن يطــلق عليها كلمة (الحضارة) ؟ فلنبدأ بذلك الاختلاف بين التراث الكبير great tradition والتراث الصغير little tradition ، ذلك الاختــلاف الذى طالما ظهر فى المناقشات التى دارت حول الحضارات . وقد اخترت هاتين العبارتين من بين كثير من العبارات الاخرى التى تشمل أيضــا (الثقافة الرفيعة) و (الثقافة الدنيا) و (الثقافات الشعبية والكلاسيكية الراسخة) أو (التقاليد الشعبية وتقاليد المتعلمين) وساستخدم أيضــا عبارة (الثقافة المتدرجة وثقافة العامة) . ويوجد فى كل حضارة تراث كبير للاقلية المفكرة وتراث صغير للاغلبية غير المفكرة . وينشأ التراث الكبير فى المدارس والمعابد ، ما التراث الصغير فينشأ ويظل قائما فى حياة الأفراد غير المتعلمين داخل مجتمعــات القــرية . ويعتبر تراث الفلاسفة وعلماء الدين ورجال الأدب تراثا يتم تكوينه بوعى ويتــداوله جيل بعد جيل . أما التراث الصغير فيؤخذ فى اغلب أمره على انه شيء عادى ولا يخضع لكثير من التدقيق والتهذيب أو الاصلاح الواعى .

واذا ما دخلنا قرية تنتمى الى حضارة معينة سنرى أن الثقافة قــد تدفقت اليها عن طريق المدرسين ومن يهتدى بهم من الذين لم يسبق لهم زيارة هذه القرية والذين يقومون بأعمالهم فى الدوائر الفكرية والعلمية التى تبعد عنها كثيرا فى المكان والزمان . فعند ما قام جورج فوســتر بدراسة قرى أمريكا اللاتينية من ناحية الحضارة ، رأى كل ما دخل هذه القرى من حضارة أوربا قبل الثورة الصناعية مثل سواقى الرى وبعض عناصر المذهب الكاثوليكى من (الأفكار والتأملات الفلسفية والدينيــة لكثير من أحسن المفكرين فى التاريخ منذ قرون عديدة) .

ووجد أيضا التنظيم الكنسي والمسرحيات الدينية والنظم السياسية

ونظـــام العرابين (أ) ودراســـات جالين وهيبوقراط Hippocrates فى علم الأمراض كما وجد بعض الرقصات وكذلك مصارعة الثيران التى انتقلت الى فلاحى المكسيك وبيرو من السادة والنبلاء الإسبان . وتوجد فى كل قرية ريفية أشياء مماثلة .

وهناك تداخل كبير بين هذين التراثين . فقد أثر أحدهمـــا فى الآخر لمدة طويلة وســـيظلان كذلك . فتعاليم جالين عن أنواع المـزاج الأربع (ب) Four humors ربما قد أوصت بها بعض الأفكار المتداولة فى مجتمعات صغيرة كانت فى طريقها الى الحضارة ، ولكنها لم تأخذ بناصيتها بعد . وبعد أن تطورت على أيدى بعض المفكرين انتقلت الى الفلاحين الذين قاموا بتفسيرها كى تتفق مع وجهة نظـــرهم وأفكارهم المحلية . كما نشأت الملاحم العظيمة من بعض عناصر القصص التقليدية التى يسردها كثير من الناس . ثم طبقت هذه الملاحـــم على الفلاحـين وأدخلت عليها التعديلات لكى تتلاءم مع الثقافات المحلية أما أخلاقيـات العهد القديم Old Testament فقد ظهرت عند الشعوب القبلية وجاءت الى المجتمعات القروية بعد أن خضعت لتفكير الفلاسفة ورجال الدين . وقـد تحدد مضمون القرآن بظهوره بين الشعوب العربية وليس بين شـــعوب

(أ) انظام العرابين God Parenthood هو عبارة عن الآباء فى التعميد God father عند المسيحيين .

(ب) صنف جالين الامزجة البشرية الى أربعة أنواع :

١ - المزاج الدموى Sanguine

٢ - والمزاج الفاتر (غير المبالى Phlegmatic

٣ - والمزاج الحـاد Choleric

٤ - والمزاج الكئيب الحزين Melancholic

(ج) ان هذه العبارة التى تبدو انها - ظاهريا - لا تعنى اى طعن موجه الى الدين الاسلامى الحنيف ، تحمل فى طياتها السموم التى يطلقها أعداء الاســـلام سواء عن جهل أو سوء نية وعمد وسبق اصرار . ان هذه السموم تعرف أول ما تعرف طريقها الى عقول المسلمين ولا سيما كثير من المثقفين - بكل اسف باسم التقديمية الاسلامية أو العلمية القائمة على الافتتان بالعلوم الطبيعية الى درجة التاليـــة ، وبالحضارة المادية الغربية واعتبارها أرقى الحضارات . أن هذه العبارة التى يسوقها ردفيلد تعنى أن الاسلام هو تصوير للبيئة العربية القبلية ، وبذلك يكون القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلى ويكون القرآن من هذه الوجهة موضوع ، وليس وحيا من عند

الصين (ج) . وكذلك لم يخترع كونفوشيوس (١) Confucius تعاليمه بمفرده ومن ناحية أخرى نجد أن هذه التعاليم « تعاليم القرآن وتعاليم كونفوشيوس » قد فهمها الفلاحون بطريقة تختلف عما يقصده المدرسون. ويمكن اعتبار التراث الكبير والتراث الصغير تيارين مختلفين فى التفكير والسلوك رغم أن كلا منهما ينبع من الآخر ويصب فيه . وتشبه الصورة الحقيقية للعلاقة بينهما تلك « الرسوم البيانية » التى نراها أحيانا والتى تمثل الارتفاع والتغيير الذى يطرأ على الحضارات والأديان عبر الزمن .

ولا يمكن التمييز بين هذين النوعين من التراث فى القبائل والجماعات المنعزلة جدا . فعند قراءتنا لما كتبه راد كليف براون عن جزر

الله ، وان القرآن مرآة لحياة قوم باعينهم : بعقائدهم وتقاليدهم ، وهم العرب فى شبه جزيرتهم لا غيرهم .

وبهذايلتقى ردفيلد فى الواقع مع آراء الكثرة من حاملى راية الاستشراق والتبشير التى دونوها فى مؤلفات شهيرة متعالمة مثل كتاب « المذهب المحمدى » للمستشرق الانجليزى « جب » زاكم الذى كان عضوا فى المجمع اللغوى بالقاهرة ، ثم أستاذ للدراسات الاسلامية فى جامعة « هارفارد » الامريكية ، ثم هو من كبار محررى وناشرى « دائرة المعارف الاسلامية » . وفى هذا الكتاب يذهب « جب » الى ان دعوة الاسلام دعوة محلية ، لجماعة خاصة ، ولحياة خاصة ، اذ يقول بأن الاسلام انطباع للحياة الجاهلية ، وان القرآن ليس وحى من عند الله ، لأنه لو كان كذلك لكان الناس كافة فى كل مضان ورمان . وما الى ذلك من مغالطات لا نستطيع هنا اقصائها تضييق المقام ، وهى مع كثرتها لا يخفى مكان الرد عليها لو أحسن تدريب دعاة الاسلام . للوقوف على تفصيلات بخصوص هذه النقطة انظر ـ أحمد موسى ، لماذا لا يلتقى المسلمون فى عصر طابعه اللقاء ، محاضرة عامة مطبوعة القيت بجامعة أم درمان الاسلامية فى ٢٢ يناير ١٩٦٩ ، مطبعة أحمد مخيمر ، القاهرة ، ص ٢٣ وما بعدها .

(١) كونفوشيوس حكيم صينى شهير . ويعنى اسم كونفوشيوس فيلسوف قبيلة كونج وحكيمها ، وقد أصبح فيما بعد رسولها ومؤسس ديانتها . ويمكن اعتبار كونفوشيوس مؤسس أول مدرسة اجتماعية فى الحضارات الشرقية القديمة ، أسهمت فى كثير من الدراسات الاجتماعية والسياسية والاخلاقية ، وكانت لها آثارها العميقة فى الحياة الفكرية والعملية للصين قبل الثورة الشيوعية المعاصرة . انظر ـ أحمد الخشاب التفكير الاجتماعى ، دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ١٠٣ وما بعدها . وكذلك انظر ـ مصطفى الخشاب ، تاريخ التفكير الاجتماعى ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ، ١٩٥٩.

الاندمان ، لا نجد شيئا عن أى جانب من جوانب الدين أو الفكر من قبل الأقلية المتعلمة . فمن الواضح أن ما يعرفه كبار السن لا يختلف عما يجب أن يعرفه أى شخص آخر . فان انتشار المعرفة والمعتقدات بين الشعب كله قد تتسم به المجتمعات البدائية الكبيرة جدا التى تتمتع بتطور فى فنون الحياة أكثر وأعظم مما يتمتع به شعب الاندمان . وهكذا لا نجد بين شعب التيف فى نيجيريا ـ وهى قبيلة تشمل حوالى مليون من السكان الزراعيين ـ « أى مصطلحات لغوية فنية لأنه لا يوجد أفراد او طبقات من أصحاب المهن » ، كما لا يوجد أى تخصص أكثر من ذلك الذى يأتى نتيجة الجنس أو السن . اذ يعمل كل شخص فى أى جانب من جوانب الحياة القبلية » ٦ . فذلك مجتمع بدائى يفتقر الى التراث الكبير . وبين شعب المورى (أ) Maori كانوا يدرسون (جانبين مختلفين من جوانب الأساطير الراقية (ب) . وكان أحدهما يدرس فى مدرسة التابو (ج) Tabu لم يكن غالبية الشعب على علم بهذا الجانب ، ولكن كانت تحتفظ به الطبقة العليا من التوهونجا tohunga « الخبراء والكهنة » وعدد قليل من الأشخاص الآخرين . أما الجانب الآخر فكان يتم نقله الى الشعب بأكمله ، وكان يتسم بالغرابة والصبيانية على عكس الجانب الآخر الذى تتمتع به الأقلية المتعلمة ٧ . وفى غرب أفريقيا حيث أقام القدماء

(أ) توجد قبيلة المورى فى قارة استراليا (منطقة بولينيزيا) .

(ب) ليس من السهل ان تحدد ما هى الاسطورة ، ولكن هناك سمات عامة للاساطير فهى تتميز أولا بطابع تقليدى وهذا قد يعنى انها قد ترجع الى Mythopoycage الذى يمثل مرحلة تقدم من مراحل الفكر الانسانى ـ بيد أن بعض الاساطير مثل القصص الدينية التى تدور حول حياة القديسين قد نشأت تاريخيا وقد يظن أن الاسطورة تنبت فى خيال فرد معين ، غير أن هذا غير صحيح . اذ انه يبدو أنه من الضرورى ان تعبر الاسطورة عن روح العصر أو تتفق وتندمج معه أو تصبح ذات صبغة عامة كجزء من التراث الشعبى يرددها الجميع ، وشيئا فشيئا لا يذكر الناس متى نشأت وعلى أية صورة بدأت وأصبحت الميثولوجيا Mythology هى الاصطلاح الذى يطلق على مجموعة هذه الاساطير نفسها . فيتولوجيا اليونان مثلا تعنى كافة الاساطير المتداولة عن عظمة الاغريق وسير أبطالهم وأساطيرهم ونشاط آلهتهم . انظر ـ أحمد الخشاب ، الاجتماع الدينى ، مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٢ وما بعدها .

(ج) كلمة التابو معناها الأمور المحرمة والمقدسة وتكتب أحيانا Tabu أو Taboo

من السكان الأصليين دولا معقدة يظهر الاختلاف بين ما نسبه التراث الكبير والتراث الأصغر فى سيطرة بعض الكهنة على عناصر العبادة التى يعتقد عامة الشعب أنها مبهمة غامضة لا يفهمها الا الأقلية المتعلمة . ويتم عزل الذين يريدون الالتحاق بهذه الطوائف الدينية أو هذه العبادات لمدة سبعة أشهر يتلقون خلالها تعاليم العبادة سرا كما يوجد أيضا اختلافات كثيرة فى فهم الدين بين الرجل العادى والمتخصص فمثلا يرى كهنة طائفة Sycult فى داهومى اختلافات بين الآلهة وصفات كل منهم ، ولكنها غامضة بالنسبة للاشخاص العاديين . وهناك تطور كبير فى التفكير المنظم المتخصص بين بعض الأفراد فى الشعوب السودانية التى قام الأستاذ جريول Griaule بدراستها .

وتدل هذه الأمثلة على الانفصال التام بين التراثين فى المجتمعات التى لا تمثل الحضارات الكبيرة فى العالم . اذ يزدوج مضمون المعرفة : فهناك مضمون بالنسبة للرجل العادى ومضمون آخر للمعرفة بالنسبة لأفراد التدرج وقد يقيم حملة التراث الكبير من الكهنة والفلاسفة البدائيين ، كما يقومون بنشاطهم بالقرب من الأفراد العاديين أو بعيدا عنهم .

ويمكن استكمال هذه السلسلة من المجتمعات غير الأوربية التى قمنا بترتيبها طبقا لدرجة وجود تراث كبير يمكن تمييزه سواء فى الماضي أو فى الحاضر ، بالاشارة الى المجتمعات القديمة فى مايا والمكسيك . فهذه المجتمعات تحقق السلسلة المنطقية لأن هذه الشعوب التى تقطن أمريكا الوسطى (أ) كان لها بدون شك ما يمكن أن نسميه بالحضارة ، اذا كان نمو التراث الكبير أحد علامات الحضارة . ونقلا عن أحد الدارسين البارزين الذين قاموا بدراسة هذه الحضارات ، يمكننا أن نتحقق من وجود ثقافته الخاصة أو الثقافة المتدرجة لشعوب المايا فى المبانى الحجرية العظيمة للمعابد والقصور والفنون السامية والكتابة الهيروغليفية ، والحساب المعقد والفلك والتقديم والآلهة التى لاترتبط ارتباطا مباشرا بالأرض أو بقوى الطبيعة وحكم رجال الدين . ومن ناحية أخرى كان هناك ثقافة عادية (ب) خارج المدن التى توجد بها

(أ) انظر _ R. Redfield The Folk Culture of Yucatan, op, cit.

(ب) المقصود ثقافة العامة .

الاضرحه وفى القرى الصغيرة . وتقوم هذه الثقافة على بعض الانشطة كمورد للرزق على الحرف والقرية والهيئات التى تتصل بهم ، كما تقوم على ديانة أساسها قوى الطبيعة (١) واعتقد أن الدكتــور أرميلاس Armillas قد بالغ الى حد ما عندما تحدث عن الانفصال بين التراث الكبير والتراث الصغير بين شعب مايا قبل مجيء كولومبوس . ولكنه يدرك ذلك المفهوم الذى اهتم به ايضا ، فقد قال : ان المفهوم الجـديد للحضارة القديمة عند شعب المايا هو أنها كانت تتكون من طبقتين ثقافيتين أو من ثقافات فرعية تمثل مجموعتين اجتماعيتين ، الارستقراطيــة الحاكمة التى تقطن المراكز الرسمية ، والفلاحين من ساكنى النجوع . ومن الواضح أن المجموعة المسيطرة كانت من أصل دينى رغم انه قـد يكون منها فيما بعد بعض القطاعات العسكرية والتجارية . ويبدو أن مجتمعات القرية قد ظلت تحتفظ بثقافتها الشعبية التى تاثرت قليـلا بثقافة الطبقة العليا . وقد كان ذلك الطابع الحضرى الزائف المراكـز الرسمية اذا صح أنه لم يكن يقيم بها شعب كبيرة ، وانها كانت تنقصها بعض وظائف المدن الحقيقية ، وكذلك تلك الموانع والحواجز الطبقية القوية ، من العوامل التى عاقت تسرب التاثير الثقافى لهـذه المراكز الرسمية الى جماهير الشعب من القرويين وتحويل ثقافتها الشعبية الى ثقافة قروية . واذا صح هذا الرأى فلا بد انه كان هناك اختلاف شديد بين الارستقراطية المثقفة فى المايا والفلاحين من ناحية نظرتهمـا الى العالم ومن ناحية النظام الاخلاقى . وعلى ضوء هذا الرأى فان انهيـار حضارة مايا القديمة كان فى الواقع نتيجة لتحلل الطبقة الاجتماعيـة العليا المسيطرة تاركة الثقافات المحلية الشعبية سليمة تقريبـا . وقـد

---

(١) يعد العالم ماكس موللر Max Muller من أبرز المشـايعين للمذهب الطبيعى فى نشأة الدين الذى يرتكز اساسا على تقديس قـوى الطبيعة الكبرى وعبادتها فى قواها وعناصرها . هذا وهناك اعتبارات نفسية يبنى عليها – موللر – نظريته وهى أن الظواهر الطبيعية المستقرة التى تحيط بالانسان والتى تثير فيـه مختلف المشاعر والاحاسيس كافية لان تثير الفكرة الدينية . وقد ربط موللر هـذه الفكرة الدينية بفكرة اللامتناهى اذ أن كل شيء فى الطبيعة يرمز الى قوة لا متناهية ، فكل شيء فى الطبيعة يثير فى نفوسنا الاحساس باللامتناه وعن هذا الاحساس نشأ الدين . انظر – احمد الخشاب ، الاجتماع الدينى الذى سبقت الاشارة اليــه ، ص ١٠٤ – ١٠٦ .

أوضـــح ذلك لونجيير فى تقريره عن الكوبان . ولا يتعارض هـــذا الافتراض مع . معلوماتنا الضئيلة التى جمعت من أماكن أخرى عن هذا الانهيار » .

وهناك اقتناع متزايد بأن تطور الحضارة الأمريكية القديمة قد مر بمراحل مختلفة ، وكون علاقات ثقافية واجتماعية تشبه تلك العلاقات التى ظهرت فى بداية حضارات العالم القديم . ان عناصر تطور الحضارة التى تشترك فيها كل الحضارات القديمة مثل انقسام الثقافة الى تراث العامة وتراث الخاصة أو التراث المتدرج ، وظهور الصفوة المختـارة التى تمسك بزمام السلطة الدينية والدنيوية والتى يوجد بينها بعض المتخصصين الذين تنشأ على أيديهم الحياة الثقافية ، وكذلك تحول الشعوب القبلية الى شعوب قروية ، ويمكن فى هذا المجال استعارة جزء من الأحـــداث التى وقعت فى أمريكا الوسطى ، ولكن هذه الأحداث تبعد بطبيعة الحال عن مجال ملاحظتنا المباشرة كما يمتلىء سجل هذه الأحداث بالتأثيرات القوية للحضارات الأخرى التى غزت أمريكا من الخارج .

وفى حالة المجتمعات القروية فى أمريكا اللاتينية ، نجد ما يسترعى انتباه دارس الثقافة هو تأثير الحضارة الغـازية التى لم تكن حضـــارة أصلية . بل جاءت الى المجتمع المحلى من الخارج . وقد اسـترعى ذلك انتباه جورج فوستر ، حيث وجد عنصر الثقافة التى انتقلت عن طـريق السادة الأسبان الى المجتمعات التى يحتمل أن يكون الهنود الأمريكيون قد كونوها ، ولكن حضارة المكسيك وبيرو تعد من الحضارات المهجنــة أو المولدة . كما يمكن أن نسميها بالحضارات الثانوية على عكس الحضارات الأولية فى الهند والصين حيث نجد أن الحضارة الأصليــة التى نمت من بين الشعوب غير المتحضرة التى تنتمى الى هذه الثقافة بعينها وحولتهم الى ذلك النصف القروى الذى ينتمى الى نفس هذه الحضارة (ومن المؤكد أن الهند والصين قد تأثرتا منذ نشأتهما بالحضارات الأخرى ، ومع ذلك ظلت حضارتهما الأصلية قائمة . ولذلك لا يزال الفلاحون الهنود والصينيون مرتبطين بحضاراتهم) .

ونعتبر بعض الثقافات المحلية فى أمريكا اللاتينية جوانب غير كاملة من التراث الكبير فى أسبانيا والتراث الكبير لهذا الجزء من أمريكا فى

الأزمنة القديمة . ولو أننى درست قرى يوكتان على أنها بعض جوانب الحضارة ، لاعتبرت ثقافة القرية تشـــير الى التراث الكبير الكاثوليكى الأسبانى . وتشير أيضا الى تراث كبير قد انقرض الآن ، وكان ذات يوم قائما فى مدن الأضرحة فى يوكتان على أيدى الكهنة المتخصصـــين فى الفلك . وقد قام الكهنة فى القرى التى قمت بدراستها بالطقوس الدينية وتلاوة الصلوات التى كان من الممكن تفسيرها اذا عرفنـــا نوع الطقوس والأفكار التى تتصل بها فى مجتمـــع تشش اترا Old Testament أو كوبا Galen وتشتمل بعض الصلوات التى تتلى الآن فى قرى مايا الحديثة مع بعض العبارات التى كان يفهمها بكل تأكيد الكاهن المايانى فى أوائل القرن السادس عشر ، أكثر مما يفهمها الرجل الهندى أو الكاهن الهندى الذى سمعت صلواته . وتمد الحضارات الثانوية وخاصة تلك التى حل فيها تراث كبير محل تراث كبير آخـــر ببعض المواقف التى يعتبرهـــا الأنثربولوجى أمثلة على التثقف من الخارج (أ) بصفة مستمرة . كما يمكن اعتبـــارها أمثـــلة على (ازالة) التراث الكبير كما ذكر كيـــد (Kidder) بالنسبة لما حدث عند الغزو الأسبانى منذ أربع قرون مضت .

وفيما يلى سنقوم بدراسة الحضارة الأولية فى العالم القـــديم . ويدخل الأنثروبولوجى فى ميادين الدراسة التى طالما قام بها المؤرخون ودارسو العلوم الانسانية عند دراسته للقرى فى الحضارات الأوليـــة . وعليه أن يدخل سرا من الباب الخلفى عن طريق القرى ، وعن طريق دراسة التراث الصغير ، وبعد قرون طويلة من التفاعل بين الفلاحين والفلاسفة الذين يمثل كل منهما الثقافة المحلية واللذان قاما بصنع هـــذه الحضارة . وعندما ينظر حوله يجد طريقة الحياة التى تســـجل هـــذا التفاعل الطويل ، ويرى الأفراد والأنظمـــة - الكهنة ، والمدرســـين ، والكتب والقصص المقدسة ، والمعابد والمدارس - التى لا تزال تحمل هذه الحضارة ولكى يقدم وصفا كاملا لهذه الحياة القروية سيضطر للذهـــاب بعيدا عن القرية ، والخوض فى مصادر المعرفة التى تعتبر جديدة عليه نسبيا . بينما يتتبع تفاعل التقاليد فى الماضى ، ويصـــبح على علم بكل الدراسات العديدة القيمة التى قام بها المؤرخون ودارسو الفنون والأدب

(أ) انظر تعريف هذا المصطلح فى هامش ص ٦٦ ، ٦٧ .

والدين . فهل يوجد أى ارتباط بين هذه الدرسات بالنسبة لمن يقـــوم بدراسة ميدانية لقرية ريفية ؟.

ويبتعد المؤرخ ودارس العلوم الانسانية فى أعمالهم الهـامة كثيرا عن دراسة الحياة القروية . وتهتم مجموعة حديثة من الأبحاث الجيدة التى تدور حول ما سمى « بالفكر الصينى ١٢ » بالأفكار التأمليــة (أ) للفلاسفة والشعراء وعلماء الأخلاق فى الصــين . ولا تشـــتمل هـــذه المجموعة على أية اشارة الى ما كان يدور فى عقول الفلاحين الصينيين فى هذه الفترة . ومن المحتمل أنه لا يمكن معرفتها ومع ذلك يمكن معرفة شىء مما يدور فى عقـــول الفـلاحين الصينيين فى الوقت الحاضر اذا سمحت الظروف السياسية . ويهتم دارسو التراث الكبير فى الهند بتطور فلسفة الفيدا (ب) Vedic Philosophy بين عدد قليل من المفـكرين فى

(أ) ان هذه الافكار التاملية لا يمكن ان ترقى بحال ما الى مستوى المذهب او النظريات او الفلسفات الفكرية التى تربطها الوحدة المنطقية أو الغائية الهدفية. وهى لا تعدو ان تكون محاولات فكرية ضرورية لمقابلة احتياجات التنظيمـــات الاجتماعية التى كانت سائدة فى حضارات المجتمعات الشرقية القديمة ، ولذلك فانها بدت عملية الهدف والمقصد ، بعيدة عن النزعة العلمية التحليلية التى ترتكز على الواقعية الاجتماعية ، كما أنها كانت فى جملتها تبريرية أكثر منها تفسـيرية . هذا الى امتزاجها امتزاجا يكاد يكون كليا بالدين ، وذلك يوضح لنا طبيعة الحيـــاة الاجتماعية فى المجتمعات القديمة ، حيث كانت المسحة الدينيـة هى التى تعطى التشريعات الاجتماعية صرامتها وتكفل الالزام بأحكامها .

(ب) فلسفة الفيدا هى فلسفة هندوكية قديمة كتبت باللغة السنسكريتية القديمة ، وتشمل على أربعة مجموعات من الترانيم وهى الرج Rig والسـاما Sama والياجور Yajur والانهارفا Tharva وهذه الفلســفة مســتمدة من التفكير الاجتماعى البوذى الذى اتسم بطابع أخلاقى سلوكى ، وعمل على خلاص المجتمع الهندى من براثن النظام الطائفى الطبقى عن طريق هدم العقيدة البراهمية التي كانت تزعم ان البراهمى من طبيعة مقدسة ، وان السوداء من طبيعة مدنسة تحرمه من ممارسة الحياة الدينية ، واثبتت بالتفسيرات العلمية لأسفار الفيدا التى يقدسها البراهمة والقوانين المانوية التى تنظم حياتهم الاجتماعية ، ان اللاهوتية والقدسية ليست صفة ولادية أو فطورية للسلالة البراهمية ، وان كل الطبقات تتسـاوى فى طبيعتها الحيوية والاجتماعية وانه فى استطاعة أى انسان أيا كانت الطائفة التى ينتمى اليها ان يكتسب هذه الصفة عن طريق فضائل سلوكية عملية هى الاستقامة والتأمل والحكمة .

الماضي والحاضر • وقد ظهرت ترجمة انجليزية حديثة لليوبانيشاد (ج) upanishad ١٣ يوجد بها بعض التعليقات التى تدور حول بعض المسائل التى فهمها الفلاسفة الهنود وليس الفلاحون : رغم أن هذه التعاليم تنعكس من بعيد فى حياة القروين بعد أن مرت بكثير من التحريف والانتشار • ولا يسرد هذا الكتاب أى شيء عن ذلك الانعكاس فى الحياة القروية ولكننا نجد تفسير سانكر أشاريا Sankaracharya أحد مفكرى القرن الثامن عشر لبعض النصوص القيدية ، كما نجد تفسيرا لبعض الأمور مثل الاختلافات فى بعض التيارات فى التفكير التى تسمى باللاثنائية ، واللاثنائية المعدلة ، والثنائية (أ) •

ورغم ذلك ، قد يتقابل أحد المؤرخين فى بعض كتاباته مع الأنثروبولوجى الذى يقوم بدراسة القرية • فمثلا يذكر أحد الدارسين للديانة الصينية ـ الذى هاله ذلك المزيج من التعاليم التى تكونت فيها هذه الديانة وهذه الاختلافات الكبيرة بين معتقدات وعادات الفلاحين ومثقفى الصين ـ أنه « بدلا من تقسيم الحياة الدينية للشعب الصينى الى

(ج) اليوبانيشاد هى سلسلة من الكتيبات الفلسفية المكتوبة باللغة السنسكريتية تتضمن شرحا لفلسفة الفيدا •

(أ) الثنائية هى احدى التيارات الفكرية التى تقوم على مبدأين مستقلين : العقل والمادة أو المثالية والمادية أو الخير والشر فى الكون •

(ب) الكنفوشية نسبة الى كونفوشيوس الحكيم الصينى الشهير • ويفيدنا التحليل التاريخى الصينى بأن الكنفوشية قد تلاقت مع الآراء الشيوعية فى صراع منذ بواكير التفكير الصينى الاجتماعى ، ذلك لأن من وجهة نظر عامة كانت الكنفوشية ترتكز أساسا على تمجيد النظام الاقطاعى وتقويته واتخاذه اساسا للبناء الاجتماعى والتنظيم الاقتصادى والسياسي • فالمجتمع فى نظر كونفوشيوس لابد أن يكون مجتمعا طبقيا ، يضع فى الاعتبار الاول صيانة حق الملكية • ويبدو ان الآراء الكنفوشية كانت فى تلك المرحلة بمثابة رد فعل عنيف ضد ما انتشر فى ايام كونفوشيوس من آراء شيوعية وموضوعية وخاصة ان الدولة الصينية كانت مقسمة التطاحن على أشده بين الأمراء والاشراف كما أدى الى انتشار حالة من الاضطراب وعدم الطمأنينة • وعلى اية حال فقد كانت تصويرات كونفوشيوس تصويرات خيالية ابعد ما تكون عن احتمال التطبيق والتحقيق ، ولذلك ظلت فى عداد اليوتوبيات الخيالية التى نسج على منوالها فيما بعد حكماء اليونان من امثال افلاطون وفلاسفة المسلمين من أمثال الفارابى وعلماء القرون الوسطى من امثال كامبانلا •

ثلاثة أقسام تسمى الكنفوشية (ب) والبوذية (أ) والتاوية (ب) ، قد يكون من الأدق أن نقوم بتقسيمها الى مستويين : مســـتوى الجماهير

(أ) البوذية هى تعاليم هندية مقدسة تنسب الى « ساكيامونى » التى تعنى باللغة البالية Poli حكيم قبائل الساكية ، وبوذا يعنى بها الحكيم المستنير ، وتمثل البوذية ثورة اجتماعية على الاسس الاجتماعية التى ارتكزت عليها الديانة البراهمية التى اقامت فى المجتمع الهندى القديم نظاما عبوديا ليس له مثيل . وكان أول الآراء الاجتماعية التى دعت اليها البوذية هى القضاء على مظاهر المغالاة فى التفرقة بين الطوائف من حيث الحقوق والالتزامات ، وانتهجت فى سبيل ذلك طرقا سلوكيا يدور وحدها حول تلك المجاهدات الصوفية والاساليب . التقشفية ومحاولة خلاص الفرد من نزواته وشهواته الملحة المتجددة . وليس معنى ذلك ان البـوذية تعنى بالتاملات العقلية والتصورات الفلسفية والميتافيزيقية ، انما اذا انظرنا اليها من وجهة نظر تحليلية ألفينا انها مجموعة من القواعد السلوكية العملية التى يجب على الفرد التزامها لكى يحيا حياة والاخاء بعد التحرر من الشهوات . ومن هنا امتزجت البوذية بالآراء الصوفية .

(ب) ينسب المذهب التاوى الى « تاؤو) وهو القانون السموى الذى هو مصدر كل تغيير وحركة وحياة ، ويعزى هذا المذهب الى الشيلسوف الحكيم « لاوتزى» Laotse فيها مذهب وحدة الوجود Pantheim بمذهب الحلول والتجسد ، ذلك لانها تتصور ان التاؤو لا يوجد منفصلا عن بقية الموجودات ، وهو فى نفس الوقت سر وجودها وحياتها وحركتها ونشاطها . وتمر المعرفة التاوية بمدارج نفسية متتابعة بالدرجة الاولى السفلى هى مرحلة المحو والفناء عن الماديات عند الصوفية التى يطلق عليها Via Negativa والدرجة الثانية مرحلة الرؤيا عن طريق الاشراف التى تقابل Via Illuminatione وأخيرا تاتى مرحلة الاتصال التام بالقانون الاعظم والذات العليا Via Anitiva

ولعل أهم ما تتميز به التاوية هو احتقارها للعادات القديمة التقليدية وامتهانها للتعليم والتعليم . ويرى أنصارها أن المعرفة الحقة لا تكتسب بالتحصيل والدراسة والاعتماد على العقل ، بل تتأتى عن طريق التصوف والحدس والتامل الباطنى . كما أن المعرفة الصحيحة ليست المعرفة الحسية أو دراسة المحسوسات ، وانما هى تمثل القانون الاعظم عن طريق الانقطاع عن عالم الاشياء المحسوسة والتطهير من ادرانها التى حول دون الوصول الى الحقيقة الروحية أو الباطنية المجردة . ولا يتأتى هذا الا عن طريق تجدية القلب ، وترتب على ذلك أن التاوية تنظر للمجتمع الارضي على أنه ينطوى على نظم خادعة ، ومن هنا يبدو التناقض بينهمـــا وبين الكونفوشية من حيث ان الاخيرة على شخص ما يحتل وضعا اجتماعيا فى النسق الاجتماعى ، دون الاشارة الى الصفات عدم التدخل فى الشئون الاجتماعيـــة والسياسية والدنيوية .

الشعبية ومستوى المتعلمين » ١٤ . وقد يتساءل المرء عند قراءة ذلك كيف اذن استطاعت النخبة المثقفة تحويل المعتقدات الشعبية الى ذلك النوع من الديانة التى يتميزون بها وكيف حولت الجماهير الشعبية - رغم وجود المدرسين المتعلمين فى الصين لقرون كثيرة - هذه التعاليم الى ذلك النوع من الديانة التى يتميزون بها ؟ . وقد يهتم المرء بطريقة انتقال التراث الكبير الى عامة الشعب وكيف أصبح جزءاً من التراث الصغير .

ويوجد لكل تراث كبير مدرسوه . ويستطيع عالم الانسانيات الذى يدرس ذلك التراث ان يذكر شيئا من هؤلاء المدرسين وعن كيفية انتقال تعاليمهم الى عامة الشعب . وبالنسبة للهند قام راجهافان ١٥ Raghavan بوصف هذه المسائل . فهو يذكر عن العادات والنظم التى انتقلت عن طريقها التعاليم الفيدية والمبادىء الأخلاقية والدينية للمفكرين والفلاسفة الى جماهير الشعب عمدا وعن طريق المجهود المنظم فى الماضي والحاضر . ويذكر بعض المؤلفات مثل الملاحم والبورانا (أ) Purana التى عملت خصيصا لنشر التعاليم الفيدية بين الناس عامة « وقد قام بعض الأشخاص الذين يطلق عليهم اسم السوتابورانيكاس Suta Pauraniks بتلاوة مقدمات هذه المؤلفات على مجموعات كبيرة من المصلين الذين كانوا يتجمعون لتقديم القرابين » . كما يقول أن الثقافة الهندوكية قد انتقلت الى كمبوديا عن طريق المنح التى يقدمها الحكام لتلاوة الملاحم الهندوكية فى المعابد التى قاموا ببنائها . وبالنسبة لجنوب الهند تتبع راجهافان تقليدا ثابتا للحكام والمعلمين بتقديم كل ما يلزم لتلاوة الملاحم الهندوكية القديمة وخاصة ملحمة الرامايانا Ramayana باللغات المحلية الدارجة . وبعقلية المؤرخ تتبع الأستاذ راجهافان الآداب السنسكريتية القديمة التى يعرفها جيدا فى لغات كثيرة . ومن خلال التغيرات التى طرأت عليها فى قرون طويلة من التلقين والتعليم عن طريق النظم ولم تكن هذه القصص تتلى على عامة الشعب فقط ، ولكنها كانت تدخل أيضا فى الترانيم الدينية التى كان يقوم بغنائها بعض الكهنة المتنقلون . ثم يدخل ذلك العالم المتخصص فى الآداب السنسكريتية فى تتبعه للتراث الكبير الى قرى الهند فى الوقت الحاضر . ونجده يشير الى قرى الهند عند ما يقول :

(أ) البورانا هى قصة هندية اسطورية .

« لا يكاد يمر يوم دون أن نرى شخصا موهوبا ذو صوت عذب يجلس فى أحد المعابد أو القاعات العامة او امام أحد المنزل ليشرح للمئيات والآلاف من عامة الشعب قصة دهارما التى ارتقى بها راما وقصة دهارما التى سقط بها رفانا » ١٦ .

ويتضح نفس ذلك الاهتمام بالعلاقات بين ثقافات العامة وثقافات الخاصة أو الثقافات المتدرجة من جانب علماء الانسانيات فى أحد أعمال الاستاذ جرونبوم Grunebaum عن العلاقات بين العقيدة الاسلامية وبعض الثقافات المحلية التى انتقل اليها الاسلام . ويقوم الأستاذ فون جرنبوم فى الفصل الاول من هذا العمل بدراسة الطرق المختلفة التى يمكن أن نصف بها الصراع والتعايش ، وكذلك التفاعل الذى حدث بين الثقافة الاسلامية العالية والثقافات المحلية فيقول : « ان ذلك يعنى أن أحد هذين النمطين من الثقافة كان أكثر تقدما من الآخر ، اذ يفترض أنه يأخذ بزمام السلطة ويتمثل فى كتابات الخاصة وسلوكهم العام ، وتعتمد مكانة الفرد الاجتماعية (أ) على اعتناقه لذلك النمط الثقافى (ب) . وفى دار الاسلام يتخذ النمط الاسلامى موضع التراث الكبير . وعلى النقيض من ذلك ، فان التراث الصغير هو تجمع التيارات أو الاتجاهات الشعبية الدنيا . وتشعر الطبقة المتعلمة أو

(أ) المكانة الاجتماعية Social Prestige هى الشرف الاجتماعى النسبى المضفى qualities التى يتمتع بها هذا الشخص . وعلى هذا تختلف المكانة عن التقدير Esteem الذى يعنى الشرف الاجتماعى الذى يتمتع به الفرد على أساس مهارته فى أداء دور واحد أو أدوار متعدد مرتبطة بالمراكز المختلفة .

انظر Kingsley Davis, " Conceptual Analysis of Stratification ", American Sociological Review, 7, 1942, pp. 309-321.

(ب) يعرف « هوبيل » النمط الثقافى بانه شكل تقنينى (معيارى من أشكال السلوك تحدده اجماع أفراد المجتمع — انظر — Hoebel, op. cit

أما لنتون فيعرف النمط الثقافى بانه « معيار السلوك » انظر —

R. Linton, The Cultural Background of Personality, New York, 1945.

وهناك تعريفات أخرى لهذا المفهوم عند كل من روث بندكت وكلايد كلاكهون وكروبر الذى يسلم بوجود أربعة أنواع من الانماط الثقافية وهى النمط العام والنمط النسقى ونمط الثقافة الكلى ونمط الاسلوب . انظر

A. L. Kroeber, Anthropology, op. cit

المثقفة بتأثيره ، ولكنهم ينكرون وجوده أو يقللون من شأنه من الناحية الرسمية . وبينما تعتبر الافتراضات التى يقدمها التراث الكبير معتقدات راسخة . تعتبر الافتراضات التى يقدمها التراث الصـــغير خرافات وخزعبلات . وفى الواقع قد يعتمد الوضع الاجتماعى لأى شخص على اختياره لأى من هذين التراثين فى حياته العامة » ١٧ .

وقد أوضح فون جرونبوم الفرق بين طريقتين فى التكيف بين هذين النمطين أو التراثين . فقد يتلاءمان ويتكيفان مع بعضهما البعض كما هو الحال عندما يعتبر المعلمون الاسلاميون أن التراث الشعبى هو دين الجهلة أو يتسامحون مع العادات والطقوس المحلية التى كانت ملحدة كافـــرة بالنسبة لهم . فقد أرسل صلاح الدين صلبيا مسيحيا الى بغداد ، وقد قوبل هذا الصليب بالاحتقار فى أول الأمر ، ولكنه كان محل التقدير والاحترام بعد ذلك . وفى تركيا وسوريا كان المسلمون ولازالوا يسمح لهم بالتضرع والتوسل والاستعانة بالقوى الروحية للقديسين المسيحيين (أ) . ويقول فون جرونبوم أن علماء الاسلام قد يدمجون بين المعتقدات والعـــادات المحلية والديانة الصحيحة أو الحقة من خلال بعض التفسيرات فى عقيدة الاسلام التى تؤيد ذلك . وقد قدم النبى نفسه سابقة على هذه الطريقة عندما قدم تفسيرا اسلاميا لطقوس الحج عند الكفرة التى صاغ منهـا حج المسلمين الى مكة ... (ب) . ويظهر ذلك الادماج أو التوحيـــد للثقافات المحلية فى « تبريرهم لمبدأ الاعتقاد فى الأولياء فى اطـــار الديانة الحقة » ١٨ . فرغم مبدأ التوحيد فى الاسلام يعتبر الولى « أحد الذين يملكون المعرفة بالشئون الروحية » . كما توجد الأدلة القرآنيـــة التى تثبت وجود المقربين الى الله ، ومن ثم تثبت أيضا وجود الأولياء

(أ) تذهب عوام الناس ـ تلقاء أنفسهم ـ من أجل التضرع بهـذه القـوى الروحية ، ولكن لا يسمح لهم بذلك بالطبع على الصعيد الرسمى أو على صـــعيد الديانة الاسلامية كما يذهب الى ذلك جرونبوم .

(ب) هذا الكلام يحتاج الى تدقيق وينقصه التحقيق الواعى السليم : فالحج الى البيت الحرام كان موجودا ـ فى الحقيقة ـ منذ بناء ابراهيم عليه الســـلام « وتقاليد » الحج فى الاسلام مختلفة ، والاسلام ليس فيه تقاليد لانه وحى من عند الله وليس بدين محلى أو تصوير لبيئة معينة ، وانما هو للناس كافة . انظر ما سبق أن ذكرناه بخصوص هذه النقطة أيضا .

وهنا يتقابل عالم الاسلاميات مع الانثروبولوجى . فعندما يناقش الأستاذ فون جرونبوم التفاعل بين الديانة الاسلامية الحقة والأولياء المحليين فانه يرى من القمة على حد التعبير ـ نفس التفاعل الذى رآه وسترمارك (ج) Watermarck من القاع عندما قام بدراسة الأولياء المحليين فى مراكش .

ويستطيع عالم الاسلاميات أن يدرس الأصول الأولى للتراث الكبير ، اذ تقترب أولى العلاقات المتشابكة بين ثقافة الخاصة (الثقافة المتدرجة) وثقافة العامة من مجال ملاحظته نسبيا . فقد أصبح الاسلام ، تلك العقيدة التى خرجت من ثقافة محلية ، حضارة ثانوية عندما انتقل الى فارس والهند . ويهم المتخصصون فى الآداب السنكريتية والصينية بالتفاعلات الأكثر قدما وتعقيدا لمجموعة التراث الكبير التى نمت ببطء من التفكير والعادات البدائية التى مرت بكثير من التغير والانقسام والاعارة أثناء تاثيرها فى أفكار وسلوك الملايين من عامة الشعب وتأثرها بها . ويسرد كل هؤلاء الدارسون قصة هذه العلاقات بين اتجاهى الثقافة فى حضارة معينة من وجهة نظر الصفوة أو النخبة المثقفة التى تحمل التراث الكبير . فقد تتبع راجهافان التعاليم الفيدية حتى وصلت الى القرى . كما قام فون جرونبوم بقراءة كتابات المفكرين والمعلمين والاسلاميين . وتناول الصراعات التى دارت بينهم وبين الثقافات المحلية وثقافات العامة من الناس . ويصل كل منهما الى القرية والفلاح أثناء دراساتهم . والآن سيجدان هناك الأنثروبولوجى زميلا ليس معدا لدراسة القرويين كنقط نهائية فى التاريخ الطويل لعقيدة كبرى . ومع ذلك لا يمكن أن يتجاهل الأنثروبولوجى علاقات هذه العقيدة بالفلسفة ومدارس التفكير الراقى ، اذ يرى آثارها وكذا الذين يمثلونها من أصحاب المهن فى القرية وربما يود

(ج) ادوارد الكسندروستمارك (١٨٦٢ ـ ١٩٣٩) فيلسوف وعالم انثروبولوجيا فنلندى ، قضي سنوات طويلة فى دراسة مواد اثنوجرافية محاولا دحض الفكرة التى مؤداها ان الاباحية الجنسية تمثل أقدم مراحل تطور الاسرة البشرية . وقد نشرت النتائج التى توصل اليها وستر مارك فى كتاب « تاريخ الزواج البشرى » الذى صدر عام ١٨٩١ .

وعلاوة على هذا الف وستر مارك كتبا هامة اخرى عن تطور الافكار الاخلاقية (فى مجلدين من ١٩٠٦ الى ١٩٠٨) وعادات الزواج فى مراكش .. الخ .

لو أنه قد ظل يعمل وحده دون أن يزعجه أحد فى حقل الثقافات الكاملة المستقلة فى مجتمع يمثل عالما مستقلا فى حد ذاته يقوم بدارسته وحده ، ولكنه عندما بدأ يدرس المجتمع القروى وجد أنه قد دخل ميدانا مختلفا .

وقد أخذ على عاتقه جزءاً من مسئولية دراسة بناء ثقــافى مركب يتكون من تراث كبير وتراث صغير قد تفــاعلا مع بعضــهما البعض فى الماضي ومازالا يتفاعلان فى الوقت الحاضر . كما أنه يشترك فى هـــذه المسئولية مع المؤرخ وعالم الانسانيات ، وكلاهما يعتبر الحضارة التى يقوم بدراستها نوعا من التفاعل الدائم والمميز والمتغير دائما بين تراث كبير وتراث صغير . واذا تصورنا ذلك فان الحضارة تصبح مجرد مجموعة من الأفكار التى يعبر عنها بالسلوك والرموز ، كما تعتبر الحضارة شيئا مركبا من حيث أنها تتكون من أجزاء أو مستويات يتمثل كل منها فى بعض الأفراد الذين يعملون على استمرار هذه الحضارة أكثر مما يتمثـــل فى الآخرين . ويعيش هؤلاء الأفراد حياة متشابهة ، ولو أنها تختلف بدرجة ملحوظة وكل منهم يحيا حياته بعيدا عن الآخر اذ يعيش بعضهم فى القرى والبعض الآخر فى المدن أو مراكز الأضرحة أو المعابد والأديرة . وتختلف هذه الأجزاء أو المستويات عن الثقافات المحلية أو (الاقليمية) ، كمـــا تختلف أيضا عن الثقافات الفرعية التى تتميز بها الجماعات المهنية التى تهتم بالأمور الدنيوية ويرجع سبب ذلك الاختلاف الى تعاليــم التراث الكبير قد نمت ونبعت من التراث الصغير ، وهى الآن تعتبر نموذجـــا أو مثلا بالنسبة للذين يحملون التراث الصغير اذ يعتبر كل من هذين التراثين أحد ابعاد الآخر . ويدرك الذين يحملون الأبعاد العليـــا من العالم سنجد أنهما متشابهتان رغم اختلافهما الواضــح . وحتى هؤلاء الذين يعرفون القليل عن الهند مثلى قد يفترضون أن تلك النظرة الى التراث والذين يحملون الأبعاد السفلى منه نظاما واحداً من « العــلو » و « الدنو » .

واذا اعتبرنا هاتين الطبقتين كقيمتين أساسيتين أو كنظريتين الى العالم التى تميز التراث الصغير فى الهند هى نظرة تؤمن بتعدد الآلهة ، وتعتمد على السحر وليس لها اى أساس فلسفى بينما تتسم الاتجاهات المختلفة فى التراث الفيدى باختيارها لتاكيدات أخلاقية وفكرية مختلفة ويتسم الفيديون بأنهم أناس شاعريون يميلون الى الايمان بتعدد الآلهة ،

أما اليوبانيشاد بأنهم أناس تجريديون يعتنقون مبـــدأ الوحدانيـــة ، ولا يعتقدون كثيراً فى الآلهة . بينما نجد الفشنافيون والشيفيون وهما من الطوائف الهامة أناس أخلاقيون يعتقـدون في الآلهـــة . » وتظهــر الاختلافات بين مذهب التاوية كفلسفة (أ) وبين التاوية كدين شـعبى منظم . وهكذا نجد التركيز فى فلسفة التاوية على تبعية الانسان للطبيعة وخضوعه لها . بينما نجد أن الهدف الأساسي فى دين التاوية هو حصول البشر على الخلود عن طريق وسائل السحر المختلفة . أو بمعنى آخر أن يتوصل الانسان السيطرة على القوى الطبيعية . كما تستبعد فى فلسفة التاوية أى فكرة عن الأسباب والمتسببات الالهية ، بينما نجـد فى دين التاوية ذلك المبدأ الذى يقول أن الكون يمتلىء بعدد كبير من الآلهـــة التى تتجسد فى شكل بشرى أو تظهر بصفات بشرية » ٢٠ .

وأثناء فهمنا لمثل هذه الحضارات سنحتاج الى تحسين وتطـوير العلاقة بين المؤرخ الذى يدرس العـلوم الانســانية والأنثروبولوجى . وبذلك يستطيع الأول فهم العلاقات بين الفكر التأملى الذى يقوم بدراسته وبين الحياة العامة لهذه الحضارة كما يجد الآخر ما يساعده على وصف مجتمعه الصغير من حيث تأثر طرق الحياة فيه بتعـاليم التراث الكبير وتأثيرها فيها . وبطبيعة الحال تختلف الأشكال التى يتخـذها كل من هذين النوعين من البحث بطريقة ملحوظة ، بيد أنه يمكن توضـــيح علاقة كل منهما بالآخر . كما تحتاج الدراسات التى يقوم بهـــا المؤرخ ودارس الفنون والآداب للنصوص المختلفة ، اذ يجد الدارس للثقـــافة العالمية مجموعة من النصوص كمادة لموضوعه العلمى . وهذه النصوص ليست نصوصا مدونة بالكلمات فقط ، ذلك لأن النظرة الى العالم التى يتسم بها الفكر الهندوكى تظهر فى الفن المعمارى للمعابد ، كما تظهر فى فلسفات الفكر ٢١ . ونحن نعرف أن الدراسات الأنثروبولوجية هى دراسات قرينية ٢٢ (أى تعتمد على القرائن) . فهى توضح العلاقة بين عنصر التراث الكبير ككتاب مقدس أو أحد عناصر قصة أو معـــالم او احتفال رسمى او ككائن ذو قوة خارقة للطبيعة ، وبين حياة الافـــراد العاديين فى اطار الحياة اليومية التى تحـــدث فيهـــا كما يراهـــا الأنثروبولوجى .

(أ) راجع هامش رقم (ب) ص ١٢٢ .

وتتصل الدراسات النصية والدراسات القرنية عند ما يحتل مضمون النص مكانا هاما فى اطار الحياة القروية • ولذلك تعتبر ملحمة الرمايانا مصدرا قديما ذو تاثير كبير فى قرى الهند الحديثة • وقد اشـتقت فى الأصل من القصص التى كان الناس يتداولونها شفاهة ثم قام أحد الشعراء ويقال أنه فالميكى Valmiki بتحويلها الى ملحمة سنسكريتية • وهكذا أصبحت جزءا من تراث الهند الكبير • وقد ترجمت فى الفترة بين القرن التاسع والقرن السادس عشر الى كثير من اللغات واللهجات المحليـة الهندية ، وقام بتدريسها وغنائها بهذه اللغات محترفوا البنـاء الثقافى الذى تحدث عنهم الاستاذ رجهافان • وفى القرن السادس عشر قام تولسي داس Tulsi-Das بعمل نسخة هندوكية أصبحت فيما بعد النص الذى يقدم فى كثير من الاحتفالات التى كانت تقام فى القرى • وقد قام هذا الكاتب بعمل ما يمكن اعتباره نصا أساسيا • وقد قيل لنا أن هذه نسخة معروفة بين عامة الشعب فى الهند أكثر من الانجيل بين سكان الريف الانجليزى ولكن بمرور الوقت أصبحت اللغة الهندوكية التى صاغ بهـا تولسي داس نسخته من الصعب فهمها على الفلاحين ، فأدخلوا عليها اضافات خارجية من استخداماتهم الشعبية المحلية • ويتطلب الآن هذا النص الأساسي بعض التفسير كى يفهمه الفلاحون فى قرى الهند الحديثة، وفيما يلى سنستعرض كيفية سرد هذه الملحمة بمناسبة الاحتفال رام ليلا Ram Lila • فهناك نوعان من الافراد الذين يشتركون فى العـرض المسرحى لقصة رام وسيتا والصراع مع رافانا • ويتقدم المعلم الذى يمثل التراث على المسرح ، ثم يقرأ من النص الهندوكى الذى ينتمى الى القرن السادس عشر مع بعض الاضافات الشعبية • ومن الضرورى قراءة هـذا النص لأنه نص مقدس رغم صعوبة فهمه • وبينما يقوم المعلم بتلاوة النص يبدأ المشخصاتي (١) Impersonator (وهو قروى جاهل) « فى تمثيل الأعمال التى يذكرها النص • ثم يتوقف المعلم ويرفع الممثل صوته ويقوم بتفسير الشعر الذى تلى على مستمعيه وتحويله الى نثر حديث واضح»٢٣ وهكذا يتم الربط بين مستويات التراث فى الاعداد الحقيقى لتمثيل هذا النص بهدف التعليم الأخلاقى أثناء الاحتفالات فى القرى • وبمثل هذه الطريقة يمكن دراسة قصص الانجيل التى تظهر فى الدروس الدينية التى

---

(١) المشخصاتى اى الممثل •

تلقى فى مجتمع قروى غربى ، أو طريقة انتقال وتعديل تعاليم كونفوشيس فى القرى الصينية .

وعندما يقوم الأنثروبولوجى بدراسة مجتمع بدائى منعزل ، ويتحدد مجاله واطار دراسته فى ذلك المجتمع وثقافته المحلية المباشرة . وعندما يقوم بدراسة مجتمع قروى والثقافة التى يتميز بها هذا المجتمع ، يتسع نطاق الدراسة ليشمل عناصر التراث الكبير التى تتفاعل سواء فى الماضى أو فى الحاضر مع كل ما هو محلى ومباشر . واذ كان يهتم بالتغييرات التى تحدث من خلال هذا التفاعل عن طريق (دراسات عبر التـــاريخ (Diachronic studies سـيضطر الى بحث الاتصـــال بين التراث الكبير والتراث الصغير والتغيرات التى نتجت وستنتج فى أى منهمـــا أو فى كليهما بسبب ذلك الاتصال . واذ اعتبر القرية الريفية كنسق دائم مثـــل الدراسات المتزامنة Synchronic studies ، (فان نظرته ربما تتحدد لفترة زمنية من ثلاثة أجيال التى يقال أنها تكون الفترة التى تقع خلالها التغيرات المتكررة التى تغذى وتبقى على هذا النسق) ، كما سيتضمن تحليله طرق الاتصال الدائمة والمتوقعة بين التراث الكبير والقرية حيث أنها ضرورية لصيانة وحفظ ثقافة الفلاح ، فكيف اذن يمكن القيام بها ؟

وفى بعض الدراسات التى نشرت حول المجتمعات القروية يجـــد القارىء شيئا عن أوجه الخلاف والتشابه بين المعتقدات والطقوس الدينية المحلية ، والمعتقدات والطقوس الدينية التى تتسم بها الثقافة الدينيـــة العالية التى يتصل القرويون بها عن طريق الكهنة والمدرسين خـــلال تجاربهم أثناء السفر ٢٤ . ولكن لم تتطور بعد مناهج بحث وتحليل هذه الاتصالات وتأثيراتها سواء فى تدعيم الثقافة المحلية والمحافظة عليها أو فيما تسهم به بالنسبة الى تاريخ التغيرات التى طرأت عليها وتأثيراتها على التراث الكبير ، وأعتقد أن الانثروبولوجيين سيقومون بتطويرها من خلال دراستهم وعملهم فى الهند ، وفى الهند أيضا تظهر بوضوح مبادىء وتعاليم عقول المفكرين المتحضرين فى الاحتفالات والطقوس التى يقيمها الفلاحون وفى المثل العليا التى يتسمون بها . وفى الهند أيضا يرتبط مركز الفرد الموروث فى الطائفة بحق هذه الطائفة فى المشـاركة فى الطقوس ومثل الحياة كما هى مبينة فى التعاليم السنسكريتية . وقد قدم لنا الاستاذ سرينيفاس Srinivas وصفا عن الطريقة الواعية التى تبنى بها بعض

السكان القرويين الذين يعرفون باسم الكورج ، Coorgs والذين تختلف طريقتهم فى الحياة الى حد ما عن التراث السنسكريتى ، عناصر الثقافة الهندوكية . ويعتبر هؤلاء السكان أنفسهم من الكشاتريباس Kshatriyas اتباع المحارب فارنا Varna الذين تأثروا بالهندوكية الى درجـــة أن أربعة منهم قد أصـبحوا من السينيساسيون Sanyasis أى الرجـــال المقدسون الذين كرسوا انفسهم لتنفيذ مبادىء وتعاليم التراث الهنـــدى الكبير . وقد أصبح لهؤلاء الكورج مكانة مرموقة فى تدرج المركز الهرمى العام للهند ، فقد استطاعوا أن يطالبوا بوضعهم فى الهندوكية . وهكذا نرى الى أى مدى وصل التراث الكبير ، والى أى مدى يصل فى الهند فى تغيير الثقافات التى تتميز بها الشعوب المغلوبة على أمرها أو الشـعوب الهامشية .

وفى السنوات الاخيرة جاء الأنثروبولوجيون الغربيون فى أعـداد كبيرة لدرسة القرى الريفية فى الهند التى تقع فى اطار الحضـــارات الهندوكية الاسلامية أو فى اطار الحضارة الغربية الحديثة . وتمدنا احدى هذه الدراسات الحديثة بالمفاهيم وطرق البحث اللازمة لتحليـــل التأثير المتبادل بين الثقافة الهندوكية اليه (أ) والثقافة القروية . وقد كتب هذا البحث مكيم ماريوت ٢٦ Mckim Marriott من « وجهة نظر تاريخية » وقد قام بدراسة الموضوع من ناحية العلاقات الاجتماعية ومن « الناحيـــة الثقافية » أيضا أى من ناحية التغييرات والتعـديلات التى طـــرأت على العادات والنظم خلال تطورها . وتتكون الديانة فى القـــرية التى قـام بدراستها والتى يطلق عليها اسم كيشان جارحى من التكيف والتكامل التام بين بعض عناصر الثقافة المحلية وعناصر التراث السنسكريتى العالى كما وجد ماريوت كثيرا من الأدلة على الاضافة والتحول دون تبرير عقـــلى للعناصر التى تم جمعها وتغيرها دون احلال شىء آخر محلها » . اذا وجد أن خمسة عشر احتفالا من الاحتفالات التى تقام فى كيشان جارحى وعددها تسعة عشر تقرها وتجيزها النصوص السنسكريتية العالميـة ولكن بعض الاحتفالات المحلية لم يرد ذكرها فى التعاليم السنسكريتية هـــذا ويكون

(أ) المقصود الثقافة المتدرجة Hierarchic Culture (ثقافة الخاصة) .

البعض الآخر الذى ورد ذكره جزءا صغيرا من مجموع الاحتفالات التى يقرها ويجيزها الأدب السنسكريتى . ويخلط القرويون بين المعـــانى القديمة المختلفة أو يختارون منها ما يلائم احتفـــالاتهم بل ان اكثـر الاحتفالات المحلية تمسكا بالتراث السنسكريتى قد اتخذت بعض عناصر الطقوس التى نشأت من الحياة القـــروية المحليـــة وليس من التراث الكبير .

ويعتبر هذا النوع من التوفيق Cyncretization بين المعتقدات الدينية المتعارضة شيئا مألوفا لدى هـــؤلاء الذين يقومون بدراســـة الوثنيـــة والمسيحية ، أو الذين يدرسون العلاقات بين الاسلام والمعتقدات المحلية فى شمال افريقيا . ويقترح ماريوت أن نقوم بدراسة التفـاعل المزدوج المتبادل بين التراث الكبير والتراث الصغير كعمليتين مكملتين ، ويطلق عليهما اسمين مختلفين . فمن ناحية تؤثر التقاليد الشعبية الصغيرة على مؤلفى أو واصفى التراث الهندوكى الكبير الذين يقومون باختيار عنصر من عناصر المعتقدات أو العادات المحلية ، ثم يقومون بادماجها فى الاطار الفكرى للهندوكية الحقة وبذلك يصبح هذا العنصر عنصرا هاما عالميـــا بالنسبة لكل الافراد الذين سيتأثرون بتعاليمهم بعد ذلك . ولم يستطع ماريوت أن يثبت بشكل قاطع ٢٧ أن الحالة التالية بخصوص الآلهة لاكسمى Laksmi تعتبر مثالا على ذلك التعميم ، ولكنه يقترح أن الآلهة لاكسمى فى الديانة الهندوكية التقليدية الحقة قد اشتقت من الآلهة التى وجدهـا فى قريته مرسومة على الحوائط أو مجسمة على شكل صور أو تماثيل من روث الماشية وبذلك نجد أن تلك الآلهة المحلية الصغيرة . كما يشبه بعض القرويون هذه الآلهة المحلية بالالهة لاكسمى . ويذكر ماريوت أحد الأعياد السنوية التى تقوم الزوجات أثناءه بزيارة أشقائهن فى القرى التى ينتمون اليها أصلا . وعندما يتركن أشقائهن ليعدن الى بيوتهن فى القرى الأخرى يعبرون عن ارتباطهن بهم بوضع اغصـــان الشـــعير على رءوس وآذان أشقائهن الذين يبادلونهن هذه العاطفة بتقديم الهدايا من العملات الصغيرة وتذكر البورانا (أ) Purana وهى احدى المصادر القديمـــة للتعاليم السنسكريتية هذا الاحتفال على أنه أحد الطقوس البراهمية (ب) الذى

(أ) البورانا هى أحد القصص الهندية الاسطورية .

(ب) البراهمية هى النظام الدينى والاجتماعى الهندوكى . ومن المعروف انه

يقضي أن يذهب كل كاهن فى القرية الى راعيه فى ذلك اليوم الذى تقام فيه تلك الطقوس القروية التى أشرنا اليها . ويربط حول رسغة تعويذة ذات خيوط مختلفة الالوان ثم يقوم الراعى باعطـاء النقـود الى ذلك البراهمى فهل خلقت تلك الطقوس المحلية ذلك الاحتفال الذى ورد ذكره فى البورانا ، أم أنها تطبيق عملى لما ورد فى البورانا . ويميل ماريوت الى الاقتناع بالتفسير الاول ، ويعتقد ان ذلك التفاعل بين بعدى أو طبقتى الديانة يعتبر مثالا على التعميم (١) .

أما العمليـة المقـابلة التى يسـميها ماريـوت « التخصص » Parochialization فتحدث عندما يتعلم القرويون أحد عناصر الثقافة السنسكريتية ، ثم يعيدون تشكيله كى يصبح جزءا من معتقداتهم المحلية. فمثلا يقيم الفلاحون نصبا حجريا فى القرية يمثل أحد الحكماء المقدسين فى التراث السنسكريتى الذى يرتبط فى عقـول الشـيوخ البراهميين بالكوكب فينوس Venus . وتذهب العرائس للتعبد مع أزواجهن أمام ذلك النصب الحجرى ، ثم ينسي الفلاحون اصل ذلك الحجر ويعتبرونه مسكنا لأرواح الأجداد البراهميين الذين قاموا بوضعه فى القرية ويجيز التراث السنسكريتى كما يظهر فى الاساطير الهنـدية العظيمة أحـد أحد الاحتفالات التى تقام على مدى تسعة ليالى متتالية تكريما للالهات العظيمات الكبيرات من مجموع الآلهة فى تراث الهند الكبير وفى قرية كيشان جارحى يشرك الفلاحون الهة يطلقون عليها اسم نورثا Naurtha

---

الافكار الاجتماعية والسياسية الهندية كانت ممتزجة بالقواعد الدينية والممارسـات الطقوسية ، فكانت السيادة الطبقية الاجتماعيـة والسـلطة السـياسية من طبيعة ثيوقراطية لانها كانت تصور على انها مستمدة من سلطة الاله الاكبر المعروف باسم « براهما » . وقد ورد فى نصوص تعاليم مانو ما يفيد ان الاله براهما خلق الملوك مزودين بمجموعة من العناصر والقوى المقدسة التى اسطنعت من الوهج أو النـار المقدسية التى تعبر عنها المصطلحات الهندية « اننى اندرا ، اثيلا ، يانا ، فارونا » وهى المقابلة للقوة المعروفة باسم « مانا » Mana أو القوة غير المشخصة وترتبط هذه القوة ايضا بفكرة التابو Taboo أو الامور المحرمة المقدسة . انظر ـ أحمـد الخشاب ، الاجتماع الدينى ، نفس المرجع السابق الاشـارة اليـه ، صفحة ١١٦ وما بعدها .

(١) أى تعميم عناصر الثقافة المحلية بواسطة حملة التراث الكبير .

بين الالهات التى يقومون بتكريمها فى احتفال الليالى التسع ، وفى كل صباح ومساء أثناء هذه الأيام التسعة ، يقوم النساء والأطفال بعبـــادة الالهة نورثا عن طريق الاستحمام والغناء وصنع التماثيل الصغيرة من الطين ٠ غير أنه لم يرد ذكر نورثا فى التراث الكبير ٠ وقد اســتطاع ماريوت أن يوضح كيف أن هذه الالهة قد ظهرت فى القرية نتيجة تحريف لغوى بسيط مجرد سوء فهم للعبادة « نافاراترا » Nava Ratra التى تعنى الليالى التسعة ٠ وهكذا خلقت الهة صغيرة من مجرد خلط لغوى فى التفاهم بين التراث الصغير والتراث الكبير ٠

كما استطاع ماريوت أن يعرف شيئا عن التفاعل بين التراث الكبير والتراث الصغير الذى أدى الى ترجمة معـــانى الطقوس والمعتقـدات والعلاقات بينها أو احلال أخرى محلها ، لأنه قام بقراءة بعض مصادر الديانة الهندوكية الحقة ، ولأنه وجد أن بعض الأفراد فى القرية التى قام بدراستها على اتصال أكثر من غيرهم بهذه المصادر ٠ ويوجد بالقرية كثير من المتعلمين والجهلة ويطلق الفلاح المتعلم على نفسه اسم الساناتانى Sanatani أحد أتباع الطريقة الأرثوذكسية التقليدية ٠ كما يميز الكاهن البراهمى المحلى بين الذين يعملون والذين يعرفون ٠ ويقول القروى العادى أن أحد الطقوس يعتبر من الطقوس النارايانية نسبة الى الاله نارايان Narayan الذى يقوم بتلقيح الهادن الذى تنزع فيــه الأسرة قشور الحبوب ولكن الرجل المتعلم فى نفس القرية يقول أن هذه الطقوس ترمز الى خلق العالم ٢٨ ٠ وحيث توجد هذه الاختلافات بين الفلاحين يستطيع الأنثروبولوجى فى دراسته للمجتمع القروى أن يتتبع العلاقات التى تربط القرية بالفلاسفة وعلماء الدين ٠ ثم ينتقل بالتحليل الى أعلى والى الخارج كى يتقابل مع الأبحاث التى دارت حول انتقال الدين أو الفلسفة الى الطبقات الدنيا مثل الأبحاث التى قام بها فرن جرونبوم عن الاسلام والتى قام بها راجهافان عن الهندوكية ٠

ويستطيع المرء أن يتخيـــل نوع الدراســـات التى ســـتتم فى الأنثروبولوجيا حول التفاعل بين جانبى التراث ، وفى الهند حيث نجد مادة وفيرة ومشوقة نلاحظ أنه يمكن النظر الى ذلك التفاعل من الناحية الثقافية والناحية الاجتماعية ٠ وتمثل دراسة ماريوت النوع الأول ٠ وقد أدرك ملتون سنجر Milton Singer عند كتابته عن الهند أهمية ما يسميه

« وسائل الاتصال الثقافى » مثل الأغنية والرقصة والمسرحية والعيد والاحتفال الرسمى والتلاوات الهندية . وقد بهرته الطريقة التى تتداخل بها هذه الأشكال مع بعضها البعض . ويقترح أن الهنود وربما كل الشعوب يعتبرون أن ثقافتهم تتبلور فى بعض الأشكال الثقافية التى يمكن أن تظهر فى بعض العروض الثقافية » التى يقدمونها لأنفسهم أو للأشخاص الخارجين ٢٩ ، وربما يستطيع المرء أن يحلل الطريقة التى تنتقل بها عناصر التراث العالى الى القروى عن طريق هذه الاشكال الثقافية ، وكيف يطرأ على هذه العناصر كثير من التغيير والتبديل عندما تنتقل الى الثقافة المحلية .

و قد يكون من الممكن أن نقوم بدراسة « النظم الثقافية » أى الأنشطة والأفراد الذين يوجدون من أجل نقل التراث الكبير . وفى الهند يمكن دراسة معبد كما يقترح ماريوت من وجهة نظر أوجه الصلة بين ذلك المعبد والذين يحجون اليه ، أو أى من الأضرحة الاقليمية الكثيرة التى تمتلىء بصور الآلهة التى تتوسط بين التراث الكبير والتراث الصغير ، على أنها أشكال محلية لأحدها وأشكال عامة أو عالمية للآخر . ويمكن دراسة التنظيم الاجتماعى للتراث فى نظم التعليم الرسمى التى توجد فى مجتمع محدود نوعا ما .

وتختلف المدرسة الاسلامية عن المعبد الهندوكى من حيث أنها ديانة تقوم على الايمان بوحى كامل مطلق كما هو مسجل فى كتاب يختلف عن ذلك الدين الذى يقوم على التعبير الرمزى المتعدد الأشكال عن المستويات المختلفة لنفس الحقيقة . ومن خلال قراءاتى ٣٠ . أستطيع أن أقول أن المغاربة فى مراكش يمكن اعتبارهم حتى وقتنا هذا مثالا على ذلك البناء القديم للتراث الاسلامى المقدس الذى طرأ عليه قليلا من التغيير . ويذكر الأستاذ لوتورنو Le Tourneau أنه لا يوجد هناك أى اختلاف تقريبا بين عمل كتب فى القرن السادس عشر وعمل كتب فى القرن العشرين . كما لاتعرف الصحف هناك . وتقتصر الحياة الفكرية على نخبة صغيرة تهتم دائما بنفس المشاكل التى تدور حول تفسير الديانة الاسلامية ويتصل الفلاح فى القرية بالديانة الاسلامية القديمة عن طريق مدرس القرآن وعن طريق صغار الموظفين الاداريين . ويتم تعليم هؤلاء الناس فى المساجد

التى تعتبر مدارس أيضا فى المدن الصغيرة • ثم يقوم عدد قليل بدراسة الشريعة الاسلامية أو النحو العربى فى المساجد • ويذهب قليل جدا منهم الى الجامعات الاسلامية فى مدينة فاس Faz أو تونس Tunis • وهنا يمكن تحديد العلاقات بين القرية والحياة فى المدينة بالنسبة لتعليم التراث المقدس •

أما فى الهند فقد يقوم المرء بدراسة احدى الطوائف الفرعية التى تختص بتطوير تاريخ وأنساب الطائفة الرئيسية التى تتبعها • أو قد يدرس المرء طائفة مكونة من المطربين ومن يقومون بالترفيه الذين يقومون بغناء القصص التقليدية التى تشتمل عليها الراماياتا Ramayana أو الماهابهاراتا (١) Mahabarata أمام رعاتهم ٣١ • وتعتبر هذه الطوائف جماعات متحدة تقوم بسرد التراثات الكبيرة والصغيرة على بعضها الآخر • ويبدوا أن بناء التراث معقد جدا فى الهند ، كما أن هناك أيضا مجموعة متنوعة من المتخصصين الذين ينتظمون غالبا فى طوائف معينة والذين يقومون بنقل التراث الأكبر الى التراث الأصغر • ويقول ميلتون سنجر أنه وجد فى مدينة مدراس ثلاثة جماعات رئيسية من المتخصصين الذين يرتبطون بالتراث السنسكرين • فهناك جماعة الكهنة الذين يقومون بالاشراف على الطقوس فى المعابد والمنازل المحلية ، وجماعات الرواة والمطربين والراقصين الذين يقومون بنقل الثقافة البورانية الشعبية ، وجماعة المعلمين والدارسين والمتخصصين فى التراث السنسكريتى والذين يقومون بنشر التعاليم والآداب السنسكريتية فى جميع فروعها المختلفة •

وبذلك يمكن اعتبار التفاعل بين التراث الكبير والتراث الصغير - اذا نظرنا اليه من هذه الزاوية - كأحد أجزاء البناء الاجتماعى فى المجتمع القروى فى اطاره الواسع • ونحن نهتم بتلك الترتيبات الدائمة

---

(١) تعتبر الاشعار الهندية القديمة المعروفة باسم « ماها بهارتا » المنسوبة الى فيازا Vayasa من اقدم المصادر الهندية المقدسة التى تعكس الافكار الاجتماعية للحضارة الهندية القديمة التى تتضمنتها الفيدا بالاضافة الى تشريعات « مانو » الشهيرة • وقد ترجمت هذه الاشعار الى الانجليزية والفرنسية والالمانية •

والهامة للأدوار (أ) والمراكز الاجتماعية (ب) التى تظهر جزئيا فى هذه المجتمعات المشتركة مثل الطوائف فى المذاهب التى تختص بنشر التراث الكبير وغرسه فى الأذهان ، ويعتبر هذا المفهوم امتدادا أو تخصيصا لمفهوم البناء الاجتماعى ، كما يستخدمه الأنثروبولوجيون فى دراسة المجتمعات التى تعتبر مغلقة أكثر من المجتمعات القروية . والآن سنقوم بدراسة نوع معين من العلاقات الاجتماعية الدائمة فى المجتمع القروى المركب ، أننا سنقوم بدراسة جزء معين من البناء الاجتماعى وتشكل العلاقات بين المعلم الاسلامى وتلميذه وبين الكاهن البراهمى والرجل العادى أو العلاقات بين العالم الصينى والفلاح الصينى البناء الاجتماعى للثقافة ، أو بمعنى آخر بناء التراث ، وتعتبر هذه العلاقات على جانب كبير من الأهمية فى نقل التراث الى الفلاح ، أو ربما بدون قصد من أى أحد منهم تؤدى الى تأثير التراث القروى فى عقائد المتعلمين . ومن هذه الزاوية تعتبر الحضارة تنظيما من المتخصصين أو تنظيما لعدد كبير من الاشخاص الذين يقومون بأدوار معينة فى علاقات مميزة مع بعضهم البعض ومع الافراد العاديين ، ويقومون بأداء وظائف مميزة تختص بنقل التراث .

وقد نحتفظ بعبارة « التنظيم الاجتماعى » ٣٢ لكى نطلقها على النشاط الملموس فى أماكن أو أزمنة معينة كما يفعل الأستاذ ريموند فيرث (جـ) ، ان التنظيم الاجتماعى هو الطريقة التى يجمع بها الافراد عناصر العمل كى يقومون بعمل شيء يريدون القيام به . أما البناء الاجتماعى صفة أو طابع عام دائم ، أى أنه « نمط » من العلاقات المميزة (د) . ونقوم بوصف التنظيم الاجتماعى عندما نعلل اختبار الصعاب والصراعات التى حدثت فى موقف معين وايجاد الحلول لها . وطبقا لهذا قد نقصر عنوان هذا الفصل على كيفية الجمع بين عناصر العمل فى أى حالة معينة

(أ) راجع الفصل الثانى : حاشية (ب) ، ص ٨٧ .

(ب) راجع الفصل الثانى ، حاشية (ج) ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(ج) راجع الفصل الاول ، حاشية (أ) ، ص ٧٩ .

(د) راجع تعريف رادكليف براون لمفهوم البناء الاجتماعى ، حاشية (ب) ص ٦٣ .

من حالات نقل التراث ٠ وهكذا نقوم بدراسة التنظيم الاجتماعى للتراث عندما نقوم ببحث الطريقة التى يتم بهـا ترتيب اليـــوم المدروس فى المدرسة الاسلامية التقليدية ٠ أو عندما ندرس الطريقة التى يقام بهـــا احتفال رام ليلا ٠

فى مجتمع هندى حيث يتعاون الفلاحون مع العلماء المثقفين بهدف تمثيل القصص المقدسة فى نفس الوقت الذى تقرأ فيه النصوص المقدسة للتراث الكبير واذا كانت هناك أية مشكلات فى التكيف بين ما يود الرجل المتعلم تنفيذه ٠ وبين ما يراه أفراد القرية العاديون صحيحا ومسليا ٠ فقد تصبح هذه الحالات من التنظيم الاجتماعى للتراث أكثر تشـويقا ٠ وأذكر فى هذا الصدد بعض الفرص التى فاتتنى عند دراسة التنظيـــم الاجتماعى للتراث فى مجال عملى الميدانى وخاصة عندما اشترك قسيس الأبرشية الكاثوليكى والشامان (١) المحلى فى تراث المايا عندما اشتركا على التوالى فى احتفال التطهر الذى أقيم فى احدى قرى جواتيمالا ٠ فقد حدث فى هذه المناسبة كثير من الأخذ والرد وكثير من الصراع والشك ومحاولات التوفيق التى فاتنى أن أسجلها ٠ وبطبيعة الحال كان يوجد فى هذه الحالة تراثين ثقافيين على درجة معينـــة من الصراع مع بعضهما البعض ٠ ويتطلب كل منهما شيئا من التكيف كما توقع القرويون ٠

وهكذا نستطيع تطوير بعض الطرق فى التفكير التى تتناسب مع النظم الكبيرة والبيئات الموسعة فى دراستنا الأنثروبولوجية ٠ اذ أننـــا لا نستطيع ملاحظة البناء الاجتماعى للتراث عند دراسة القروى من ناحية الانغلاق الذى يتميز به ومن ناحية استقلاله الثقافى والاجتماعى ٠ وقد يكون هذا البناء الاجتماعى للتراث موجود فى شخص عدد قليـــل من السحرة أو الكهنة وهم أعضاء فى المجتمع الصغير الذين يشبهون الآخرين داخل هذا المجتمع ٠ ولا يمكننا معرفة الكثير عن تاريخ الثقافة فى مجتمع بدائى وفى مجتمع ما قبل انتشار التعليم ٠ ويعتبر بنـاء التراث عنـــد الأوائل فى قبيلة الزونى كتقسيم للوظائف داخل المجتمع القبلى ٠ كما

---

(١) الشامان كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى والسيطرة على الاحداث ٠

ينظر اليه على أنه شيء يحدث الآن وليس كتاريخنا • ولكن الحضارة شيء له نطاق اقليمى كبير ، كما أن له عمق تاريخى كبير • فهى كل متكامل كبير من ناحية المكان والزمان بفضل التنظيم المعقد الذى يحافظ على تقاليدها ، ويقوم بنقلها من التراث الكبير الى المجتمعات المحلية الصغيرة الكثيرة والمتنوعة التى تنتمى الى هذه الحضارة • ولذا يجد الأنثروبولوجى الذى يقوم بدراسة احدى هذه المجتمعات الصغيرة ، أن ذلك المجتمع ليس مجتمعا مستقلا • وهكذا يقوم بتحليل علاقاته الاجتماعية والثقافية بالدولة والحضارة •

الفصل الرابع

نظرة الفلاح الى الحياة الطيبة

ركز علم الانثروبولوجيا فى أوائل القـرن العشرين على الاختلافات بين الشعوب ، أكثر من تركيزه على أوجه الشبه بينها . فقد وجد أن المجتمعات البدائية وخاصة تلك التى تبعد كثيرا عن بعضها تبدى كثيرا من العادات المتناقضة والآراء المتعارضة بالنسبة للحيـاة الطيبة . فقد تتشابه قبيلتان متجاورتان من قبائل السـهول ، ولكن قبيلة كواكيوتل Kwaikiutl الكندية لها طريقة فى الحياة تختلف كثيرا عن طريق الحياة فى قبيلة الزونى . وتختلف أكثر عن طريقة الحياة فى قبيلة دوبو Dobu فى ميلانيزيا (أ) . وقد عرفنا أن الشـعوب التى تتشابه الى حد ما فى طرق حصولها على وسائل المعيشة ، وقد يكون لها رغم ذلك نظما أخلاقية مختلفة ونظرات مختلفة الى العالم . فمثلا نجد أن جامعى الطعام فى أستراليا وفى كليفورنيا القديمـة لا يرتاح كل منهما لصحبة لآخر . كما تختلف قبيلة الزونى الزراعية عن القبائل الزراعية فى شمال لوزون Luzon . كما توجد اختلافات واضحة فى الموقف أو الاتجاه القيمى بين الشعوب القبلية التى تسكن فى نفس الجزء من العالم .

ومن ناحية أخرى ، فهناك انطباع عام أن الفلاحين متشابهين فى مناطق كثيرة أو حتى فى العالم بأجمعـه . ولذا نجـد اسـكار هاندلين Handlin Oscar عند استعراضه للصفات القروية التى جلبها المهاجرون الى أمريكا الشمالية « يؤكد أن جموع الفلاحين من أقاصي أوربا الغربية وفى أيرلندا وفى روسيا فى الشرق يتميزون بطابع متشابه من الهدوء ورباطة الجاش ٣ . ثم يقوم بوصف هذا التشابه قائلا فى كل مكان يوجد ارتباط شخصي مع الارض أو ارتبـاط بقـرية متكاملة أو مجتمع محلى . كما يظهر التركيز على أهمية الأسرة ، ويعتبر الزواج

(أ) ميلانيزيا هى عبارة عن مجموعة الجزر التى تقع فى المحيط الهـادى وشمال شرق استراليا .

شرطا للانتعاش الاقتصادى وتركيز الانساب والسلالات فى الذكور . والصراع بين الارتباط بالأرض والعالم المحلى ، وضرورة زرع المحاصيل النقدية . وهكذا يجد الملاحظ للحياة القروية فى شرق الهند » الصلة الحقيقية بين الشرق والغرب » متمثلة فى هؤلاء الفلاحين . « ذلك لأن الفلاح فى هذه المنطقة يمثل طريقة فى الحياة قديمة كقدم الحضارة ذاتها » « فهناك وحدة أساسية تجعل الفلاحين متشابهين فى كل مكان » ٤ كما نجد نفس الانطباع عند كاتب فرنسي حديث يعتقد أن الفلاحين متشابهين جدا فى كل مكان لدرجة أنه يطلق عليهم « سلالة ذات صفات نفسية وجسدية عامة » psycho-Physiological race ويعلن أن الفلاح فى أى مكان يشبه الفلاح الذى يبعد عنه مسافة كبيرة أكثر مما يشبه رجل المدينة الذى يعيش معه فى نفس البلد . كما يذكر أيضا بعض الملامح التى يشترك فيها الفلاحون فى كل مكان مثل : اعتبار الأسرة كجماعة اجتماعية والارتباط الروحى بالأرض والتركيز على أهمية الانجاب . ويتأكد هذا الاحساس بأن الفلاحين نوع واحد من البشر عندما نقرأ احدى الكتابات باللغة اللاتينية التى ترجع الى القرن الرابع عشر ، وهى تعتبر وصفا للفلاحين فى ذلك الوقت والمكان . وهذا الوصف يمكن أن يحل محل ما كتبه هاندلين عن الفلاحين فى زمن آخر ٦ .

وقد كان ذلك هو انطباعى أيضا من خلال تجربتى الشخصية عندما كنت أقرأ عن المجتمعات القروية فى كثير من العصور والأمكنة . اذا أحسست بأن شيئا كثيرا مما كنت اقرأه كان مألوفا لى فى تجاربى فى المجتمعات القروية لهنود مايا فى بوكاتان (أ) . وقد وجدت ذلك التشابه فى الهدوء ورباطة الجأش » فى رواية ريمونت ٧ Reymont عن الفلاحين فى هولندا وفى القرى الصينية . كما وجدته أيضاً فى الدراسات الحديثة فى الشعوب الريفية فى أوربا وأمريكا اللاتينية وبدأت أتسائل : مم يتكون هذا التشابه ، وعما اذا كان من الممكن أن نعتبره حقيقة أم لا .

ويقترح الأستاذ ا . ك ل . فرانسيس . Francis فى بحثه الذى نشر منذ تسعة أعوام أن ذلك التشابه قد يظهر على شكل « نمط متكامل من الاتجاهات السائدة » ٨ التى تتميز بها طبقة اجتماعية دينا من القرويين

(أ) انظر _ R. Redfield, The Folk Culture of Yucatan, op. cit.

فى مناطق منتشرة من العالم » ٩ . ثم استمر الاســتاذ فرانسيس فى التحقيق من ذلك النمط المتكامل من الاتجاهات السائدة ، كما وجد من دراسته لأقدم الكتب عن الحياة القروية وهو كتاب الاعمال والايام لهزيود Hesiod (أ) وقد كان هزيود على جانب كاف من التعليـم الحضرى بحيث تقدم الى المحاكم ضد أخيه فى نزاع حول الميراث ، كما اسـتطاع أن يتعلم فن الشعر من الكتب حتى حصل على جوائز كثيرة فى كتابة الشعر ، ولكنه عاش سنوات كثيرة مع الفلاحين .

وقد قدم الأستاذ فرانسيس تلخيصا جيدا لما قاله هزيود . وينطبق هذا التلخيص على الفلاحين الآخرين بحيث جعلنى أفكر فى البحث عن كتب مماثلة فى بعض المجتمعات القروية الأخرى . وعندما دعيت للمشاركة فى سلسلة من المحاضرات عن « الحياة الطيبة » ، استخدمت عبارة الحيـــاة الطيبة للدلالة على ذلك « النمط المتكامل من المواقف والاتجاهات السائدة » وخاصة عندما يمثل الاتجـــاه القيمى للبشر . وعقدت مقارنة مختصرة بين وصف هزيود لسـكان بوريتانيا (ب) فى القرن السادس قبل الميلاد ، وبين هنود ميا فى يوكاتان الحديثة « لأنى أعلم الكثير عنهم بشكل مباشر » كما قارنت بينهم وبين الفلاحين البسطاء فى مقاطعة سرى (ج) Surrey كما وصفهم جورج ستورت George Sturt ويوجه ستورت الذى (كتب تحت اســم مســتعار وهو جورج بورن George Bourne) اهتمامنا الى تلك الاتجاهات والأفكار السائدة عن كيف يعيش المرء حياته كما يجب وخاصة الاتجاهات والأفكار السائدة بين الفلاحين الانجليز الذين تحولوا الى شعب ريفى بعد قرار تسوير الأراضي العامة وجعلها ملكيات خاصة فى عام ١٨٦١ . ومجىء بعض سكان المدن الى الريف بعد ذلك . وقد شاهد جورج ســتورت كثيرا من هذه التغيرات .

(أ) هزيود شاعر يونانى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد . وقد قام بكتابة اشعار عديدة تناولت موضوعات تعليمية وأخلاقية . ومن اهم اعماله كتاب « الاعمال والايام » وكتاب « مبحث الالهة اليونانية »

(ب) سكان بوريتانيا هم الفلاحون الاغريق الذين كانوا محل احتقار سكان أثينا.

(ج) تقع مقاطعة سرى فى انجلترا .

وفى اثناء مقارنة قصيرة لهذه الشعوب الثلاثة التى تبعــد عن بعضها البعض فى الزمان والمكان وجدت كثيرا من التشابه لدرجة أننى قلت فى هذا الصدد : « أنه لو أمكن نقل أحد الفلاحين من احدى هذه المجتمعات المتباعدة الى مجتمع آخر . بواسطة جنى أو عفريت وأصبح على معرفة بلغة القرية التى تم نقله اليها ، فانه سرعان ما يشعر بانه بين قومه وعشيرته . ذلك لأنه لن يجد أى تغيير فى القيم الأساسية للحياة وسيتجه مؤشر البوصلة الى الشمال دائما من الناحية الأخلاقيــة فى حياته » . ثم قمت بعد ذلك بتحديد أوجه التشابه التى وجدتها ١١ . وسنتحدث فى الجزء الباقى من هذا الفصل عن هذه التحديدات بالنسبة للاتجاهات والقيم القروية كما سنتحدث خاصة عن هذه التخصصات طبقا للشواهد الأخرى .

وقد كتبت تلك المحاضرة التى توصلت فيها الى هذا الاستنتاج ، ليس كمساهمة من جانبى نحو العلم ولكن لكى أوضـح لمجمـــوعة من المستمعين أن الفلاحين لديهم شيء يمكن أن يسميه المرء نظرة أو رأيا فى الحياة الطيبة . اذ أنه ليس من العلم فى شيء أن نبين بعض أوجـــه التشابه الهامة بالنسبة للصفات الموجودة لشعوب تبعد كثيرا عن بعضها فى الزمان والمكان مثل البوتيون القدماء Boeotians وســكان الريف الانجليزى الحديث ، والفلاحون الهنود فى قرية يوكاتان فى الوقت الحاضر ، ولكنها وسيلة جيدة لاستمرار المناقشة . اذ يمكن معارضـــة وتحدى الشيء الكثير فى مقارنتي هذه بالنسبة لمعنى عبارة « الحيـــاة الطيبة » ، وبعض الكلمات الأخرى التى استخدمتها فى وصــف القيم القروية ، وبالنسبة لمدى صحة المقارنات التى تقوم على أساس أنواع مختلفة من المصادر حول هذه التى تبعد كثيرا عن بعضها فى الزمان والمكان ، وبالنسبة لقيمة ومدى أهمية التعليمات التى توصلت اليها بعد دراســـة قصيرة لثلاثة فقط من الشعوب القروية من بين آلاف الشعوب القــروية الموجودة ، كل هذه شياء قد تثير كثيرا من النقد .

وقد واجهت ذلك النقد فعلا الذى أثاره الاستاذ ف . ج . فريدمان Friedmann الذى قام بدراسة الفلاحين فى جنوب ايطاليا ، كما اهتم لمدة طويلة بتلك الجوانب من حياة القرويين البسطاء التى يسميها

الأنثروبولوجيون « الاتجاه القيمى » أو ربما « المزاج العام للشعب » . وكفيلسوف وعالم من علماء العلوم الانسانية أطلق الاستاذ فريدمان على هذه الاتجاهات القيمية عبارة « طريقة الحياة والنظرة الى الحياة » ، وأثار مناقشة لمحاضرتى وللموضوع عامة وقد اشترك فى هذه النــدوة حوالى اثنى عشر شخصا ممن قاموا بدراسة الشعوب القروية فى أجزاء كثيرة من العالم . وفيما يلى ساعتمد كثيرا على ما قدمه هؤلاء العلماء ، وسأذكر اسم كل منهم عند ذكر كل مسالة من المسائل . كما أتوجه بالشكر لهم جميعا ، وآمل أنهم سيقومون بتصحيح وتطوير بدايتى المتواضعة بذكر بعض نتائج هذه المناقشة واننى أستخدم ما أسهموا به ليس لمجرد تقديم وصف للقيم القروية ، ولكن لكى أؤكد أن المشكلة مشكلة حقيقية . ويبدو لى أن نتيجة المناقشة تزيد من الاحساس بأن ظروف الحياة القروية تؤدى الى وجود بعض التشابه بين الفلاحين من ناحية نظرتهم الى الحياة بمعنى أن النظرة الى الحياة التى يتميز بها شعب قروى تشبه الى حد ما نظرة الشعوب القروية الاخرى ، ولكن ذلك لا يظهر دائما فى كل أوجه التشابهه . كما أعتقد ايضا انه عندما يمكن تحــديد المصطلحات وذكر الحقائق بشكل أوضح كى تفسر بعض المسائل ، سنستطيع تحديد أوجه الشبه والخلاف مع ذكر الظروف الخاصة التى تعللها وباختصار ، يبدو لى أن هذه الرحلة العلمية بين مشاكل الفلاحين كنمط من الانماط البشرية أو كشعوب لها نظرة واحدة الى العالم ، هى احدى نتائج التوســع فى موضوع الأنثروبولوجيا ، ذلك التوسع الذى نقوم بدراسته فى هذه الفصول. وللآن لا نعرف الكثير عن هذه المشاكل . وانى أعتقد أن المناقشــة التى أثارها الاستاذ فريدمان قد أوضحت أنه يمكن اخضاع هذه المشاكل الكثير من الاستقصاء والاختبار المدروس .

وسأبدأ الآن بأولى هذه التعميمات الثلاث التى قدمتهــا فى تلك المناقشة المرتجلة كما سأذكر ما طرأ عليها فى المناقشة التى تلت . ويبدو اننى وجدت بين فلاحى انجلترا فى القرن التاسع عشر وبين الفلاحين فى يوكاتان فى الوقت الحاضر وفى بيوتنا القديمة مجموعة متشــابكة من ثلاث اتجاهات أو قيم مترابطة . فهم ينظرون الى الأرض نظرة تبجيل

صريحة (أ) ، ويعتقدون أن العمل بالزراعة عمل خير على عكس العمل بالتجارة ويركزون على الكد والاجتهاد بغرض الانتاج كاحدى الفضائل الأولية . وبالنسبة لنظرة التبجيل الى الارض فقد اتفقت نصيحة هزيود تماما مع كثير من النصائح التى سمعتها على لسان مزارع من قرية يوكاتان الى ابنه أو الى أنا شخصيا كعالم من علماء الأنثولوجيا (ب) يقـوم بتسجيلها ويقوم فلاح مايا بتعليم ابنه كيف يستخدم الفأس والمنجل وكيف يخفض رأسه ليتجه بالشكر الى الله عندما تتم ازالة الغابة لزراعة الارض، وكيف يعامل نبات الذرة بالتبجيل والاحترام ويعتبر حقل الذرة مكانا مقدسا . وقد وجدت فى الصفحات التى كتبها هزيود ذلك الخليـط من الورع والحكمة بالنسبة للحياة الزراعية . وانتهيت الى أن الطبيعـة هى ملك للانسان ، كما هى ملك للآلهة بالنسبة لقدماء الاغريق أو شـعب مايا الحديث . فالانسان يعمل فوق الطبيعة ، ولكن ذلك العمل يتسم بالاحترام والتبجيل . فالزراعة شيء عملى تسوده مشاعر دينية . ولم أجد أية تعبيرات دينية صريحة بالنسبة للزراعة فى ذلك الكتاب عند رجـل الريف فى ساكس (أ) Suesx ، ولكننى نقلت عن جورج ستورت ما مؤداه أن فى ساسكس أيضا ينتشر احساس بالارتباط بالطبيعة وتبجيلها . ورغـم أن هذه المنطقة تفتقر الى التعبيرات الرسمية عن الاحساس الدينى فى الزراعة ، الا أنه يوجد هناك ما يسميه ستورت « الاحساس الخافت بشيء مبجل » فى الأرض وفى النشاط الزراعى .

وأعلنت قبل ذلك تأكيد الفلاح على الكد والاجتهاد فى الزراعة كاحدى الفضائل الأولية وذكرت أن هناك ثلاثة اعتبارات رئيسية تؤيد ذلك التأكيد : الطمأنينة الاحترام ، وذلك الشعور الدينى الذى ذكرته

(أ) قارن _ عاطف غيث ، القرية المتغيرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

(ب) من التعريفات الشهيرة للانثولوجيا تعريف كروبر الذى يقول بانها « علم دراسة الشعوب وثقافاتها ، وتاريخ حياتها كجماعات ، بغض النظر عن مقدار تقدمها انظر » _ A. L. Kroeber, Anthropology, op. cit.

(أ) ساكس هى احدى المدن بانجلترا ، وقد انشيء بها أحدث جامعة انجليزية عام ١٩٦٥/١٩٦٦ .

من قبل ثم نقلته عن هزيود مرة أخرى بالنسبة للطمانينة والاحترام الذى يشعر بهم الرجل المجد المجتهد وذكرت كيف علم الفلاح فى يوكاتان أطفاله كيف يعملون على الارض نجد لأن سمعته ووسائل معيشته تعتمد على الأرض : ولأن الآلهة تتوقع ذلك من الانسان . وقد أوضحت أيضا كيف أنه فى احدى قرى مايا استمر بعض الرجال يمارسون الزراعة رغم أنها لم تكن مجزية من الناحية الاقتصادية لاعتقادهم بأن زراعة حقل من الذرة يعتبر شيئا ضروريا للمشاركة فى الحياة الدينية والأخلاقية لذلك المجتمع .

وذكرت أيضا ذلك الاحتقار الذى يشعر به الفلاح فى مايا نحو رجل المدينة كشخص سريع التعب ولا يستطيع مواصلة القيام بالعمل الذى يعتبره القروى ضرورة ومصدر فخر . كما نقلت عن جورج ستورت نفس الشيء بالنسبة للفلاحين فى ساسكس . كما يرى الفلاح فى مايا وفى بويتيا ذلك الخلاف بينه وبين رجل المدينة فى رجل التجارة أيضا . فقد أصبحت التجارة فى نوكاتان شيئا أشبه باللعبة والمخاطرة بالنسبة للفلاحين ، ولم يكن لها أبدا أهمية وجدية الزراعة . وبنفس الطريقة لا يحبذ هزيود فى نصيحته المغامرات التجارية ، ويبدأ الفصل الذى كتبه عن ذلك لموضوع بالكلمات التالية : « واذا اتجهت بقلبك المضلل الى التجارة .. .. » . وباختصار أعتقد أننى وجدت فى تلك الشعوب الثلاث التى استعرضتها نظرة وقار ورزينة الى العمل ، والارتياح فى القيام بالعمل الشاق لمدة طويلة فى الحقول وعدم الميل الى المخاطرة أو المضاربات التجارية . وأعتقد أن كل ذلك (كما لاحظ فرنسيين وآخرين) يتعارض مع نظرة الأبطال المحاربين مثل هؤلاء الذين تم وصفهم فى الالياذة (أ) . أو الذين ظهروا فى المهابهاراتا (ب)

فماذا كان نصيب هذا التحديد للصفات فى المناقشة ؟ . وفى أول الأمر ظهر بعض التاييد . فقد وصف الاستاذ أروين ساندرس Sanders الفلاحين البلغاريين ، وكيف أنهم يضعون « ملكية الأرض والعمل الشاق

(أ) الالياذة والاوديسا هى من اعمال الاديب الاغريقى هومر Homer

(ب) راجع هامش (أ) ص ١٣٦ .

والاقتصاد فى الإنفاق » ١٢ فى مقدمة القيم الأساسية وقد لاحظ الأستاذ دونالد بيتكين Donald Pitkin من خلال قراءاته أن « التاكيد على الكد والاجتهاد فى الانتاج كفضيلة أولية وواجب رئيسي يعتبر حقيقة بالنسبة للفلاحين فى ايرلندا أو الفلاحين فى كندا عندما كانت تحت الحـــكم الفرنسي » .

ولكن سرعان ما ظهر أنه لا تشعر بذلك كل الشعوب التى يمكن أن تسميها قروية . فقد أخبرنا بتكين أن الفلاحين فى جنوب ايطاليـــا ينظرون الى العمل أنه شيء ضرورى لكسب وسائل المعيشة والحصـــول على الطعام . ولكنهم يشعرون أنهم من الافضل أن يشتغل المرء بعقـــله وليس بيديه ، ومن الأفضل أكثر الا يقوم بأى عمل . وقد اكتشف فريدمان أن الفلاحين الفقراء فى جنوب أيطاليا ليس لديهـــم نظـــرة التبجيل للأرض التى تظهر واضحة جلية بين الفلاحين فى مايا ، والتى يمكن ملاحظتها بين الفلاحين فى انجلترا طبقا لما قاله ستورت .

فلماذا اذا يختلف الفلاحون فى جنوب ايطاليا فى هذا الصدد ؟ وما هى الشعوب القروية أو شبه القروية التى تشعر أيضا بأن الأرض هى مجرد شيء يعمل عليه المرء لضرورة وليس كفضيلة من الفضـــائل ؟ . وفضلا عن ذلك ، فقد وجدت أن سكان المدن الاندلسية التى قام بدراستهم حديثا ج . أ . بيت — ريفرز J.A. Pitt-Rivers تفتقر الى تلك النظـــرة الروحية الى الأرض ، وهم يذهبون لزراعة الأرض ولكنهم لا يحبونها ١٣ . ولا يعتبرون على الأرض فضيلة من الفضائل الأساسية وقد ذكـــر مؤلف فرنسي نقل عنه بيت — ريفرز فى كتابه أن نفس الشيء يمكن أن تقوله عن الفلاح فى سوريا ، « يقوم الفلاح بالزراعة ... فى أسي وحزن شديد .. فهو يعمل لنفسه وليس لصالح الأرض . ولا يشعر بأن الأرض امتداد لنفسه ١٤ » (Il ne sent pas, celle-ci le dépasse et le prolongue)

وهنا ظهر اختلاف حقيقى ، اذ يشعر الفلاح فى مايا وفى كنـــدا عندما كانت تحت الحكم الفرنسي وكذا الفلاح الانجليزى القـــديم أن الأرض امتدادا له .

وقد اقترح كل من الأستاذ توليو تنتورى Tullio Tentori وهـــو

باحث آخر ممن قاموا بدراسة الفلاحين فى ايطاليا ، وكذلك دونالد بتكين، ان الفلاحين الذين يركزون فى العمل على الأرض كفضيلة من الفضائل لديهم أرضا كافية ، كما يتمتعون بكثير من الطمأنينة بحيث يؤدى العمل الزراعى الى حياة كريمة وليس الى « مجرد البحث الشاق عن وسائل الحياة ، (كما قال بتكين) ذلك لأن الحالة الاقتصادية للفلاحين فى جنوب ايطاليا جد سيئة بحيث يمكن أن تنمو بينهم رغبة الهروب من العمل الزراعى الشاق بسهولة ، مع وجود أمثلة على الثراء والحياة الحضرية السارة . ولست متأكدا تماما عما اذا كان ذلك التفسير ينطبق على سكان الجبال من الفلاحين الاسبان الذين يعتبرون من الناحية الاقتصادية أحسن حالا من الفلاحين فى جنوب ايطاليا .

وانى لأتساءل الآن عما اذا كان من قبيل الصدف أن القرى الريفية الأوربية التى يعرف فيها الفلاحون كرامة العمل الزراعى تقع على بعد مسافة كبيرة من البحر الأبيض المتوسط . اذ أن الفلاحين الذين يشعرون بكرامة العمل على الأرض (أ) هم فلاحو بلغاريا وأيرلندا وانجلترا . أما فلاحو جنوب ايطاليا والأندلس وسوريا فلا يشعرون بذلك . ويقول بيت ـ ريفرز ان النظرة الى الأرض التى وجدها فى المدينة الأندلسية « تميز شعوب البحر الأبيض المتوسط رغم أنها تختلف فى ذلك عن شعوب شمال شبه جزيرة ايبريا (ب) ١٥ ومعنى ذلك أن الاختلافات فى النظرة الى الأرض قد تعكس بعض الاختلافات الثقافية الاقليمية القديمة. ولهذا يتذكر المرء ذلك التركيز على السكن فى المدينة الذى كانت تتميز به شعوب البحر الأبيض المتوسط القديم . على عكس الشعوب القبلية والمهاجرة لشمال وشرق أوربا ويعتبر الأندلسي نفسه من سكان المدن رغم انهيعمل بالزراعة وينتمى الى طبقة أدنى ثقافيا من طبقة النخبة المتعلمة . كما يوجد هناك احتمال أن تظهر مكانة المدينة المرموقة التى

(أ) قارن ـ C. F. Hamed Ammar, Growing up in an Egyptian Village Province of Aswan, Routledge and Kegan Paul, London, 1954, pp. 35-39 .

وانظر كذلك ملحوظة ردفيلد رقم ١٥ الخاصة بالفصل الرابع فيما يختص برأى حامد عمار حول هذه النقطة .

(ب) تشمل شبه جزيرة ايبريا اسبانيا والبرتغال .

صَحبها منذ القدم عدم ارتياح القروى للحياة الزراعية فى المنطقة التى تقع حول البحر الأبيض المتوسط . ولكن الا يقل ذلك الاحتمال عندما نتذكر نصائح هزيود بالنسبة للاجتهاد والكد فى العمل الزراعى ؟ أم ان كلماته التى تعبر عن ذلك الزمان والمكان لم يتكون فيهما عدم الارتياح وعدم الرضاء بالعمل الزراعى لدى الفلاحين الاغريق ؟ أو انه لا يجب ان نعتبر ما كتبه هزيود دليلا على الاحساس بالفضيلة عند القيام بالعمل الزرعى .

وقد تختلف درجة صحة هذان التفسيران : التاريخى ، والبيئوى ـ الاقتصادى لموقف الفلاحين من الأرض والعمل ، وقد تختلف تاثيراتهما فى أجزاء مختلفة من العالم : فالعمل على الأرض شيء كريم بالنسبة لهنود مايا لأنه يرتبط بالدين وفضائل الرجولة ، والفلاح المايانى فى الواقع يعيش حياة لائقة عن طريق العمل الزراعى . وقد ظهـر ذلك الارتباط بين الزراعة والدين فى حياته منذ القدم ، ولم تتمكن المدنية الدنيوية من تدمير ذلك الارتباط . ولكن الارتباطات العاطفية والأخلاقية بالأرض التى يتميز بها الفلاح الانجليزى تبعد كثيرا عن هذه العلاقات البدائية بين الذين والزراعة . فالرجل المايانى مزارع بدائى وكان قرويا بالنسبة لسادته القدماء ، ثم أصبح قرويا أيضا بالنسبة لسادته الأسبان فى الوقت الحاضر . أما رجل الريف الانجليزى فلم يعرف قرويا دنيويا بينما كان من الممكن ان يعيش حياة كريمة عن طريق العمل الزراعى . وربما قد ورث الفلاح فى جنوب ايطاليا عدم رضائه بالحياة الريفية من العصور القديمة كما وانه قد تأثر فى ذلك بمصاعب الحياة التى يحياها الآن ومشاقها على عكس حياة السادة والأغنياء .

وقد قام المان وهيلين سرفيس Elman and Helen Service بوصف الفلاحين فى بارجواى . ويدل هذا الوصف على انه من الممكن وجود اتجاهات جديدة فى تفسير أوجه التشابه والخلاف فى هـذه المواقف والنظرات الى الحياة ويعيش هؤلاء الفلاحون فى مزارع متفرقة يمتلكونها بوضع اليد ، كما ان مصادرهم الزراعية ليست مغلقة ، اذ يمكنهم الحصول على الكثير من الأراضى عن طريق استصلاح الأراضى البور وزراعتها . وقد قيل لنا أن هؤلاء الفلاحين الذين يرتبطون بعلاقات هامة مع النخبة المتعلمة من ناحية السلطة والوضع الاجتماعى « لهم مواقف واتجاهات

قروية » اذ أنهم يعملون بالزراعة كوسيلة لايجاد القوت وكطريقة فى الحياة وليس كعمل تجارى • ولا يرغب هؤلاء الفلاحــون فى امتلاك الأرض • فهم يعيشون فى رغدة بدون امتلاكها لأنهم يسيطرون عــلى الأرض التى يعيشون عليها ، ويقومون بزراعتها دون أى حق شرعى أو قانونى • وعندما يعملون كمســتأجرين يعتبرون علاقتهم بصاحب العمل علاقة شخصية • وأنهم يقومون بالعمل كخدمة وجميل يصنعونه فى صديق (أ) ولا تتضح نظرتهم للعمل على الأرض من هذا التقرير ، ولكن لكى نفهم نظرتهم واتجاهاتهم نأخذ فى الاعتبار حقيقتين هامتين: (الحقيقة الأولى) أن مصادر الحصول على الأرض ليست محدودة ، (والحقيقة الثانية) أنهم من الناحية التاريخية وليس من ناحية البيئة جاءوا الى بارجوى كرواد ولم يحضروا معهم أى ديانة أو نظم اجتماعية ترتبط بالزراعة أو تتركز فيها مثل تلك التى نمت بين شعب المايا فى أمريكا •

ولقد حاولنا الى الآن التوفيق بين الدراسات المتعارضة الى حــد ما لنظرة الفلاحين ومواقفهم بالنسبة للأرض والعمل عليها ، مفترضــين أن هذه الدراسات المختلفة متعادلة بمعنى أن كل هؤلاء الكتاب يقدمون اجابات يمكن الاعتماد عليها للسؤال الآتى وهو : هل يعتقد هــؤلاء الفلاحون أن العمل على الأرض شيء طيب ؟ والاجابة أننا نشك أنهــم

(أ) تشير الدراسات الانثروبولوجية الى ان المساهمة فى العمل فى كثير من المجتمعات البدائية تنتج عن شعور ورغبة الفرد والتزامه الادبى اتجاه أقاربه فى النسق القرابى Kinship system واتجاه أصدقائه كذلك • وهذا يوضح لنا ان هذه الرغبــة لا تنتج من أجل الحصول على كسب مادى يتوقعه المرء • أضف الى هذا ان عنصر الوقت فى العملية الاقتصادية ليس مهما فى الجماعة المتأخرة بقدر أهميته فى الجماعات المتقدمة • وعلى ذلك كما يذهب أوســكار هاندلين Oscar Handlin فان النظــام الاقتصادى هو جزء فحسب من النظام الاجتماعى العام ، وبالتالى لا يمكننا بسهولة الفصل بين الادوار الاقتصادية والاجتماعية للفرد انظر –

Oscar E. Handlin, "Peasant Origins" in Dalton (ed.) Tribal and Peasant Economics, The American Museum of Natural History, Garden Cit, New York, 1963, p. 460 ff .

انظر كذلك Manning Nash, "The Organization of Economic Life", in SolTax (ed.), Horizons of Anthropology, Aldine Publishing Company Chicago, 1964, pp. 177-178.

يعتقدون ذلك • وماذا تعنى عبارة « يعتقد أنه شيء طيب » ؟ • من الواضح أن العلماء الذين اشتركوا فى الندوة قد فهموا أن موضوع المناقشة هو رأى الفلاح عما هو طيب أو فاضل ، وليس الطيب كما يقيمه أو يحكم عليه الشخص المراقب والشخص الخارجى ولكن الطيب بالنسبة للفلاح ينقسم الى انواع وله أبعاد عديدة • وقد أوضح ذلك الدكتور بورج هانش Borje Hanssen عندما كتب عن الفلاحين السويديين فى الازمنة القديمة • فقد أوضح ان النشاط الجسمانى وقوة التحمل يعتبران من « الفضائل » أو شيئان طيبان بمعنى أنه من الضرورى ومن المرغوب فيه أن يتمتع المرء بهاتين القوتين • ومن ناحية أخرى أن العمل على الأرض ليس شيئا مرغوبا فيه ، اذ يفضل الفلاح « أن يجلس فى مكان مريح بجانب مدفاة أو موقد على القيام باى عمل شاق » ويمكن أن يتصور المرء أنه بالنسبة لكثير من الفلاحين يعتبر العمل الشاق فى الحقول فضيلة يجب أن يتعلمها ويحترمها • بينما نجد فى نفس الوقت أن الراحة والفراغ ليست مرغوبة فقط ، ولكن يتوق اليها الجميع على أنها شيء ضرورى بمعنى أنها شيء طيب • ومن المستحسن أن يستريح المرء من العمل وليس الا يعمل مطلقا وذلك فى حدود عدم تفضيل أو تحبيذ الكسل والبطالة ، وقد اثار الدكتور هانش نقطة هامة أيضا وهى أن الشيء الطيب أو « المرغوب فيه » للفرد قد يختلف عن الشيء الطيب أو المرغوب فيه بالنسبة للمجتمع ويعنى ذلك أنه يوجد بعض التضارب بين عناصر ما هو مرغوب فيه •

ويتطلب ذلك اعادة النظر فى مصادرنا ، كما يتطلب أيضا اعادة بحث واختيار مناهجنا • وربما تتحدث المصادر عن الجوانب المختلفة للشيء الطيب أو المرغوب فيه • وقد يستطيع كل من فريدمان وتنتورى وبتكين أن يذكر لنا شيئا عن القيمة الايجابية للاجتهاد والكد فى الحقول ، على عكس رغبة الفلاح فى جنوب ايطاليا فى الهروب من العمل الشاق قليل الجزاء • بينما يعتبر العمل فى يوكاتان وكندا عندما كانت تحت الحكم الفرنسى شيئا كريما أكثر منه فى كالابريا • ويعتبر التقرير الذى قدمته عن الاتجاهات ولمواقف فى مايا دراسة أو وصفا للقيم التى يراها هؤلاء الفلاحون فى الزراعة • ولم يذكر ذلك التقرير — وهذه حقيقة — أن الفراغ شيء مرغوب فيه أو أن العمل الشاق شيء يجب الهروب منه

إذا أمكن ولا يثبت وصف هزيود أن الفلاحين الذين كتب عنهم كانوا راضين تماما أو كلية عن حظهم فى الحياة : اذ يعتبر كتاب الاعمال والايام تعليميا فى كثير من جوانبه مثل كتاب تقويم رتشارد الفقير Poor Richard's Almanac اذ أنه يعلم جيرانه كيف ينجحون فى الزراعة من الناحية العملية والدينية · وعلى هذا فان المصادر ليست متعادلة ، لأننا نجد فى بعضها تأكيداً أو تركيزا على تبجيل النشاط الزراعى وعلى المشاعر الدينية التى ترتبط به · كما نجد فى البعض الآخر التأكيد على تفضيل الراحة والفراغ · ونجد فى بعضها تركيزا على تعليم الكد والاجتهاد وكعادة وفضيلة محل اعجاب الجميع · وأعتقد أن هذا التركيز المختلف يمثل من ناحية الاختلافات بين المجتمعات التى توجد بها ، ومن ناحية أخرى ينشأ من اختيار الكتاب والمراقبين لأحد جوانب الموقف الاجتماعى والتركيز عليه ·

وليس من المؤكد أن كل هؤلاء المخبرين من هزيود حتى جماعة الشواذ التى درسها فريدمان وصفوا النظرة الى « الحياة الطيبة » بنفس المعنى — وهى العبارة التى آثارها فى المناقشة ذلك العنوان الذى وضعه على محاضرتى ذلك الشخص الذى قام بتنظيم سلسلة المحاضرات التى تلقى على المستعمين فى شيكاغو عام ١٩٥٣ · ويتضمن أى بحث للقيم (أ) التى يتميز بها شعب آخر ثلاثة أسئلة على الاقل ، فيم يرغب هؤلاء الناس ؟ وما هى الصفات — على الأقل من ناحية الحكمة والتعقل التى يحاولون خلقها فى أطفالهم ؟ وأى نوع من الحياة يقدرون — سواء ذلك الذى يرغبون فيه أو سواء ذلك الذى يتنبأون به لأنفسهم — ؟ · وأعتقد أنه قد يكون هناك كثير من التضارب والتعارض بين الاجابات على هذه الأسئلة بالنسبة للفلاحين فى أى مكان ·

(أ) يقول مالينوسكى فى أحد المؤلفات التى نشرت بعد وفاته ان القيمة عبارة عن « ارتباط قوى وحتمى بين الكائن الحى وبعض الاهداف والمعايير والاشخاص المعينين الذين يعتبرون وسيلة لاشباع حاجات الكائن الحى » ·

B. Malinowski, A Scientific Theor yof Culture and Other Essays, Chapel Hill, 1945.

راجع ايضا — المقدمة التحليلية للترجمة العربية ، وخاصة فيما يتعلق بمبحث القيم او المزاج العام للتعب ·

واذا استطعنا أن نتأكد أننا جميعا نسأل نفس السؤال عن الحقائق الخاصة ببعض الفلاحين ، وأن الاجابات التى نحصل عليها تتعادل فى درجة صحتها ، فسنتمكن فى هذه الحالة من التوصل الى استنتاجات معينة بالنسبة لمفاهيم الطيبة والسوء (١) التى ترتبط بالأرض والعمل فى المجتمعات القروية . وأعتقد أننى رأيت من خلال المناقشة التى دارت بين عدد قليل منا ومن خلال الشكوك الكثيرة أنه من المحتمل أن كثيرا من الفلاحين يشتركون فى مجموعة من المواقف والقيم بالنسبة للأرض والعمل . وليس ضروريا أن تكون نفس المواقف والقيم ، ولكن هناك كثير من التشابه بينها ، وربما يمكن أن نلاحظ هذه المجموعة من المواقف والقيم مباشرة فى حالة القرويين ٢ الذين يرتبطون بعلاقات دائمة أو ثابتة مع قطعة محدودة من الارض ، ومجموعة من السادة أو الصفوة الذين لا يتغيرون كثيرا ، وبالنسبة لهؤلاء القرويون قد تشمل هذه المجموعة من المواقف والاتجاهات ارتباط للعمل الزراعى ببعض المشاعر التقليدية من الأرض ، وغالبا ما تتسم هذه المشاعر بتبجيل الأرض ، كما تشمل العلاقة بين العمل وبعض المثل العليا مثل قيمة الشخص وقدره وغرس قوة التحمل وحب العمل الشاق فى الصغار ، وليس الميل الى المخاطرة أو القيام بمغامرات شخصية . وتشمل أيضا تقبل العمل الشاق والاحساس بمتعة وسرور كبير عند انتهاؤه ، ونتيجة للاختلافات الاقليمية بالنسبة للاتجاهات والمواقف التقليدية السائدة فى تاريخ اقليم معين ، قد يكون من الافضل أن نصف القيم القروية فى أى جزء من العالم بمفرده فى زمن معين ، ثم بعد ذلك نوضح كيف اتخذت هذه المجموعة و المجموعات من مزايا أو مساوىء العمل الزراعى اتجاها مختلفا نتيجة لشيء معين فى التاريخ القديم لهؤلاء الناس و نتيجة لبعض الأحداث القريبة مثل زيادة مفاجئة فى عبء الفقر و ظهور أى فرصة للهروب منه .

ونتجه الآن الى مجموعة أخرى من الصفات التى ربما تعزى الى الفلاحين والتى نوقشت فى تلك الندوة التى قادها الاستاذ فريدمان ، فعند استعراضه لوصف هزيود لآراء البوتيان فى الزواج والأسرة ، اكد فرانسيس على النزعة العملية نحو هذه المسائل الشخصية وعلى القيم الاقتصادية

---

(١) اى ما هو طيب وما هو غير طيب .

التى وجدها هؤلاء الناس فى الزواج والاطفال . فقد كان الفلاح القـديم يختار عروسه لانها تشتهر بالكد والاجتهاد ، كما كان يرحب بالاطفال لأن ذلك يعنى أيدى عاملة أكثر للقيام بالعمل الزراعى ، وعندما قمت بدراسة الفلاحين فى مقاطعة سرى رمايا توصلت الى تعميم أوسع بالنسبة للقيم السائدة أو طابع الشخصية العامة ، وقد كتبت فى هـذا الصدد « أن ما يخلق الطابع الأساسي للحياة القروية هو ذلك الشعور العمـلى والتبجيلى ، وذلك المزيج من الورع والحكمة التى لا يمكن الفصـل بينهما ... وتعتبر الرزانة والاعتدال القيمة الاساسية المفضلة من هذه القيم ، كما يقدر الفـلاح حسن الآداب والذوق ولا يحب التعبير عن العاطفة ، ولا يجب على المرء أن يتباهى بشـهواته أو يسـتعرض عواطفه » .

واعتقد اننى وجدت عند هزيود وستورت ما يدل على احتقار العواطف والواقعية الشديدة وكبح العواطف والمشاعر الرقيقة ، عـلى عكس سلوك المحاربين القدماء الذين ظهروا فى الاليـاذة أو فى عصر القراصنة .

وقد رأيت على وجه الخصوص ذلك المزاج العقلى وذلك الاحساس واضحين فى الاتجاهات العملية الى الجنس والزواج فى المجتمعـات الثلاث التى قمت بمقارنتها . وقد تذكرت تلك العبارة التى جاءت على لسان أحد القرويين فى مايا أثناء حديثه معى . « على المرء أن يعتنى بالأرض تماما كما يعتنى بزوجته وأسرته » عنـدما قرأت النصيحة المشابهة فى كتاب هزيود « عليك أن تحصل أولا على منزل وزوجـة وثور يجر المحراث » . وأعتقـد اننى وجـدت فى شـان كوم (أ) Chan Kom وفى ريف مقاطعة سرى كما وصفه ستورت ، وفى تلك الصفحات التى كتبها هزيود بعض الآراء الحكيمة المشابهة بالنسـبة للحصول على زوجة وكيفية الحياة معها . وأستطيع أن أجزم أن فى كل هذه المجتمعات الثلاث يعتبر الزواج جزءا من العمل والتقوى فى الحياة (ب) ، واعتقد أن وصف ستورت للزواج عنـد سـكان الريف الانجليزى القدماء « كشركة ثابتة دائمة » ١٨ ينطبق أيضا على شـعب مايا وعلى قدماء الاغريق . وقد أدى ذلك الى أن أقول « ان الفلاح

(أ) انظر — R. Redfield, A Village that Chose Progress, University of Chicago Press, Chicago, 1949.

(ب) قارن — عاطف غيث ، نفس المرجع الذى سبقت الاشارة اليه .

لا يوافق على تلك النشوات الطائشة التى تتميز بها بعض الزيجات فى الحضر ، ولا يمكن أن يتقبل سلوك أحد هنود السهول الذى ينبذ علانية زوجة صالحة اذا أراد ، لمجرد أنه شعر باهانة طفيفة من جانب أصهاره . ولكى يعبر عن استقلاله كرجل وعن احتقاره للمسرات ووسائل الراحة السارة » ١٩ . وقد قادنى هذا التفكير الى بعض الاستنتاجات العامة عن مكان التجربة الجنسية فى اطار القيم القروية . فليس هناك محل للتظاهر بالمغامرات الجنسية والتفاخر بها فى الحياة القوية حيث يرتبط العمل والشعور الفعلى بروح من التحفظ والتأدب وكبح العواطف . كما أنه ليس من الممكن نمو المغامرات الجنسية والعاطفية فى المجتمعات القروية مثل تلك التى تمارس فى كثير من مجتمعات بولينيا (أ) أو داخل بعض الجماعات الغربية الحديثة . صحيح أن التجربة الجنسية شيء عام قبل الزواج ، وقد تحظى بموافقة الجميع أو يتم تنظيمها طبقا لقوانين معينة (كما هو الحال فى عادة البندلنج bundling) . ولكنهم لا ينظرون بعين الرضا عن الزنا أو العربدة . ويقول بورن Bourne عن سكان مقاطعة سرى « أنه يخجلهم جدا أن يسمعون عن الزنا فهم يحتقرون ذلك كعمل لا أخلاقى » ٢٠ . وقد عبر هزيود عن سبب ذلك الاتجاه ببلاغة حين يقول : « لا تدع أى امرأة مزهوة بنفسها تلاطفك أو تحتال عليك او تخدعك فهى تريد الحصول على جيوبك » ٢١ وفى شان كوم أيضا عندما يرتكب الزنا من وقت لآخر وعندما يعلم به عامة النس يصبح الشخصان اللذان ارتكبا ذلك العمل اللا أخلاقى محل السخرية والتوبيخ .

وقد ربطت بين هذه التأكيدات التى تدل على تشابه الفلاح فى المجتمعات الثلاث من ناحية تقليل أهمية التجربة الجنسية كقيمة فى حد ذاتها أو كعمل رجولى ، وبين ما اعتبرته صفة أخرى وهى عدم الارتياح أو كراهية الضعف وازدراء البسالة أو القوة اذا اتخذت شكل الاعتداء الصارخ . ومرة اخرى يتحدى العلماء الآخرون الذين قاموا بدراسة مجتمعات قروية اخرى هذه التعميمات تماما كما توجد بالنسبة للمواقف والاتجاهات التى ترتبط بالعمل الزراعى . ومرة أخرى يمدنا

(أ) تلك الجزر الصغيرة التى تقع فى المحيط الهادى شرق استراليا .

الفلاح فى جنوب ايطاليا بدليل يؤيد هذا التحدى فقد ذكر الأستاذ تنتورى أن هؤلاء الفلاحين يقدرون التجربة الجنسية تماما فقد أخبره أحدهم « انها الطريقة الوحيدة التى نعرفها لكى نتمتع بالحياة » وقد أشير على بالرجوع الى عبرة السناتور نيتى Nitti وهو نفسه من جنوب ايطاليا بالنسبة « للعنف الذى يرتبط بالغريزة الجنسية » فى هذا الجزء من العالم الريفى . كما ذكرنى أحد العلماء بالعنف الذى يتميز به الفلاحون فى منطقة البحر الابيض المتوسط عندما يأخذون بالثار أو ينتقمون لشىء ما . وسرعان ما تذكرت كثيرا مما كتب عن شعوب البحر الأبيض المتوسط بالنسبة لى التعبير عن العواطف ، الميل الى استخدام العنف لأدنى أذى يلحق بالشخص ، ودور المغامرة الجنسية فى مفاهيم الرجولة . وفى الواقع توجد اختلافات كثيرة بين الشعوب القروية بالنسبة لمسائل العنف والتركيز على المغامرة الجنسية .

ولكن لم تتضح الى الآن هذه الاختلافات ، كمالم تتضح أسبابها . وقد يتضح جزء من هذا الاختلاف فقط ، وقد ينشأ نتيجة لما يقرره شخص ما عندما يؤكد السلوك الحميد كأحد المثل العليا التى ربما تتعارض مع بعض مفاهيم الخير الأخرى الموجودة فى نفس المجتمع . أو قد يكون هذا من ناحية أخرى اختلافا لما يقوله بعض الفلاحين عما يجب أن يكون عليه سلوك الانسان ، وبين ما يقولون أنهم يتمتعون به ولكن قد يكون هناك اختلافات فى العادات والطباع التى رسخت فى أى جزء من أجزاء العالم بمقارنتها بتلك التى نمت فى مجتمع آخر أو جزء آخر . وقد تتفق بعض هذه الاختلافات مع الظروف العامة للحياة القروية .

وهناك مثلا ما يسمى بالمزاج الأنثولوجى أو السلالى . فالشخصية الجماعية لأهل الصين شىء يستحق الدراسة والوصف . ولن تتفق نتائج هذا البحث مع النتائج التى نتوصل اليها من دراسة الشخصية الجماعية لسكان جنوب ايطاليا ، ويتمتع هنود مايا بشخصية جماعية نمت لديهم قبل أن يدخلوا فى علاقات مع السادة الأمريكيين الأسبان فى المدن الحديثة . ومع ذلك فان الشخصية الجماعية فى حالتهم والتى نمت قبل الغزو كانت تتفق من قبل مع ظروف الحياة القروية ، كما أنها نمت وتطورت أثناء علاقتهم مع النخبة من الكهنة والقساوسة . ولو انتقل

الكومانش Comanche - التى يوكاتان لكان عليه أن يتغير كثيرا كى يصبح فلاحا وبذلك يتضح أن الظروف العامة للحياة القروية لا تطرح جانبا التاثيرات الاخرى على الشخصية ، ولكنها تجعل الأفراد يملون الى تقييم رزين متحفظ للجنس والعنف الذى حاولت أن أصفه سابقا .

ويبدو أن التفسيرات الممكنة للقيم القروية كثيرة ومعقدة . وحتى فى هذه المناقشة القصيرة لآراء الفلاحين نحو القدرة الجنسية أو الميل الى العدوان عند الرجال ، أو بالنسبة لطريقة حياتهم سواء كانت متصفة بالاعتدال أو الانفعال العاطفى نجد أن هناك تفسيرات عديدة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار . وقد تكون الصفات العامة للحياة القروية هى التى تجعل الأفراد يملون عامة الى مزاج معتدل لا يحبذ المغامرات القروية فى أى مجال من مجالات العمل والسلوك . وقد يوجد داخل هـــذه الظروف العامة المتطابقة بعض الصفات القديمة أو التى رسخت منذ القدم لشخصية نموذجية ، والتى قد تتفق مع هذه النتيجة فى مكان ما أكثر من اتفاقها فى الأمكنة الاخرى . وقد يكون أيضا أن الفلاحين فى بعض أجزاء العالم قد تاثروا جدا بالسادة والنخبة حتى الذين يعيشون معهم . وبذلك نمت لديهم بعض الآراء عما هو مستحسن ومرغوب فيه أو مثالى والتى استمدوها من السادة . فمثلا أليس هم سادة أسبانيا الذين قدموا موضوع تلك القيمـــة المسماة بالرجولة hombria التى تتضمن الموافقة على المغامرات الجنسية عند الرجال والفخر الذى يتميز بشدة الحساسية وسرعة الغضب، كما تتضمن استخدام العنف فى الدفاع عن الشرف . ألا تظهر هذه القيمة عند الفلاحين أيضا . انها تظهر بكل تأكيد عند سكان المدن الريفية فى الأندلس ٢٢ . وهل يبدى الفلاحون أو السادة فى ايطاليا سواء فى (الماضى) أو الحاضر ارتياحا للمغامرة الجنسية أو العنف الذى أوضحه الاستاذ تنتورى قد يختـــلف مدى تاثير السادة على الفلاحين فى أسبانيا كان أقوى من تأثيرهم فى بولنـــدا وروسيا . وعلى أية حال فانى أجد سرورا عظيما عندما أذكر نفسى بحقيقة أعرفها تماما من الاهمية الواضحة للاختلافات فى التراث التاريخى فيمـــا يتعلق بتفسير الفروق بين القيم القروية . ويعيش الفلاح أو شبه الفلاح الهندى فى المناطق الريفية فى غرب جواتيمالا بجانب فلاح آخر يسمى لادينـــو Ladino ، وهو شخص يجرى فى عروقه دم أوربى وهندى وأمريكى تنتمى بعض أصوله الى سلالة أجداد من الاسبان ، كما انه يتكلم الاسبانية

وينتمي الى ثقافة إسبانية . ويعمل هـذان المزارعان جنبا الى جنب فى ظروف حياة مادية متشابهة ، ولكنهما يختلفان كثيرا فى الاخلاق والشخصية ، اذا يتسم اللادينو بكثير من أصول آداب السلوك الرسمي التى كانت سائدة فى مدينة كاستيل Castile ، كما توجد به بقـايا الاعتزاز بالرجولة ، بينما لا توجد هذه الصفات عند الهندى .

وبذلك يصبح من المستحيل تفسير مثل الفلاحين دون دراسة نوع ومدة العلاقات بين هؤلاء الفلاحين وبين سادتهم . وأعتقد أننا سنجد فى مجل انعلاقات بين القروى والسادة أو سكان المدن الشيء الكثير ، مما يجعل القروى شخصا مختلفـا عن الرجل البدائى . فهناك كثير فى الحياة القروية الذى نجده أيضا فى الحياة البدائية أو الحياة القبلية ، كما يعتبر النشاط القروى منظما بحيث يدل على رأى أفراد عن الحياة الفاضلة التى يقبلونها . فهناك كثير من بناء المعالى يستمد منها الناس السرور الذى يجدونه فى حياة راغدة يعيشونها على القليل ويأتى الرضا فى الحياة من ممارسة القيم والتمتع بقدرات ومهارات المرء وثمـار عمله . وينطبق ما قاله ستورت عن الحياة الفاضلة التى يتمتـع بهـا الفلاحون الانجليز على كثير من المجتمعات البدائية فى أفريقيا أو بين هنود أمريكا البدائيين الذين « كونوا من مهارتهم وقدرتهم ومعرفتهم الجرء الرئيسي لحياتهم من بيئتهم الخاصة واكتسـبوا بذلك كثير من السلوى فى تلك الحياة . وكانوا يجدون سرورا عظيما فى معرفتهم المحلية ويعتدون بمهارتهم وقدرتهم على تحمل المشاق ، ويشعرون أنهم ينتمون الى مجموعة من الناس لا تقل أهمية عن المجتمعات الأخرى ... ، كمـا تضمنت معرفتهم المحلية كل العادات التى استلزم موقفهم اتباعها والنابعة من اعتقادهم فى آراء الاجداد عن الخير والشر ٢٣ .

وكما هو الحال بين الشعوب التى رسخت منذ القدم ، يجد الفلاحون هدفا ومتعة فى الحياة لأن التجربة قد أعطت مغزا معينا للطبيعة والفرح والموت ، كما يجد الفلاح ذلك المغزى متمثلا ثانية فى عمـله اليومى وتسليته اليومية . وهم يعرفون ضمنا أو صراحة لماذا يولد الأطفـال ويكبرون لكى يتزوجون ويعملون ويقاسون فى الحياة ثم يلقون حتفهم . وهناك تاكيد أن العمل شيء نافع مفيد وأن الطبيعة أو الآلهة تشترك فيه . وتوجد قصة أو مثلا شعبيا يؤكد للمرء أن بعض الضعف البشرى

شيء يجب أن يتوقعه ، كما توجد فى كثير من الحالات اساطير (أ) تفسر شقاء الابرياء أو تعد العقل للموت . وعلى ذلك فرغم أن القرويين والبدائيين يتشاجرون ويغتابون ويكرهون كما نفعل نحن فان طريقتهم فى الحياة وذلك النظام الدائم العميق لتجاربهم البسيطة تجعلهم يتقبلون العالم من حولهم عقليا .

ومع ذلك يختلف وضع القروى عن وضع البدائى لان القرويين يعرفون اناسا أكثر تحضرا منهم ويعتمدون عليهم . كما ان هناك بعدا آخر للحياة خارج القرية فى العزبة التى يعيش فيها الاقرباء أو المدينة المفزعة . وقد يفتقد الفلاح الى المجتمع وطريقة الحياة التى تشبه طريقته وتعتبر غريبة عليه فى نفس الوقت . كما يحتفظ بكامل تقاليده عن طريق التوفيق : مثلا عن طريق بيع حبوبه فى المدينة أو دفع الضرائب واحترام القسيس أو الزعيم السياسى والاعتراف بوجود أشياء كثيرة افضل من قريته ، وتتسم حياة القروى الاخلاقية والفكرية بعدم الاكتفاء الذاتى . فهو يعلم أن هناك أناس خارج القرية يقومون بتعميد طفله ، واناس يساعدونه على استرداد حقوقه أو حرمانه منها فى المحاكم القضائية كما يوجد فى المدينة أو فى المدينة شخص ذلك الرجل الذى يأتى من المدينة من يستطيع أن يخبره بأكثر مما يعرف هو عن حياة وموت المسيح أو تعاليم كونفوشيوس (ب) أو عن راما Rama وسيتا Sita والصراع الكبير مع ذلك المخلوق الشرير رافانا Ravana وهناك أيضا يحتفظ ذلك الشخص الخارجى بالقصة المقدسة أو الكتاب المقدس ويفهمها تماما ، ذلك الكتاب الذى يمده بمعرفة أعمق وأفضل عن الاشخاص التى يعرفها مقدما عندما يقرأه أولئك الذين يعرفون القراءة . وربما بعد المصاعب والتضحيات سيذهب ابنه هناك الى ذلك الرجل أو الى تلك المدينة لكى يتعلم هذه المعرفة العميقة أيضا . وعندما قال جورج ستورت أن الفلاحين الانجليز كانوا يشعرون بانهم ينتمون الى مجموعة من الناس لا تقل أهمية وقدرا عن الآخرين ، أضاف أيضا:

(أ) راجع تعريف الاسطورة فى الفصل الثالث .

(ب) راجع التعريف بكونفوشيوس فى الفصل الثالث .

وكذلك التعريف بالتعاليم الكونفوشية فى نفس الفصل .

« ولو أنهم أفقر وأحقر واكثر بدائية وغلظة » ٢٤ نعم ، فان كل قروى يشعر باحترام ذاته وقناعته عندما يعرف أنه أفقر واحقر من السادة سكان المدن .

وهكذا يبدو انه عندما يقوم الانثروبولوجى بدراسة القيم التى تتميز بها الشعوب القروية تقابله صفة أخرى فرعية أو تابعة للصفات الاخرى ، وهى أن القيم الموجودة عند القرويين ونظرتهم الى الحياة الفاضلة لا يمكن أن نفهمها من دراسة الطريقة التى ينظر بها سكان القرية الى أنفسهم فقط . فرجل المدينة أو السادة يكونان جانبا من جوانب الحياة الأخلاقية المحلية ، وهم يكونون ذلك الجانب عن طريق الانعكاس وعن طريق اعطاء الأمثلة والنماذج التى يقدمها هؤلاء الاشخاص الخارجيين ، سواء كان القروى يسعى الى تقليد هذا النموذج او تجنبه أو سواء ادرك اوجه الشبه والخلاف بين ذلك النموذج وبين مثله هو .

وهل يشغل رجل المدينة والسادة مكانا معينا فى نظرة الفلاحين الى الحياة الفاضلة . بحيث تتشابه صفات هذه العلاقة فى كل مكان ؟ عندما كنت أقوم بكتابة تلك المحاضرة التى أصبحت فيما بعد محل نقاش كثير ، أدهشتنى عبارات عدة : أن تمرد الفلاحين لم يهدف الى أى ثورة فى تاريخ أوربا حتى وقت حديث جدا ، وأن العلاقات السائدة بين الفلاحين والسادة لم تكن علاقة اضطهاد بين مضطهد ومضطهدين ، وبالأحرى كان الفلاح يعتقد أن الأغنياء يجب أن يكونوا كرماء وأن الأقوياء لا يجب أن يسيئوا استخدام قوتهم . ٢٥ ويبدو لى أن ذلك الاستياء وتلك الكراهية التى يشعر بها القروى من وقت لآخر نحو الرجل الغنى تمثل بعض الحالات التى فشل فيها البعض فى الاحتفاظ بالأدوار والمراكز التقليدية التى تخص كلا من الفلاحين والسادة .

وباستثناء هذه الحقيقة ـ اذا اعتبرت حقيقة ـ التى تدور حول تقبل الاوضاع النسبية للسلطة ، نريد أيضا أن يكتشف شىء عن أوجه الشبه والخلاف بين الفلاحين والسادة بالنسبة لمضمون الثقافة ومفاهيمهم عن الخير ، فهل تقوم النخبة حقا بتوجيه الفلاحين فى المجال الاخلاقى ؟ ٢٦ وهل يقوم الفلاح بتقليد سيده أو أنه يتجنب أن يحذو

حذوه ؟ . أن المناقشة التى اعتمدت عليها كثيرا فى هذا الفصل لم تتوصل الى اجابة شافية بالنسبة لهذا السؤال . ويخبرنا دكتور هانش Hanssen أن الفلاح السويدى منذ مائة عام أو أكثر كان ينظر الى كل من يمثل السادة والنبلاء كاجنبى ، وأن موقف الفلاح السويدى هذا من السادة قد أبطأ ولكنه لم يعق تبادل الافكار وأشكال الحيـــاة بين الطبقتين . ويتضح مقارنة الفرق بين القروى والرجل البرجوازى فى قرية نوفيـــل الفرنسية Nouville فى الوقت الحاضر اذ يقوم القروى بتشغيل ابنته عند البرجوازى كى تتعلم آداب السلوك الحميدة ، ولكنه لا يود أن يصبح طفله برجوازى . « ولا توجد فكرة أن يصبح (المرء هكذا) ولكن توجد فكرة أن المرء يكون هكذا » ٢٧ . وتبين كثير من الحقائق التى ذكرتها عند الهند فى الفصل السابق كيف يؤثر المفكرون من خارج المجتمع المحلى على الحياة الاخلاقية داخل ذلك المجتمع ، كما أنها لا تدل على رفض الفلاح لهذه التأثيرات ، أو من ناحية أخرى على أنه يحاول أن يصبح شيئا مختلفا ومع ذلك فنحن نعرف أنه فى بعض أجزاء العالم فى الصين مثلا وفى فترات معينة قد يصبح الفلاحون من وقت لآخـــر عن طريق الادارة والنجاح فى الامتحانات أناس مختلفين عن الفلاحين بل وأفضل منهم . وتدل هذه الاعتبارات القليلة أن العلاقات مع الانواع المختلفة من السادة والنخبة تكون جزءا أساسيا فى الحياة القروية . وأن هذه العلاقات تتخذ أشكالا مختلفة فى الأمكنة والأزمنة المختلفة .

وفى الوقت الحاضر تتخذ هذه العلاقات أشكالا جديدة مختلفة . وعندما ينظر المرء الى التاريخ القديم يرى أن الفلاح قد تغير قليلا عبر آلاف السنين . فقد ظهر منذ القدم كما ظهرت المدن والحضارات فى العالم القديم ، ويظهر الآن كثير من الشعوب القروية عندما تنتقل الحضـارة الصينية أو الهندية الى المجتمعات القبلية . وعندما انتشرت الحضـــارة الأوربية فى العالم الجديد (١) ظهر نوع من الفلاحين الثانويين الذين يختلفون عن الغزاة من الناحية الثقافية .

وفى كل أجزاء العالم عامة ، كان الفلاحون أحد العوامل التى تقف فى وجه التغير الاجتماعى أو كبح جماح الثورة أو اعاقة عدم تكامل المجتمع

---

(١) أى فى أمريكا .

المحلى الذى غالباً ما يصاحب التغير التكنولوجى السريع ؛ ورغم هذا يتغير بسرعة كثير من الفلاحين فى الوقت الحاضر تغيرا سريعا • وقد يمكن القول بأنه لن يوجد فلاحون فى المستقبل • وقد تزيد من صعوبة المشـــاق التى يواجهها الانثروبولوجى فى دراسته للمجتمعات والثقافـات المركبـــة فى الشرقين الادنى والأقصى فى أمريكا اللاتينية أن ما كان ثابتا ومستقرا فى هذه المجتمعات لم يعد كذلك • ففى كثير من القرى التى يقوم بدراسـتها الانثروبولوجى يذهب الفلاح الى المدينة لكى يصبح عاملا فى أحد المصانع أو حتى عضوا من أعضاء الطبقة الوسطى فى المدينة (ب) • فالفلاحون فى الوقت الحاضر يريدون أن يصبحوا شيئا مختلفا عن أن يكونوا فلاحين وتجذبهم المدينة للعمل الصناعى ، وتنجح الوعود والضغوط التى تقدمها الشيوعية فى تغير الفلاحين رغم أنها تواجـه كثيرا من المقـــاومة فى المجتمعات القروية •

ونحن فى زمن يشعر فيه المتخلفون المنعزلون بعدم الرضا • فالناس البسطاء يريدون أن يصبحوا شيئا مختلفا ، كما تتكون وتنمو كثير من التطلعات بين الفلاحين • وتنقسم رغبات الفلاحين الى نوعين : اذ يعجب الرجل الريفى – الذى لا يملك أرضا ويريد أن يشعر بالأمن والطمأنينة بامتلاك الأرض – بالحياة القديمة المستقرة على الارض • وفى كثير من المجتمعات القروية يرى عدد كبير من الناس عمالا قرويين لا يستطيعون ممارسة عملهم على الأرض نظرا لأنها لم تؤل اليهم عن طريق الاجراء • وينطبق ذلك على بريا ولوكانيا Longyear وجنوب الصـــين وبعض أجزاء من الهند • اذ يوجد فى هذه المجتمعات القروية أشخاص يريدون أن يصبحوا فلاحين ، كما يوجد أشخاص يرغبون فى الهروب من الحياة

(ب) يطلق على هذه الظاهرة ظاهرة « هجرة العمل » Labour migration وهذه الظاهرة تميز الآن كثيرا من الشعوب المتخلفة فى افريقيا • حيث يهـاجر القادرون على العمل من المناطق القبلية والقروية الى المراكز الحضرية فى المدن من أجل العمل انظر –

P. H. Gulliver, Labour Migration in a Rural Economy, East African Studies No. 6, East African Institute of Social Research, 1955 and Incentives in Labour Migration, Human Organization, Vol. 19. No. 3, 1960, pp. 159-63.

القروية . وقد قال فريدمان فى هذا الصدد : يمكننا أن نرى الآن الرغبة الشديدة فى امتلاك الأرض ، والرغبة الشديدة فى الهروب منها جنبا الى جنب » . وفى هذه الحالة لا يقوم الأنثروبولوجى بمجرد دراسة الطريق التى تكتمل بها الانساق الثقافية والمجتمعية والقيمية للفلاحين عن طريق علاقتهم بالسادة ومكان المدن والمفاهيم الجديدة التى يقدمونها لهـــم فقط . بل يجب عليه أيضا ايجاد الوسائل والطرق لدراسة تحول الفلاحين الى أنواع أخرى من الأفراد مثل العمال الصناعيين والطبقات الاجتماعية الحضرية أو طبقة البروليتاريا أو الشعوب الهامشية (١) بشكل أو بآخر ـ والتى لم نهتم بها كثيرا فى هذا الكتاب .

وفى الواقع يتغير كل من الفلاح والأنثروبولوجى . وقـد كانت التغيرات التى طرأت على الأنثروبولوجيا وليس التغيرات التى طرأت على الفلاح موضوعا لهذه الصفحات . وقد يكون الفلاح كموضوع اهتمام رئيسي لعلم الانثروبولوجيا سببا فى هذه التغيرات . وحاولت هنا أن أوضح طريقة نمو وتطور افكار ومناهج الانثروبولوجيين أثناء قيامهم بدراسة بعض الشعوب التى تتمثل طريقتهم فى الحياة فى المجتمعات الصغيرة التى يعيشون فيها والتى اعتاد الأنثروبولوجيون دراستها وقد بحثت عن ذلك الاهتمام المتطور بالملامح الناتجة عن الحياة فى جماعة سواء اذ اعتبرت هذه الحياة نوعا من العلاقات الاجتماعية أو نوعا من الثقافة أو بصفة خاصة نوعا من الاتجاه القيمى .

ويهتم هذا الفصل الأخير بأحد حدود الأنثروبولوجيا ، ولا يرجع

---

(١) يعنى مصطلح هامشي Marginal « الشيء المتأخر زمنيا أو الشيء القديم الطابع » وبناء على ذلك يرى الاستاذ جون كوبر مثلا أن الشعوب الهامشية هى « الشعوب ذات الثقافات المتناهية البساطة » . انظر

John M. Cooplr, Temporal
Sequence and the Marginal Cultures,
Catholic University of America, Anthrop. Ser., No. 10, Washington, 1941.

وعلى هذا الاساس يشير مصطلح الثقافة الهامشـــية Marginal Culture الى تلك الثقافات البسيطة الواقعة على تخوم مراكز حضارية متقدمة ، كما يستخدم أيضـــا هذا المصطلح ليشير الى الثقافات التى ظلت على بدائيتها ، أى القديمة .

هذا الاهتمام الى أن موضوع الكتاب وهو المجتمعات القروية أحد هذه الحدود ، ولكن لأن المزاج العام لشعب ما أو للقيم الموجودة لديه قــد أصبح موضع اهتمام الانثروبولوجيين ٢٨ ويقوم الانثروبولوجيون الآن بدراسة القيم الاساسية التى تتميز بها المجتمعات البدائية والمجتمعات المغلقة • وربما لم يستعدوا بعد لمواجهة أكثر تعقيدا مثـلا العــلاقات الداخلية بين المزاج العام للقرويين واعتماد كل منهــم على الآخــر ، والعلاقة بين تراث المدينة الواسع الانتشار والقسيس والتراث المحــلى للقرية •

وقد وضع السؤال الذى أثار المناقشة التى ذكرتها فى هذا الفصل فى شكل غامض بحيث لا يخدم احتياجات ذلك العلم الذى يقوم عــلى الاضافات القليلة من المعرفة الجديدة • وقد قمنا هنا بدراسة ذلك الموضوع على مستوى تجريدى يبعد كثيرا عن مجال البحث الواقعى • وحتى على ذلك المستوى ، فاننى أعتقد أنه يتبقى الكثير من الحقائق بالنسبة لنظرة القرويين الى الحياة الطيبة وقد لا يقبل الآخرون ذلك التقرير أو الوصف التالى المعدل للقيم القروية • وتتركز هذه القيم حول الارتباط الشديد بالتربة والأرض ، والنزعة الى تبجيل الموطن وطرق الأجــداد ونكران الذات من أجل رفاهية العائلة والجماعة ، وبعض الشك والريبة فى حياة المدينة التى تمتزج أيضا بالاعجاب بها ، واخلاقيــات واقعيــة متزنة • ولا شك فى أن ذلك الوصف غامض للغاية وتاثيرى محض بحيث لا يخدم أغراض البحث العلمى • ولكى نتوصل الى الحقيقة عن طريق التعريف الدقيق والمقارنة الدقيقة المتماسكة ، سنتناول دراسة القيم القروية بعض المسائل الخاصة الأخرى مثل تاثير التغيرات التى تطرأ على ملكية الأرض فى العلاقات والاتجاهات العائلية ٢٩ ، أو عاما اذا كان الفلاحون يرغبون فى انجاب كثير من الاطفال عندما تكون الارض وفيرة كما هو الحال عند شعب مايا أو لا يرغبون فى انجاب كثير من الاطفال عندما يجب تقسيم الأراضي المحدودة بين الورثة (كما يذكر هانش فى دراسته لشعب السويد فى القرن الثامن عشر) •

وهذا التقدم نحو معرفة أدق سيكون موضــع ترحيب ، ولكنــه سيقوض ـ كما يفعل العلم دائما ـ تكامل الحقيقة الملموسة وهى طريقة الحياة التى يتميز بها هؤلاء الفلاحون انفسهم • وليس ثمة ضرر فى أن

يتجه بعض المفكرين ـ الذين يميلون الى التأمل والفلسفة كهؤلاء الذين جمعهم الاستاذ فريدمان فى ندوته ـ الى التفكير فى نمط بشرى ثابت يمكن التعرف عليه رغم الصعاب التى تواجهها فى سبيل الحصول على المعلومات الدقيقة عن ذلك الموضوع . وقد ساعدنا التوصل الى استنتاج عام عن طريقة حياة ذلك النمط البشرى مع التحكم فى النتائج التى نتوصل اليها عن طريق الحقائق العامة بالنسبة لبعض القرويين على فتح مجال البحث ، كما سيوحى بكثير من المسائل بينما يحتفظ بالتكامل الطبيعى للحيـــاة القروية فى محاولة فهم الحقيقة وتعتبر الرؤية والحرفة جزءان ضروريان يساعد كل منهما الآخر فى محاولة فهم الحقيقة . ويستخدم كل الذين يقمون بتلك المحاولة كلا العاملين رغم اختلاف التناسب بينهما . كما يتطلب فهم وادراك التشابه والوحـــدة الطبيعية بعض الاصـطلاحات والاجراءات الدقيقة التى تؤدى الى ايجاد أدلة يقبلها الجميـــع . ومن ناحية أخرى قد تساعد ذلك الفهم على تطور اجراءات البحث ، ونمو حد المعرفة العلمية . وارشادها الى منطقة الضوء .

ملاحظات عن الفصل الاول

1 — A. L. Kroeber, in Method and Perspective in Anthropology, ed. Robert F. Spencer (Minneapolis : University of Minnesota Press, 1954).

2 — Graham Wallas, The Great Society (New york, Macmillan Co., 1914).

3 — A. R. Radcliffe-Brown, "The Methods of Ethnology and Social Anthropology". The South African Journal of Science, XX October, 1928, 143.

4 — A. R. Radcliffe-Brown, "The Meaning and Scope of Social Anthrpology", Nature, Vol. CLIV, No. 3904, August 26, 1944.

5 — E. E. Evans-Pritchard, Social Anthropology, London, Cohen and Wes, Ltd., 1951, PP. 10-11.

6 — W. Lloyd Warner, "Introduction", in the Irish Countryman, by Conrad M, Arensberg, New York, Macmillan Co., 1937, p. viii.

7 — Ralph L. Beals, "Urbanism, Urbanisation and Acculturation", American Anthropologist, LV, No. 1 (January-March, 1951", pp. 1-10.

8 — Raymond Firth, Malay Fishermen : Their Peasant Economy, London, Kegan Paul, Trench, Trubner and Co., 1946.

9 — Edmund R. Leach, Political Systems of Highland Burma : A study of Kachin Social structure, London, London School of Economics and Political Science, 1945.

10 — Elman R. aind Helen S. Service, Tobati : Paraguagan Town, (Chicago : University of Chicago Press, 1945).

11 — Norton H. Fried, Fabric of Chinese Society : A Study of the Social Life of a Chinese Country Seat (New York : Frederick A. Praeger, Inc., 1953).

12 — Horace Miner, St. Denis : A French-Canadian Parish (Chicago, University of Chicago Press, 1839).

13 — H. H. Turny-High, Chateau-Gérard ; The Life and Times of a Walloon Village (Columbia : University of South Clarolia Press, 1953).

14 — James West, Plainville, U.S.A. (New York, Columbai University Press, 1945).

15 — E. E. Evans-Pritchard, The Senusi of Cyrenaica (Oxford, Clareindon Press, 1949).

16 — Ruth Benedict, The Chrysanthemum and the Sword (Boston Houghton Mifflin Co., 1946).

17 — Robert H. Lowie, Toward Understanding Germany (Chicago : University of Chicago Press, 1945).

18 — Henri Mendras, Etudes de Sociologie Rurale : Novis et Virgin, ("Cahiers de la Fondation Nationale des Sciences Politiques". Paris : Librairie Armand Colin, 1915).

19 — Julian Steward et al. (Forth coming).

20 — Iwao Ishino and John W. Bennett, The Japanese Labor Boss System : A Preliminary Sociological Analysis (Ohio State University Research Foundation and Department of Sociology, Report No. 3. Columbus, April, 1953).

21 — A. L. Kroeber, in an Appraisal of Anthropology Today, ed. Sol Tax et al. (Chicago : University of Chicago Press, 1953, p. 360.

22 — Margaret Mead, "National Character", in Anthropology Today, ed., A. L. Kroeber (Chicago : Nniversity of Chicago Press, 1953, p. 653.

23 — Robert Redfield, "The Folk Society", American Journal of Sociology, LII. No. 4 (January, 1947), pp. 293-308; "The Natural History of the Folk Society", Cocial Forces, XXXI, No. 3 (March, 1953), pp. 224-228.

24 — Paul Kirchhoff, in "Four Hundred Years after General Discussion of Acculturation, Social Change, and the Hisorical Provenience of Culture Elements", Heritage of Conquest, ed. Sol. Tax et al. (Glencoe, Ill. : Free Press, 1952), p. 254.

25 — Pedro Armillas, "The Mesoamerican Experiment", in "The Was of Civilization", ed. Robert J. Braidwood, MS.

26 — Kalervo Oberg, "Types of Social Structure among the Lowland Tribes of South and Central America", American Anthropologist, LVII, No. 3, Part 1 (June, 1955), pp. 472, 87.

27 — Darylle Forde, " The Conditions of Social Development in West Africa, Retrospect and Prospect", Civilizations, III, No. 4 (1953), pp. 471-89.

28 — Firth, op. cit., p. 49.

29 — Laura and Paul Bohannon, The Tiv of Central Nigeria (London: International African Institute, 1953) : Akiga's Stor, trans. and annotated by Rupert East (London : Oxford University Press, 1939).

30 — E. E. Evans-Pritchard, The Nuer (Oxford : Clarendon Press, 1950).

31 — Seven Tribes of British Central Africa, ed., Elizabeth Colson and Max Gluckman (London : Oxford University Press, 1951), pp. 39 ff.

32 — E. Jensen Krige and J. D. Krige, The Realm of a Rainqueen : A Study of the Pattern of Lovedu Society (London : Oxford University Press, 1943).

33 — Melville J. Herskovits, Dahomey : An Ancient West African Kingdom (New York : J. J. Augustin, 1938).

34 — Forde, Op. cit.

35 — Paul Honigsheim, "Max Weber as Historian of Agriculture and Rural Life", Agricultural History, XXIII (July, 1949), pp. 179-213.

36 — Charles Wagley and Marvin Harris, "A Typology of Latin American Sub-Cultures", American Anthropologist, LVII, No. 3, Part 1 (June, 1955) pp. 428-51

37 — Robrt Redfield, Tepoztlan, A Mexican Village : A Study of Folk Life (Chicago : University of Chicago Press, 1930), pp.2-7.

أن الاقتراح الوارد في هذه الفقرة بشأن اطلاق اصطلاح « شعبي "Folk » على مثل تلك المجتمعات والثقافات الوسيطة احياه فوستر أخيراً (الملاحظة رقم ٤١ أدنا) ، وقد قمت فيما بعد باطلاق هذا الاصلاح على « النموذج المفاهيمي المجرد » .

38 — Robrt Redfield, "Introduction" to St. Denis : A French-Canadian Parish, by Horace Miner (Chicago : University of Chicago Press, 1939).

39 — John Gillin, Moche : A Peruvian Coastal Community (Smithsonian Institution, Institute of Social Anthropology, Pub. No. 3 Washington, D.C. : Government Printing Office, 1945); "Modern Latin American Culture", Social Forces, XXV, No, 3 (March, 1947), pp. 243-48.

40 — Beals, Op. cit.

41 — George M. Foster, "What is Folk Culture ?", American Anthropologist, Vol. LV, No. 2, Part 1 (April-June, 1953).

42 — Steward, Op. cit.

43 — Eric R. Wolf, "Types of Latin American Peasantry" : A Preliminary Discussion, American Anthropologist, LVII, No. 3, Part 1 (June, 1955), pp. 452-71.

44 — Wagley and Harris, Op. cit.

45 — C. Von Dietze, "Peasantry", Encyclopaedia of the Social Sciences, XII, pp. 48-53.

« .. من الصعب تعريف الاصطلاح في الوقت الذى يكاد يكون فيه من المستحيل وضع نظرية شاملة عن حالة الفلاحين وأوضاعهم .. » (صفحة ٥٠) .

64 — Raymnd Firth, Elements of Social Organization (London Watts and Co., 1951).

47 — Ibid., p. 102.

48 — Ibid., p. 88.

49 — Wolf, Op. cit.

50 — Gideon Sjoberg, "Folk aind Feudal Societies", American Journal of Sociology, LVIII, No. 3 (November, 1952), pp. 231-39.

51 — Idib., p. 234.

52 — A.L. Kroeber, Anthropology (New York : Harcourt, Brace and Co., 1984), p. 284.

53 — Rushton Conlborn, (ed.), Feudalism (Princeton, N. J. : Princeton University Pres, 1956)

54 — George Bourne, Change in the Village (New York : Geor-Von Dietze, Op. cit.

55 —

يلاحظ فون ديتزى أنه رغم أن الفلاح فى أوربا قد تحول من شخص ريفى تابع يعتمد على اقتصاد هو فى جوهره اقتصاد اعالة الى نوع من رجل الاعمال المتمتع بكامل حقوقه المدنية والسياسية ، الا انه مازال يحتفظ بروح ومزاج جماعته وهو : « الارتباط الشديد بترابه الوطنى وبتراث أسرته ، ذلك الارتباط الذى يسبق حتى فى المجال الاقتصادى رغبته فى تحقيق التقدم والكسب الفردى » . (صفحة ٥٠) .

56 — Helen and Elman Service, Op cit.
ge H. Doran and Co., 1912).

57 — James B. Watson, " Way Station of Westernization : The Brazilian Caboclo ", Brazil : Papers presented in the Institute for Brazilian Studies (Nashville : Vauderblit University Press), pp. 9-58.

58 — Oscar Lewis, in a Mexican Village : Tepoztl'an Restudied (Urbana : University of Illinois Press, 1951) .

59 — Olirve La Farge, Santa Eulalia : The Religion of a Cuchumat'an Indian Town (Chicago : University of Chicago Pres, 1947), Charles Wagley, " The Social and Religious Life of a Guatemalan Village " . American Anhropologist, Vol. LI, No 4, Part 2, Memoir No. 71 (October, 1949) ; Ruth Bunzel ; Chichicastenango : Vol. XXII, New York : J. J. Aogustin, 1952).

60 — Kreber, Op. cit., p. 361.

ملاحظات عن الفصل الثانى

1 — Robert Redfield, The Little Community : Viewpoints for the Study of a Human Whole (Chicago : University of Chicago Press, 1955).

2 — Raymond Firth, " Social Organization and Social Change, Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, LXXXIV, Part 1 (January-June, 1954), pp. 1-17.

3 — Melville Herskovits, Dahomey : An Ancient West African Kingdom (New York : J. J. Augustin, 1938).

4 — Julian H. Steward, Area Reserch, Theory, and Practice (Social Science Research Bull. 63 (New York : Social Science Research Council, 1950).

5 — Julian Steward et al. (Forthcoming).

6 — J. A. Barnes, "Class and Committees in a Norwegian Island Pairish", Human Relations, VII, No. 1 (1954), pp. 39-58.

7 — الوحدات المحلية هى بتعبير ستيوارد « رأسية » ، كما أن الجماعات المتكونة بفعل العمل المشترك والطبقات الاجتماعية المنغلقة على نفسها « جماعات فرعية اجتماعية وقافية افقية » . وبعض الجماعات فيما يبدو رأسية وافقية معا . ففى برمنيز يتم تحديد جمعيات صيادى الاسماك اقليميا . وفى كثير من قرى جزر الهند الشرقية تعتبر جماعات الطوائف ايضا مناطق ذات عادات رسمات مميزة .

8 — Barnes, Op. cit., p. 42.

9 — Ruth Bunzel, Chichicastlnango : A Guatemalan Vilage ("Publication of the American Ethnological Society", Vol. XXII (New York : J. J. Augustin, 1952).

10 — J. A. Pitt-Rivers, The People of the Sierra (London : Weidenfeld and Nicolson, 1954), pp. 32-33.

11 — Irwin T. Sanders, Balkan Village (Lexington, Ky. : Univer

sity of Kentucky Press, 1949).

12 — Barnes, Op. cit., p. 41.

13 — Ibid., pp. 41-42.

14 — Max Waber, General Economic History (Glencoe, III., Free Press, 1950).

15 — R. H. Tawney, Religion and the Rise of Capitalism (New York : Harcourt, Brace and Co., 1937).

16 — A.R. Radcliffe-Brown, The Andaman Islanders (Glencoe. III. : Free Press, 1948), p. 42.

17 — Bunzel, Op. cit., pp. 67 ff.

18 — Robert Redfield, "Primitive Merchants of Guatemala", Quarterly Journal of Inter-American Relations, Part I, No. 4 } (October, 1930), pp. 42-56.

19 — Sanders, Op. cit., pp. 105-6.

20 — Robert Redfield, "The Folk Culture of Yucatan (Chicago : University of Chicago Press, 1941), p. 163.

21 — Borje Hanssen, Osterlen (Stockhoim : L. T. S., Forlag, 1952).

22 — Webster Mc Bryde, Solol'a (New Orleans, The Department of Middle American Research, Tulane University, 1933).

23 — Conrad Arensberg and Solon T. Kimball, Family and Community in Ireland (Cambridge : Harvard University Press, 1940), Chap. XIII.

24 — Barnes, Op. cit., p. 43.

25 — Ibid., p. 44.

26 — A. R. Radcliffe-Brown, The Social Organization of Australian Tribes ("Oceania Monographs", No. 1 (Melbourne : Macmillan Co., 1931), p. 95.

27 — Barnes, Op. cit., p. 44.

28 — Horace Miner, St. Denis : A French-Canadian Parish (Chicago : University of Chicago Press, 1939), pp. 69-70.

29 — A. M. Shah, "A Dispersed Hamlet in the Panchmahals", Economic Weekly, (Bombay), (January 26, 1955), p. 115.

30 — Marian W. Smith, "Social Structure in the Puniab", Economic Weekly (Bombay), II, No. 47 (November 21, 1953), 1297.

31 — Mc Kim Marriott, "Little Communities in an Indigenous Civilizatioin", Village India (Chicago : University of Chicago Press, 1955), p. 175.

32 — Bernard Cohn, "Changing Status of a Depressed Caste Village India, p. 57.

33 — Herskovits, Op. cit., p. 57.

34 — Wilbert E. Moore, Industrialization and Labor (Ithaca Cornell University Press, 1951).

35 — Max Gluckman (The Lozi of Barotseland in North Western Ohodesia) in Seven Tribes of British Central Africa, (ed.) Elizabeth Colson and Max Gluckman (London : Oxford University Press, 1951).

36 — Gideon Sjoberg, "Folk and Feudal Societies", American Journal of Sociology LVIII, No. 3 (November 1952), p. 234.

37 — Donald Pierson (with the assistance of Levi Cruz et al.), Cruz das Almas ("Smithsonian Institution, Institute 0 Social Anthropology Publications", No. 12 Washington D.C., Government Printing Office, 1948).

38 — Sanders, Op. cit., p. 11.

39 — Miner, Op. cit., pp. 250-51.

40 — « وهكذا فانه منذ مائة وخمسين عاما كان هناك فى كل دائرة أو منطقة ريفية شخص أو شخصان من البيروقراطيين يعيشون فى مستوى أعلى بكثير من مستوى باقى السكان ، يتحدثون بلغة مختلفة وينتقلون من وظيفة الى وظيفة دون خلق نوع من الارتباط المكانى أو المحلى الملحوظ . وكان يدنوهم فى المنزلة بضع تجار ، هم فى العادة من مواطنى البلدة ولديهم مزيد من الارتباط المحلى ، وان كانوا أقل من البيروقراطيين

مقدرة على الحركة . أما باقى السكان فكانوا من الفلاحين ... »

(بارنز ، نفس المرجع المذكور آنفا ، ص ٥٦)

41 — Pitt-Rivers, Op. cit.

42 — Ibid.

43 — Sjobery, Op. cit., p. 234.

ملاحظات عن الفصل الثالث

1 — "Acculturation : An Exploratory Formulation", The Social Science Research Council, Summer Seminar on Aculturation, 1953 (Members : H. G. Barnett, Leonard Broom, Bernard J. Siegel, Evon Z. Vogt, James B. Watson), American Anthropologist, LVI, No. 6 (December, 1954), p. 974.

2 — George M. Foster, "What is Folk Culture?", American Anthropologist, LV, No. 2, Part I (April-June, 1953), p. 169.

٤ — قد يوجد بالطبع عدد من التراثات الكبرى ، على نحو ما هـو المنفي باستبدال كلمة فلاح Peasant بكلمة شعبى Folk وذلك للمواءمة بين اصطلاح المرجع والمصطلحات المستخدمة فى هذه الفصول . وفى اعتقادى أن المجتمعات الشعبية بتعبير فوستر هى الى حد كبير جدا نفس ما أطلق عليه هنا اسم المجتمعات القروية .

4 — Ibid.

5 — فى نفس المرجع السابق ص ١٦٤ عند نقل هـذه الفقرة أسـمح موجود الآن فى الهند مـ نالاسلام والهندوكية السنسكريتية . وقد توجد أيضا تقسيمات فرعية عديدة لتراث كبير . ومن جل التبسيط أتحدث عن « اثنين » .

6 — Akiga's Story, trans. and anotated by Rupert East London : Oxford University Press, 1930), p. 11.

7 — Elsdon Best, Maori Religion and Mythology (Dominion Museum, Bulletin No. 10 (Wellington, N.Z. : W.A.G. Skinner, Government Printer, 1924), pp. 31-32. See also B. Malinowski, "Baloma : The Spirits and the Dead in the Trobriand Islands", in Magic, Science and Religion), Glencoe, Ill. : Free Press, 1948), pp. 125-227, 231 ff.

8 — Melville Herskovis, Dahomey : An Ancient West African Kingdom (New York : J.J. Augustin, 1938), Vol. II, Chap. xxvi.

9 — Marcel Griaule, Dieu d'Eau (Paris : Les Editions du Chêne, 1948).

10 — Pedro Armillas, "The Mesoamerican Experiment", in Anthropology Today : An Encyclopedic Inventory, ed. A.L. Kroeber (Chicago : University of Chicago Press, 1953), p. 323, "Cultural Causality and Law : A Trial Formulation of the Development of Early Civilizations", American Anthropologist LI, No. 1, (January-March, 1949), pp. 1-27.

11 — Julian H. Steward, "Evolution and Process", in Anthropology Tody. An Encylopedic Inventory, ed. A.L. Kroeber (Chigaco: University of Chigaco Press, 1953), p. 323; "Cultural Causality and Law : A Trial Formulation of the Development of Early civilizations", Americain Anthropologist, LI. No. 1 (January—March, 1949), 1-27.

12 — Studies in Chinese Though, ed. Arthur F. Wright "Comparative Studies in Cultures and Civilizations", ed. Robert Redfield and Milton Singer (Chicago : University of Chicago Press, 1953).

13 — Swami Nikhilananda, The Upanuishads : A New Translation (New York : Harper and Bros., 1949).

14 — Wing-tsit Chan, Religious Trends in Modern China (New York : Columbia University Press, 1953), pp. 141 ff.

الفرق بين المستويات (العادية والتدرجية) العلمانية والكهنوتيــة فى العقيدة والفلسفة الصينية يتناوله وولفرام ابرهارد فى مقال استعراضي بمجلة Archiv für Religionswissenschaft, XXXIII, No. 3 (1936), pp. 304-44.

وفيما يتعلق بديانات الشرق الاوسط فان رافيل باتاى Raphael Patai تناولها فى مقالة بعنوان : « الدين فى حضارة الشرقين الاوسط والادنى والحضارة الغربية » المنشور فى مجلة : Southwestern Journal and Anthropology, X, No. 3 (Autumn, 1945), pp. 239-14.

15 — V. Raghavan, "Adult Education in Ancient India", Memoirs of the Madras Library Association (1944), pp. 57-65; "Methods and Popular Religious Instruction, South India", Ms. "Variety aind Integration in the Pattern and Indian Culture", MS.

16 — Raghavan, "Methods of Popular Religious Instruction, South India", MS.

17 — G. Von Grunebaum, "The Problem : Unity in Diversity", in Unity and Variety in Muslim Civilization, cago Press, 1955), p. 28.

18 — Ibid., pp. 28-29.

19 — Edward Westermarck, Ritual and Belief in Morocco (London : Macmillan and Co. Ltd., 1926).

20 — Derk Bodde, "Harmony and Conflict in Chinese Philosoed. G. Von Grunebaum (Chicago : University of Chiphy", in Studies in Chinese Thought, ed. Arthur F. Wright (Chicago : University of Chicago Press, 1953), p. 79, No. 49.

21 — Stella Kramrisch, The Art of India throught the Ages (London : Phaidon Press Ltd., 1954).

22 — انني مدين في طريقة المغايرة هذه بين نوعي الدراسة للاستاذ ملتوف سنجر Milton Singer

23 — Norvin Hein, "The Ram Lila", The Illustrated Weekly of India, October 22, 1950, pp. 18-19 (Provided by Mckim Marriott).

24 — Oscar Lewis, Life in a Mexican Village : Tepoztl'an Resudied (Urbana : University of Illinois Press, 1951), pp. 273 ff., John Gulick, Social Structure and Culture Change in a Lebanese Village ("Viking Fund Publications in Anthropology", No. 21 (New York : Wenner-Gren Foundation for Anthropological Research Inc., 1955), pp. 92 ff.

25 — M.N. Srinivas, Religion aud Society among the Coorgs of South India (Oxford : Clarendon Press, 1952). See also Bernard S. Cohn, "The Changing Status of a Depressed Caste", in Village India, ed. Mckim Marriott ("Comparative Studies in Cultures and Civilizations", ed. Robert Redfield and Milton Singer (Chicago : University of Chicago Press, 1955).

26 — Mckim Marriott, "Little Communities in an Indigenous Civilization", in Village India, pp. 171-222.

27 — تكرم السيد ماريوت فروى لى شيئا عن الادلة القوية بخصـــوص الرأى القائل بأن الالهة لاكسمى قد دخلت التراث الكبير فى وقت متأخر نسبيا ومن ثقافات الهند الشعبية · وهو ينقل هذا المعنى عن كل من ريس دافيدز Rhys David ورينـــو Renou وفيللوزات Fillozat ويبدو أن هذه الالهة لم يكن لها وجود فى نصوص الفيدا القديمة ، وان تماثيلها كانت موضوعة فى الاماكن المحجوزة للالهة الشـــعبية ، وان شريعة البوذية تنتقد البرهمانيين بعنف لمارستهم طقوس فارغة لا تتفق مع مافى الفيدا كتلك الطقوس التى يقيمونها الى سيرى ديفى Siri Devi (لاكسمى) وغيرها ·

28 — لقد اخبرنى ماريوت ان القروى الاكثر علما وثقافة فى « كيشــان جارحى » يتخذ ـ باختصار ـ مواقف متميزة تماما تجاه التراثات الكبرى والصغرى فالتراث الصغير الذى يراه واضحا فى تصرفات غير المتعلمين منالقرويين هو مسالةعرف أو عادة كما انه مسالةتتعلق بالجهل أو المعرفة الناقصة · أى انه مقسم بالخلط أو الغموض ويتم التعبير عنه بصور مادية أو بيولوجية محسوسة · أما التراث الكبير ، وهو الذى يعتقد القروى المثقف انه ممثلا له بدرجة أكبر ، فهو نظرية أو معرفة بحتة مليئة ومقنعة : انه نظام ودقة يلتمس التعبير عنه فى الصور التجريدية والرمزية ·

29 — الاتصال الشخصي

30 — Roger Le Tourneau, "The Muslim Town : Religion and Culture", MS.

31 — Shamrao Hivale, The Pardhans of the Upper Narbada Valley (London : Oxford University Press, 1946).

32 — Raymond Firth, Elements of Social Organization (London : Watts and Co., 1951), Chap. ii, pp. 35 ff.

ملاحظات عن الفصـل الرابع

1 — Ruth Benedict, Patterns of Culture (New York : Benguin Book, Inc., 1946).

2 — Margaret Mead, Sex and Temperament in three Primitive Societies (New York : William Morrow and Co., 1955).

ان الاثبات المقابل ـ للتشابه فى توجيهات القيمة بين الشعوب البعيدة وبين غيرها من الشعوب شديدة التباين ـ يوضحه والتر جولد شميدت Goldschmidt فى مقالة له بعنوان : « الاخلاق وهيكل المجتمـــع : دراسة اثنولوجية فى علم اجتماع المعرفة » المنشور بمجلة :
American Anthropologist, LIII, No. 4, Part I (October-December, 1951), pp. 506-24.

3 — Oscar Handlin, The uprooted (Boston : Little, Brown and Co., 1951), p. 7.

4 — Malcolm Darling, Rusticus Loqitur : The Old Light and the New in the Punjab Village (London : Oxford University Press, 1930), p. x.

5 — René Porak, Un Village de France : Psycho-Physiologie du Paysan (Paris : G. Doin and Cie, 1943).

6 — Vegetius Epitoma Rei Militaris, quoted in Darling, Rusticus Loquitur, p. x.

7 — Ladislas Raymond, The Peasants (4 vols. : New York : Alfred A knopf, 1925).

8 — E. K. L. Francis, The Personality Type of the Peasant acording to Hesiod, Works and Days : A Culture Case Study, Rural Sociology, X, No. 3, (September, 1945), p. 278.

9 — Ibid., p. 277.

10 — George Bourne, Change in the Village (New York : George H. Doran and Co., (12).

11) — فى محاضرة القيت باحدى كليات جامعة شيكاغو فى ١٤ مايو عام ١٩٠٤

12 — Irwin T. Sanders, Balkan Village (Lexington, Ky, (University of Kentucky Press, 1949), p. 47.

13 — J. A. Ritt-Rivers, The People of the Sierra (New York : Criterion Books, 1954), p. 47.

14 — J. Weulerse, Paysans de Syrie et du Proche-Orient (Paris, 1946), p. 173.

15 — Pitt-Rivers, Op. cit., p. 47, No. 1.

الا أن حامد عمار فى دراسة له حول « البلوغ فى قرية مصرية ـ سيلوا ـ بمحافظة أسوان ، المنشورة فى :

(London, Routledge and Kegan Paul, Ltd., 1954)

يذهب الى ان الفلاح يرتبط بأرضه ارتباطا عاطفيا قويا • ويقول أيضا بأن جد الفلاح واهتمامه بعمله انما هو شهادة طيبة لاى شاب مقبل على الزواج (ص ٣٥) • ويؤكد « كرامة واحترام العمل الزراعى مقارنا بغيره من الاعمال » (ص ٣٩) •

16 — العمل « هناك شعور بانه عبء فرضته الالهة ـ ثم ندمت عليه » •

« دورة الفضول نفسها تسمح من وقت لآخر باستمتاع كامل بفترة سعيدة من الراحة ، يصفها هزيود بحيوية شاعرية •• » (فرانسيس ، نفس المراجع السابق ، ص ٢٨٤) •

17 — Hesiod, The Homeric Hymns and Homerica. With an English translation by Hugh G. Evelyn-Whyte (London : William Heinemann, New York : Macmillan Co., 1914), p. 55.

18 — Bourne, Op. cit., p. 44.

19 — Robert, H. Lowie, The Crow Indians (New York : Farrar and Rinehart, 1935), p. 57.

20 — Bourne, Op. cit., p. 41.

21 — Hesiod, Op. cit., p. 31.

22 — Pitt-Rivers, Op. cit., Chap. VI.

23 — Bourne, Op. cit.

24 — Ibid.

25 — « لقد كانت الثورات الزراعية التى قامت فى أوربا الشرقية خلال السنوات ١٩١٧ — ١٩١٩ مختلفة تمام الاختلاف عما سبقها من ثورات كحرب الفلاحين ١٥٢٤ — ١٥٢٥ فى جنوب المانيا ووسطها أو حركات الفلاحين فى السنوات الاولى للثورة الفرنسية ، وهى الثورة التى كانت تهدف فى المقام الاول الى الحد من أو القضاء على الخدمات والرسوم الجائزة التى كان الاقطاعيون يبتزونها » .

(C. Von Dietze, "Peasantry", Encyclopaedia of the Social Sciences, XII, p. 50).

« وينظر هزيود فيما يبدو الى السيطرة الاقطاعية وانقسام المجتمع الى طبقات كقضية مسلم بها . اما ما يثير إستياءه فهو اساءة استعمال السلطة غير انه لا يبذل أى محاولة لعلاج ذلك ، اللهم الا عن طريق الاقناع والاشارة الى الجزاء الالهى (Francis, Op. cit., p. 293)

« ان الخلافات العميقة فى صفوف الفلاحين انفسهم وبين الفلاحين من جهة وبين غيرهم من الجماعات من جهة أخرى لم تكن داعيا لاى حد . وتلك كانت الصورة المقبولة للمجتمع . وكان المتوقع من الاقطاعى أن يكون متكبرا ومترفا على ن يكون عطوفا وكريما ، مثلما كان المتوقع من الفلاح أن يكون مقتصدا ومتسما بالاحترام . بل ان الامتيازات الاقطاعية المرهقة الى حد المرارة لم تكن أبدا محلا لاى نزاع » . (Handlin, Op. cit., p. 23) وقد كتب كارل ماركس نفسه يقول ان الفلاحين الفرنسيين عجزوا عن الثورة لانه لم يكن لديهم احساس مشترك بالظلم والاضطهاد .

26 — Gideon Sjoberg, "Folk and Feudal Societies", American Journal of Sociology, LVIII, No. 3 (November 1952), p. 235.

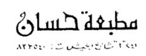
27 — Lucien Bernot et Rene Blancard, Nouvelle, Un Village Fransais (Paris, Institut d'Ethnologie, 1953), p. 282.

28 — Stanford Humanities — Anthropological Conference, Santa Barbara, May 16, 17, 1947 (Mimeographed); David Bidney, "The Concept of Value in Modern Anthropology", in Anthropology Today, ed., A.L. Kroeber (Chicago : University of Chicago Press, 1953), pp. 682-99; "Values" in An Appraisal of Anthropology Today, ed. Sol Tax et al . (Chicago

University of Chicago Press, 1953), Chap. XVIII, pp. 322-41 Clyde Kluckhohn, "Values" and Value-Orientations in the Theory of Action " 'in Toward a General Theory of Action, ed. T. Parsons and E. Shils (Cambridge : Harvard University Press, 1951), pp. 388-433 and papers published or Forthcoming of the Study, under Kluckhohn's direction of Values in certain Communities of the Southwest, A.L. Kroeber "Reality Culture and Value Culture" in The Nature 0 Culture (Chicago : University of Chicago Press, 1952), pp. 152-68;

29 — Donald S. Pitkin, "Land Tenure and Family Organization; an Italain Vilage" (Ph. D. Thesis, Harvard University, 1954).

محتويات الكتاب


مطبعة حسان
١٠٢ شارع الجيش ت : ٨٢٢٥٤٠